سلمان العودة

إشراقات قرآنية



جزء عم (٢)

الإسلام اليوم

إشراقات
قرآنية



salman_alodah

آيات "جزء عم" على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأنس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذة ليست لغيرها.

إن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

ولذا رأيت البداءة في تلقي إشراقات القرآن بـ "جزء عم".



الإسلام اليوم

للنشر والإنتاج

المملكة العربية السعودية

الرياض ص.ب. 28577 الرمز: 11447

هاتف: 012081920 فاكس: 012081902

www.islamtoday.net



إشراقات قرآنية

« جزء عم »

(٣)

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

سلمـان العـودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد

إشراقات قرآنية. / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٣ هـ

٤٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - جزء عم - تفسير

أ. العنوان

ديوي ٦, ٢٢٧ ٨٢٤٨ / ١٤٣٣

رقم الإيداع: ٨٢٤٨ / ١٤٣٣

ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الثانية - ذو الحجة ١٤٣٣هـ

الرياض:

هاتف: ٠١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

إشراقات قرآنية

«جزء عم»

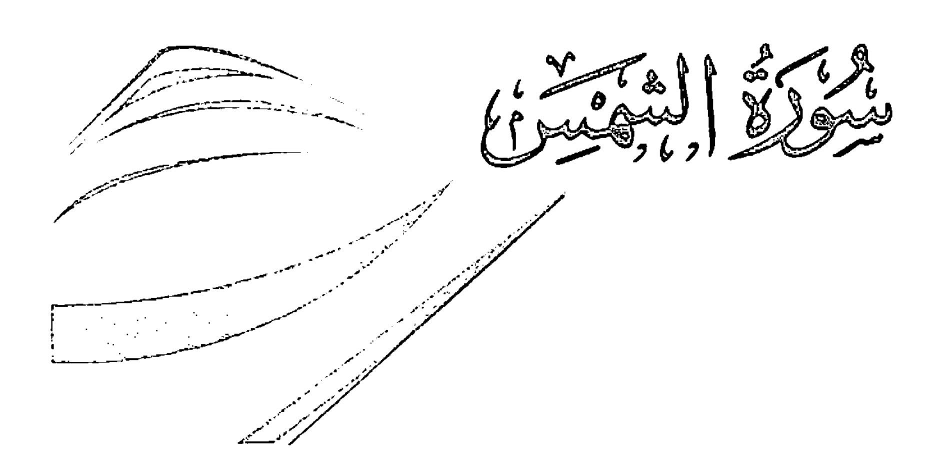
سلمان بن فهد العودة

الجزء الثاني

من «سورة الشمس» إلى «سورة الناس»

الإسلام اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم


سورة الشمس

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥ ﴾

[الشمس: ١-١٥].

* تسمية السورة:

١- اسمها: «سورة الشمس»، أو «سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾»، كما في معظم كتب التفسير والحديث[١].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾»[٢]، بالآية الأولى منها، وهكذا هي في بعض كتب التفسير، وهذا جيد للتفريق بينها وبين السور الأخرى في جزء (عم) المبدوءة بالشمس، مثل قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ ونحوها.

* عدد آياتها: (١٥) آية، أو (١٦) بحسب اختلاف المصاحف[٣].

* وهي مكية بإجماع المفسرين[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٠٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣١)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٩)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

وفي هذه السورة خَصِيصة ليست لغيرها، وهي: افتتاحها بأحد عشر قَسَمًا متتالية، وأنت إذا تأملت القرآن، وجدت جمهور معانيه ودلالاته التي يحتاج إليها في تقرير الإيمان ورسم مسيرة الإنسان في الدنيا والآخرة، مما يسهل فهمه على الشاب في مقتبل عمره، والأعرابي في الصحراء، وغير المتخصِّص، والعامي في متجره أو دكانه، دون حاجة إلى مراجعة كتب التفسير؛ لأنه خطاب لهم، وهم متعبدون بتلاوته والإيمان به.

وفي الوقت نفسه تجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلا الخواص، لأنه من العلم الذي يخاطب به الخاصة دون غيرهم، أيًّا كان اختصاصهم.

وفي القرآن الكريم أنواع عظيمة من الإعجاز المبهر، على أنه لم يحشد من المعاني التي لم يكن الناس يعرفونها بما يكون ابتلاءً لهم، وقد يكون سببًا في كفرهم، فلو قال الله لهم: إن حجم الشمس كذا؛ وبعدها عن الأرض كذا، مما لم يكن العلم قد وصل إليه ولا ألمَّ به، لكان في ذلك محنة لهم.

ولو قال الله لهم: سوف تأتي طائرات في الفضاء، وسيارات، وأجهزة اتصال، وأجهزة بث فضائي وكمبيوترات دقيقة ومتطورة؛ قبل مشاهدتهم لها؛ لربما كان ذلك سببًا في كفرهم؛ لأنهم يستبعدونها بالحس، ولا يعرفون كيف ستقع؛ ولهذا جعل الله تعالى الإشارة إلى مثل هذه المعاني في القرآن إشارات عامة، يؤمن بها كل أحد دون الدخول في التفاصيل، فأشار إلى النجوم، ومواقعها وعظمتها، لكن التفاصيل تُترك لأهل الاختصاص الذين يطلعهم الله في كل وقت على ما لم يكن معروفًا عند أهل العلم من قبلهم.

وقد منح الله الناس العقول وسلَّطهم على الكون باكتشافه وتسخيره، ولم تأت الكتب السماوية لتلقِّن الناس تفصيلات تلك العلوم، بل لتحفز عقولهم ومداركهم على البحث عنها واستقصائها وتجريبها.

* استفتح الله السورة بالقَسَم بـ ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس:١]:

وهذا المعنى يشير إلى ضخامة الشمس، وأهميتها في الحياة؛ ولذلك أقسم الله تعالى بها أولًا، وأقسم بضحاها ثانيًا، فهما قَسَمان.

أقسم بالشمس، سواءً أكانت طالعة أم غائبة، مرئية أم غير مرئية؛ لأنها جِرْم هائل، وهي كتلة من اللَّهب جعل الله من شأنها أن تَفِيض على هذا الوجود طاقةً عجيبة.

إن الله خالق الشمس والكون، قد جعل لكل شيء سببًا، فجعل الشمس في هذا الوجود مصدر حياة النباتات والحيوانات والإنسان وغيره، ولها من ضخامة الحجم ما ينكره بعض الناس ويستغربونه ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ [يونس:٣٩].

وهذا ليس من الكلام الذي يجب على الناس الإيمان به، ولم يُمتَحنوا به، لكنَّ أهل الاختصاص وأهل الذكر في هذا الجانب بنوا ذلك على حقائق ومعلومات واستنتاجات علمية صحيحة.

والشمس كتلة من اللهب بحجم كتلة الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرة، ويا للحكمة والقدرة الربانية أن تبقى هذه الكتلة معلقة في الفضاء، ثم يجعل الله سبحانه وتعالى بينها وبين الأرض بعدًا كبيرًا، بحيث لا تصل أشعتها إلى الأرض إلا وقد بردت، وأمكن أن يستفاد منها، ولذلك يذكر العلماء أن متوسط حجم المسافة بين الشمس والأرض مائة وخمسون مليون كيلو مترًا.

والشمس ليست إلا كوكبًا من الكواكب التي نثرها سبحانه وتعالى في السماوات، إلى جوار مجرات وأفلاك وعوالم، لو أن الإنسان قرأ وتأمل فيها لاستشعر معنى جدية الخلق، وجدية الكون، وجدية الإيمان، لكن كثيرًا من الناس لا يمنحون عقولهم وقلوبهم الإيمان والانتفاع والاعتبار.

كذلك ما يتعلق بحرارة الشمس، يقول العلماء: إن حرارة الشمس تتفاوت كثيرًا ما بين حرارتها عند سطحها وما بين حرارتها في مركزها، فيقولون: إن حرارتها عند السطح تصل إلى خمسة آلاف وخمسمائة درجة مِئوية، لكن حرارتها عند المركز تصل إلى عشرة ملايين درجة مئوية، وانظر الفارق الهائل!

والإنسان الساذج يرى هذه الشمس التي هي عنده عبارة عن قرص مدوَّر، فلا يفرق بينها وهي تمشي من بعيد في هذا الأفق، وبين المصابيح الكاشفة التي يراها في بعض المدن!!

فالله سبحانه وتعالى هنا يكشف ويزيل عن الإنسان الغفلة والعادة والإِلف حينما يطرق سمعك بالقَسَم بالشمس، والقَسَم بضحاها.

والضحى عبارة عن شيئين:

١ - نور الشمس الذي يضيء هذه الأكوان، فتشرق بعد ظلام.

٢ - الحرارة، والضحى مكون من الحرارة ومن النور، وكما يقول العلماء: لا يصل إلى الأرض من حرارة الشمس إلا اثنين من بليون، فاثنان من بليون من حرارة الشمس التي تصل إلى الأرض وينتفع الناس بها، أما البقية فهي تضيع في هذا الفضاء الهائل الذي خلقه الله وأبدعه، ومع هذا القدر اليسير، انظر كم فيه من البركة والخير والنماء والحياة!!

وكم فيه من الحرارة التي تُصهر وتُذيب حين يكون الإنسان في وهج الظهيرة وفي قلب الصحراء وليس ثَمَّ ما يُكِنُّه من الهجير.

فهذا القَسَم من شأنه لفْتُ نظر الإنسان إلى بديع مخلوقات الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ يستَدِلُّ بالمخلوق على الخالق.

* ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:٢]:

القمر بالنسبة للأرض مولود صغير؛ فهو أقل من جزء من خمسين جزءًا من حجم الأرض، وهو ذرة صغيرة بالنسبة للشمس.

والقمر عبارة عن تابع من توابع الأرض، وكذلك هو تالٍ للشمس، فهو يدور حول الأرض، وفي الكون أقمار هائلة، لكن الله سبحانه وتعالى خص ذكر القمر لنفعه في الأرض التي خلق الله عليها البشر لينتفعوا بها، وإذا كانت الشمس هي آية النهار، فالقمر هو آية الليل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

ومعنى محو القمر أنه ليس فيه ضوء بذاته، وإنما نوره انعكاس الشمس عليه.

فهذا من معاني قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:٢]، كما ذكره المفسرون، كالفراء وغيره، فإنهم قالوا: أي: تبعها، فالقمر ضوؤه من ضوء الشمس، ونوره من نورها[١].

والمشهور عند أكثر المفسرين -ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره- أن المعنى: أن القمر يجيء بعد الشمس[٢]. وذلك أنه إذا أظلمت الدنيا وذهبت الشمس حل القمر محلها، وبخاصة في أول الشهر وفي أيام البِيض حينما يكون القمر بدرًا، فكأنه يخلف الشمس في إنارة الأرض وإشراقها.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢١٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٣٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢١٢)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (١٢٨)، و«الزهد» لأبي داود (٤٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠٣)، (٨/ ٤١٠)، و«الدر المنثور» (١/ ٥٧٦)، (١٥/ ٤٥٥).

ولهذا كان القَسَم بالشمس أقوى؛ لأنه أقسم بجِرمها، ثم بضحاها، أما بالنسبة للقمر فأقسم بالقمر وحده، وذكر حالة خاصة له، وهي: ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾ أي: الشمس، وفي ذكر القمر أشار إلى نسبته إلى الشمس!

* ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس:٣]:

النهار يتناسب مع الشمس؛ لأنه أثر من ضوئها وضيائها، وقوله: ﴿إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي: كشفها وأظهرها. ويحتمل أن يكون مرجع الضمير إلى الشمس، يعني: أنها تتجلَّى وتُرى في النهار.

ويحتمل أن معنى: ﴿جَلَّاهَا﴾ أي: جلَّى البسيطة، أي: الأرض[1]، وإن لم يكن في السياق، ولكن هذا معروف، وهو أسلوب من أساليب القرآن البديعة، وكثير من أهل البلاغة يُعَتِّمون عباراتهم وألفاظهم بالضمائر وغيرها، لكن في القرآن تجدها في الأشياء الواضحة التي يفهمها كل أحد، ولا يحتاج الأمر فيها إلى عود الضمير على مذكور، لأن كل سامع يدري أن النهار هو الذي يكشف ويجلِّي ويوضِّح الأرض.

* ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٤]: أي: يغطي الأرض فتظلم.

أقسم تعالى بـ «الشمس» وبـ «النهار»، وأقسم بـ «القمر» وبـ «الليل»، وكل ذلك فيه الإشارة إلى النور؛ فالشمس نور، وضحاها نور، والقمر نور، والنهار نور، وحتى الليل، وإن كان ظلامًا يَغْشَى إلا أن الله جعل فيه نورًا، كما قال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، وفي ذلك إشارة إلى غلبة النور وكثرته وأصالته وعمقه، ومن هذا المعنى أخذ بعض المفسرين أن هذه الآية فيها إيماء وإشارة إلى قوة الدين وغلبته وظهوره وعزته.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١٠)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٥٦).

* ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ [الشمس:٥-٦]:

استكمل الله بهاتين الآيتين كل ما حول الإنسان، بحيث إذا نظرت يمينًا أو شمالًا أو إلى فوق أو تحت أو أمام أو وراء؛ فلا مخرج لك من هذه الأقسام التي أقسم الله بها.

وهنا إشارة إلى بناء السماء، فقوله: ﴿ وَمَا ﴾، يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي بناها، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا موجود في القرآن مثل قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٢٢]، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: والسماء وبنائها، وفي هذا إشارة إلى صفة بناء السماء، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧].

وحينما يتأمل الإنسان في ملكوت السماوات والأرض مما يقرأ أو يشاهد في المواقع المتخصِّصة أو البرامج العلمية والأفلام، يجد أمرًا عجبًا، فمن أسباب قوة الإيمان رؤية السماء والنجوم والمجرَّات والكواكب الهائلة المذهلة، وكذا رؤية البحر والأرض، وما خلق الله.

هنا تظهر قوة البناء وإحكامه وإبداعه؛ بحيث يجد المتأمِّل في ذلك ما يعزِّز إيمانه ويقوِّيه.

ويدخل في بناء السماء المجرات والأفلاك والنجوم؛ لأنها كلها في السماء؛ فالكثيرون يفهمون من كلمة «السماء» أنها فقط السماء التي فيها الملائكة، في حين أن الصحيح في الشرع واللغة: أن كل ما علا وارتفع فهو سماء، فيدخل في ذلك الأفلاك والمجرات والكواكب والنجوم والسماوات السبع التي ذكرها الله[1].

﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾: لما ذكر السماء أعقبها بذكر الأرض التي جعلها مهادًا

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (س م و) (١٤/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠٩).

وبساطًا، وقرَّبها للناس وسهَّلها لهم، و«الطحو» جاء في موضع آخر بلفظ «الدحو»: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، والدال والطاء متقاربان في المخرج، وله عدة معانٍ:

منها: كون الأرض كرة كما هو معروف، وهذا أمر بدهي، وقد ذكره المتقدمون من أهل الإسلام وغيرهم، وممن ذكر هذا ابن تيمية، ونقله عن أبي الحسين ابن المنادي من الحنابلة، ونقل إجماع العلماء عليه[1]، ولكن تجد في بعض البيئات الإسلامية التي يغلب عليها الجهل والاعتماد على الثقافة المحلية التشكيك في هذا.

وهذه ليست من الأمور التي يُمتَحن الناس بها بإيمانهم في الدار الآخرة، لكن يُمتَحنون بها في الدنيا؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف أن الأرض كروية ويستفيد من القوانين العلمية، فالتخلف العلمي يفرز نقصًا وقصورًا، ويبعد أهله عن حسن التوظيف، والانتفاع بما جعل الله تعالى في هذا الكون من النواميس والأسرار.

ومن معاني: ﴿طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها، فمع أن الأرض كروية، إلا أنها مبسوطة للناس؛ يمشون عليها، ويستفيدون منها، وينتفعون بها.

وإذا أراد الإنسان أن يبني عليها أو يزرع أو أن يقيم بناءً، يجد في الأرض إمكانيات هائلة لكل ما يحتاج.

ومن معاني الطَّحو: أن جعل في باطنها من الخيرات والمعادن والبركات الشيء الكثير، والله سبحانه وتعالى قال في موضع آخر: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠] فمن معاني «الطحو»: أن جعل في الأرض أقواتها وخيراتها.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ١٩٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨).

* ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧]:

هذه خلاصة القَسَم، ومدار الأمر وواسطة عقد النظام في الأقسام، أقسم الله بالنفس، وكأن هذه المخلوقات كلها خُلِقتْ وذُلِّلَتْ من أجل الإنسان، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

وهذا يثمر عند الإنسان حالة من الإيمان والاعتبار، ولا يمكن أن يحصل عليها بسهولة إلا إذا أعمل فكره وتأمَّل.

والصحيح: أن القسم ليس بنفس خاصة، كنفس الرسول ﷺ، أو نفس شخص بعينه، وإنما اللفظ عام، وهذا كما في قوله: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [الانفطار:١٩].

فأقسم بالنفس الإنسانية التي سوَّاها سبحانه، والنفس تطلق على الروح، وتطلق على الإنسان من حيث هو بدن وروح، والمدار هنا على الإنسان بعدما اكتمل، وإن كان في ذلك إشارة إلى النفس وشرفها؛ لأنه لما أقسم بالنفس لم يقسم بالجسد المجرد، وإنما أقسم بالنفس التي يصير بها هذا التمثال الجامد كائنًا حيًّا مكلَّفًا مُكرَّمًا عزيزًا، ويتلقى الإلهام، ومنهم الأنبياء والرسل، ومنهم مَن يدخل الجنة ويتشرَّف بجوار الله عز وجل، ومنهم مَن يكون له من المقامات في العلم والعمل القدر الكبير.

فالقَسَم هنا بالنفس، وإن كان قَسَمًا بالإنسان من حيث هو جسد وروح، إلا أن فيه إشارة إلى شرف النفس، وما أحسن ما قيل:

يا خادمَ الجِسمِ! كَمْ تَشْقَى لِخِدْمَتِهِ! أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيمَا فيه خُسْـرانُ
أَقْبِل عَلَى النَّفْسِ فاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَها فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ[١]

وقد خلق تعالى جسم الإنسان جميلًا، إلا أن النفس أجمل؛ فبها ترقَّى الإنسان

(١) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٤٠).

عن رتبة الحيوان.

فإقبال الإنسان على نفسه بتزكيتها بالإيمان وبالعبادة وبالعلم، هذا هو الذي يصبح به الإنسان أشرف وأكرم، في حين أن غالب الناس يعتنون بأجسادهم وصحتها ما لا يعتنون بأرواحهم وهذا من تقديم المفضول على الفاضل.

* ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس:٨]:

كلمة «الإلهام» ليست كثيرة الاستعمال في اللغة العربية، ومن العرب مَن لا يعرف معنى الإلهام، إلا «اللَّهْم»، فإذا صار عند الإنسان شيء يَلْهَمُه دفعة واحدة، أي: يضعه في فمه ويبتلعه، كما قال رُؤْبة:

كالحوتِ لا يُرْوِيه شيءٌ يلهَمُهْ   يصبحُ ظمآنَ وفي البحر فمُهْ[1]

فهو تعبير عن الرغبة الشديدة فيه.

الإلهام معنًى نفسي عزيز راقٍ، وهو العلم الضروري عند الإنسان الذي لا يحتاج إلى استدلال، أي: أن الله تعالى يوصل إلى الإنسان معلومات وحقائق دون مقدمات؛ لأن كثيرًا من العلوم تحتاج إلى مقدمات وأدلة، بخلاف الإلهام.

وهنا ذكر الإلهام للتقوى والفجور، فيحمل على معنى المشاكلة والاتباع، أو يكون المعنى أنه يسَّرها لذلك، ويسَّره لها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، والله أعلم.

وفي التقوى خاصة يلهم بعض المؤمنين من اللطائف والأسرار والمعاني ما يأتي دون بحث أو تنقيب، ويكون حلًّا لمشكل، أو بيانًا لغامض، أو كلامًا عذبًا يهز الوجدان، أو توقعًا لمستقبل لا تقوم عليه أدلة.

وأصول الأشياء تُعرف بالإلهام والفطرة، كأصل الإيمان بالله؛ فإنه فطرة، يعرفها الخاص والعام، لكن جاءت الرسالات بأسماء الله وبصفاته، وأصول الأخلاق تعرف

---

(١) ينظر: «ديوان رؤبة بن العجاج» (ص١٥٩).

بالفطرة، وكل الناس يدرون أن الكذب مذموم، وأن الصدق فضيلة، وأن الظلم شؤم، وأن العدل محمدة.

والله سبحانه خلق لنا السمع والأبصار والأفئدة، والسماوات والأرض، وما فيهما من الشمس والقمر والنهار والليل، ثم سلَّط قدراتِنا ومَلَكاتِنا وجوارحَنا وأعضاءنا عليها، فنرى ونسمع ونفكِّر ونحلِّل، حتى يصل الإنسان إلى الحق؛ فهذا من الإلهام؛ ولذلك كان مناسبًا أن يذكر الله تعالى هذه الآية بعد أقسام شملت كل ما خلقه الله تعالى مما يراه الإنسان أو يحسه.

والسمع والأبصار والأفئدة منافذ لرؤية الأشياء المحسوسة من حولنا، واكتشاف الإيمان والوصول إليه، فتجد أن الحجة قامت على الخلق حقيقة من وجوه:

١- الخلق المحسوس الذي نراه ونسمعه ونلمسه ونشاهده.

٢- القوى البشرية من السمع والبصر والفؤاد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

٣- الإلهام، بمعنى: المَلَكة والمقدرة العقلية والنفسية على الاستفادة من هذه الأشياء، وأن تتحول إلى فَهمٍ وإدراك وإيمان ومشاعر؛ ولذلك لا أحد يستطيع أن يعرِّفَ الحبَّ والبغض، والفرح والحزن، والرضا والسخط، والسرور والهم والغم؛ لأن هذه المعاني والواردات النفسية عبارة عن عالم هائل يصعب حصره، لكن كلُّنا يحس به.

فقد جعل الله به كمال الحجة على الإنسان؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾، وهذا المعنى يشبه قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠]، وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، يعني: أن الله تعالى ألْهم الإنسان معرفة الفجور ومعرفة التقوى، وبيَّن له الخير والشر، والهدى والضلال، ثم أقدره على أن يسلك أي النجدين وأي السبيلين؛ لأنه لو جعله بالاضطرار تقيًّا مؤمنًا لم يكن ثَمَّ

مجال للتفوق والامتحان.

* ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]:

«الفلاح»: نيل المطلوب من خير الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ أقرب وأفضل ما نقول في تفسيرها: نمّاها؛ ولهذا سُمِّيت الزكاة؛ لأنها تُنَمِّي المال، والمعنى: أن يكون الإنسان طيبًا، وأن يكون طاهرًا[1].

أصل المعنى اللغوي في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ هو: نمّاها، **فهل النفس تكبر؟**

الجواب: النفس لا تكبر كبرًا حسيًّا، وإذا شعر بالكبر سُمِّي متكبرًا؛ لأنه كبَّر نفسه، والواقع أنها صغيرة، لكن بالزكاة تكبر النفس كبرًا معنويًّا، في حين أن صاحبها يراها صغيرة، وليس عن تكبر، ولكن عن نمو صحيح وطهارة وزكاة، ولذا قال عُتبة ابن غَزْوان رضي الله عنه: «وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا»[2].

فالنفس واحدة، لكنها تكبر بالإيمان، كما تكبر بالعلم، فالإنسان الذي عنده عشرة آلاف معلومة أحسن من الذي عنده ألف معلومة، وأوسع نطاقًا منه الذي عنده مليار معلومة، مع أنهم يقولون: إن الإنسان لا يستفيد من عقله إلا بأقل من عشرة في المائة في كل الأعمال التي يجريها، هذا في مجال العلم فقط، وهكذا مجال تزكية النفس وطهارتها.

* ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٠]:

«الدَّس» هو الإخفاء[3]. وهو في مقابل ﴿زَكَّىٰهَا﴾؛ يعني: ضيقها وضيعها

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ١٨٤)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٧٦٥)، و«اللسان» (١٤/ ٣٥٨)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٥٤)، و«تاج العروس» (١/ ٨٤١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧١).

وصغَّرها وقلَّلها، ودائمًا تجد الخير واضحًا، والشرَّ في الغالب يقصد فيه الاستخفاء والإخفاء.

* ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ [الشمس:١١]:

ولا أعلم سبب تخصيص ذكر قصة ثمود في هذه السورة، إلا أن يكون هذا لأن قصتهم معروفة عند العرب، وديارهم ليست بعيدة عن ديارهم، فكان من المناسب أن يذكِّرهم الله تعالى بما يعرفون، وأن يذكر لهم مثلًا مما سبق في تاريخهم، وكثير من الناس إذا ذكرت له مثالًا من تاريخه الذي يعرفه تأثر به أكثر من تأثره بما لا يعرف؛ ولذلك تجد الفلَّاح إذا عرضت له قصة النبات، وكيف تخرج الزهرة والوردة والشجرة يتأثر بها أكثر مما لو حدَّثته عن الفلك، وقد يكون هذا أنموذجًا واضحًا لإلهام الفجور والتقوى، كما قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧].

و«الطغوى»: الطغيان، وهي صيغة مبالغة، والمعنى: أنهم بطغيانهم كذَّبوا، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الله تعالى عاقبهم بجنس عملهم، كما في سورة الحاقة: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة:٥] يعني: بالصيحة الطاغية التي تتناسب مع طغيانهم.

* ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ [الشمس:١٢]:

يعني: أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف، وكان سيدًا زعيمًا كبيرًا، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**انْبَعَثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ في رهطه مِثْلُ أبي زَمْعَةَ**»[1]. ولم ينبعث للناقة إلَّا بعدما بايعوه كلهم وأقروه؛ ولذلك كان الراضي المقر للفعل مثل الفاعل.

وهو أشأم رجل على قومه، وكان قد أظهر نيته في قتل الناقة، وكأنهم حرَّكوه وأغروه، كما قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر:٢٩] أي: فعقر الناقة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة ﷺ.

* ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣]:

﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ هو صالح ﷺ: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾، يعني: احذروا، ولفظ: ﴿ نَاقَةَ ﴾ هنا منصوب على التحذير، أي: احذروا ناقة الله وسقياها، ولا تتعرَّضوا لها بسوء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٧٣]، وذلك أنه كان لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، ففي يوم كان الماء لبهائمهم ودوابِّهم، وفي يوم آخر تشرب الناقة، ثم تدر لهم ما يحتاجونه من اللبن.

* ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤]:

أي: فيما جاء به وكفروا بالدين والتوحيد، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة، والعقر في الأصل هو: قطع رجلَي الدابة أو يَدَيْها فتسقط، ثم صار يستعار للقتل، أي: فقتلوها.

﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴾: والعلماء يختلفون في معنى «دمدم»[1]، لكنك حين تسمع الكلمة تجد في أذنك صوت الصيحة التي ألمت بهؤلاء القوم، حتى إنك لا تجد كلمة أخرى أجل وأوضح من كلمة ﴿ فَدَمۡدَمَ ﴾؛ لتعريفها وبيانها، وهو صوت الصيحة تخرق آذانهم، ثم تفضي إلى قلوبهم، فيتساقطون ﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧].

﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾: أي: تساووا جميعًا في العقوبة؛ لأنهم تساووا في الجريمة، وقد يكون المعنى: أن الله سوَّى الأرض بهم، وهذا قريب أيضًا[2].

والعامة تعبِّر بهذا الفعل فتقول: سوَّاها فلان، يعني: عملها.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٥).

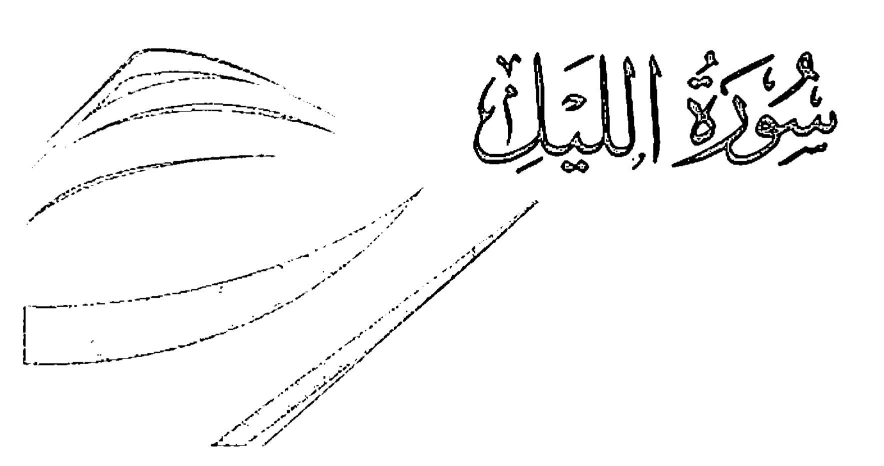
* ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس:١٥]:

فالله سبحانه وتعالى لا يخاف شيئًا، والإنسان إذا همَّ أن يعاقب أحدًا قد لا يبالغ في العقاب، ويقول: أُبْقِ للصلح موضعًا. وربما تعاقب فتبالغ فيكون عند الطرف الآخر ردة فعل قوية، وقد ينتقم منك ويجد فرصة الرد ولو بعد حين؛ ولذلك لا يكون عقابهم مهما طال وزاد بليغًا، أما الله تعالى فمِمَّا يَخاف؟ وممَّن يَخاف؟!!

فكان أخذه كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ اللَّيْلِ



سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١ - ٢١].

* تسمية السورة:

١- الذي في كتب التفسير عامة: «سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾»، أو: «سورة الليل» بدون واو[١].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾»[٢].

* عدد آياتها: (٢٠) آية، أو (٢١) آية، على اختلاف المصاحف[٣].

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي»، أبواب القراءات (٥/ ٤١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٥)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٣٥)، و«معاني القراءات» (٣/ ١٥١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٠)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٨)، و«مستخرج أبي عوانة» (٢/ ٤٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

* **وهي سورة مكية عند الجمهور**، وبعض المفسرين لم يذكروا إلا هذا، لكن نُقل عن بعضهم أنها مدنية.

وقال آخرون: إن السورة فيها المكي وفيها المدني، ففي آخر السورة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل:١٧-١٨]، جاء في بعض الروايات أنها نزلت في أبي الدَّحْداح الأنصاري رضي الله عنه، حيث أنه كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**تبيعها بنخلة في الجنة؟**». فأبى، فاشتراها أبو الدَّحْداح رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية[1].

هكذا ذكر بعضُ المفسرين، واستدلوا بذلك على أن السورة مدنية أو أن يكون فيها المكي والمدني.

والسبب المذكور -على القول بثبوته- لا يلزم منه أن يكون هو سبب نزول الآيات؛ ولذا نرجِّح ما ذهب إليه الجمهور من أن السورة نزلت بمكة، بل هي من أوائل السور نزولًا بمكة، والموضوعات التي تُعالج في القرآن المكي واضحة في السورة[2].

* ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل:١-٣]:

أقسم سبحانه بثلاثة أشياء.

بـ«الليل» حين يغطي الكون والأرض بظلامه، وقرنه بفعل مضارع ﴿يَغْشَى﴾.

وبـ«النهار»، وجعل مع النهار الفعل: ﴿تَجَلَّى﴾، وهو ماضٍ.

---

(١) سيأتي قريبًا.

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«الإتقان» (١/ ٥٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧).

وقد بدأ تعالى بالليل قبل النهار هنا، بينما في «سورة الضحى» قدَّم الضحى على الليل في القَسَم.

ومما خطر لي في تعليل هذا الاختلاف أنه في «سورة الضحى» كان الخطاب فيها للنبي ﷺ على سبيل الامتنان، ففيها أن الله ما ودعك ولا تركك، ولسوف يعطيك، والوحي لم ينقطع؛ ولذلك كان المناسب البداءة بالضُّحى، وبالنهار وبالإشراق، أما في «سورة الليل» فكان السياق لبيان الهُدى والضلال، والحق والباطل، ومصير المؤمن والكافر وحقيقة الجنة والنار؛ ولذلك رجع الحكم فيها إلى الأصل، فالذي خُلِق أولًا هو الليل؛ فإن الكون كان ظُلْمة حتى خَلَق الله الشمس والقمر، وخَلْقُ السماوات والأرض كان قبل خلق الشمس والنور، والله أعلم.

فالأصل أن الظلام كان موجودًا، فأشرق بنور ما خلق الله سبحانه وتعالى.

فالبدء بالليل إشارة إلى أنه هو الأول وهو الأصل؛ ولذلك يبدأ التاريخ من الليل، والليلة تسبق يومها، فنقول مثلًا: ليلة الاثنين، والاثنين بعدها، فالليل يكون قبل النهار، وهذا في الشريعة معتبر، إلا في حالة واحدة، وهي ليلة عرفة؛ فإن ليلة عرفة تكون بعد نهار عرفة.

فهذا التقديم سِرٌّ من الأسرار، وقد يكون هناك أسرار أخرى، مثل الإشارة إلى أن الإنسان يُعتبر في ظلمة، إلا إذا هداه الله وأنار له الطريق، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨]، فالإنسان كما قال الله عنه كان: ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، فينكشف جهله بالعلم، وينكشف بالتقوى، وبالإيمان.

و﴿ يَغْشَىٰ ﴾، فعل مضارع، وقوله: ﴿ تَجَلَّىٰ ﴾، فعل ماضٍ، قال ابن القيم رحمه الله: إن السبب أن الليل يأتي متدرِّجًا، فهو يغشى شيئًا فشيئًا، بخلاف النهار فهو يخرج

دفعة واحدة سريعًا[1]؛ حيث تشرق الشمس، فإذا الكون كلُّه نور، فهذا سرٌّ من أسرار التعبير.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: «ما» يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، بمعنى: الذي، يعني: والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القَسَم بالله سبحانه، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: وخَلْقِ الله الذكر والأنثى، وهذا في نظري أقرب وأجود؛ ليكون القَسَم بالخلق، أي: خلَق الليل، وخلَق النهار، وخلَق الذكر والأنثى.

والله خَلَق الليل والنهار، وخَلَق الذكر والأنثى، فلماذا قال هنا: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، ولم يقل في الليل والنهار: وما خلق الليل والنهار؟

وقد خطر لي في هذا: أن الليل والنهار مخلوقات ليس عليها تكليف، وليست مطالبة بالمعرفة، وإنما جاء ذكرها هكذا كآيات، أما الذكر والأنثى فجاءت مقرونة بخلقها إشارة إلى أنها متعبدة بمعرفة خالقها، مكلفة بطاعته والإيمان به؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وهذا خطاب للذكر والأنثى.

وهنا نلاحظ التنويع؛ حيث ذكر الليل والنهار، ومن الممكن أن نقول: إن الذكر والأنثى مثل الليل والنهار، فالذكر قد يشبه النهار من جهة الفعل والعمل والحركة والسعي والظهور، والأنثى تشبه الليل من جهة الهدوء والاستقرار والسكون والروحانية والخفاء، والحياة البشرية لا تقوم إلا بهذا، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٣]، فالكون يصلح بالليل والنهار، وكذلك يصلح بالذكر والأنثى.

---

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص ٥٥).

وجاء في «الصحيحين» رواية عن أبي الدرداء وابن مسعود قراءة: (والذكر والأنثى)[1].

وهذه القراءة ليست من القراءات المتواترة السبعية، ولا يصح القراءة بها، وحملها بعضهم على أن هذا كان في أول القرآن لما أذن للناس بشيء من الاجتهاد في القراءة ولو لم يكن بحرفيتها، ثم جمع الله تعالى الناس على القراءة الأخيرة التي قرأها جبريل على النبي ﷺ، وقرأها النبي ﷺ على جبريل في رمضان في آخر سنة مرتين[2]، وصارت هي القرآن الذي تعبد الله الناس به، والله أعلم.

* ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]:

هذا هو المُقْسَم عليه، ولم يقل: (عملكم)، وإنما قال: ﴿سَعْيَكُمْ﴾، فهل «السعي» مثل «العمل»؟

هو قريب منه، لكنهما مختلفان، فـ «السعي» أقوى؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاةُ فلا تَأْتُوها وأنتم تَسْعَونَ** -يعني: تركضون- **وأْتُوهَا تمشون، وعليكم السَّكينةُ**»[3].

فالسعي يدل على نوع من السرعة والشدة، وفيه إشارة إلى أن في طبيعة الحياة شدة ومكابدة، والنجاح فيها يتطلب جهدًا عقليًّا وبدنيًّا؛ حتى يستطيع الساعي أن يحصل على المطلوب، وأن يتغلب على العقبات.

وفي الآية بيان أن من طبيعة الناس السعي، وانظر الآن إلى أعداء الحق كم

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (٨٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٣، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يسعون؟! وانظر إلى أهل الحق كم يسعون؟! وانظر إلى أهل الدنيا في دنياهم، والحياة كلها كدح ومكابدة وحركة، فالإنسان البطَّال الكسول لا يمكن أن يكون له حضور مع هذه الحركة.

ومعنى: «شتى» مختلف، وهذا قد يكون جمع شتيت، كما يقال: مريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى.

ونجد هنا أن هذه الآيات الأربع اشتملت على العناصر التي يحصل بها النجاح للأمم، وتحقيق الرقي والتقدم والنمو والحضارة وهي:

١ - الزمان، وهو الليل والنهار، فهما عنصرا الزمان.

٢- الإنسان، وهو الذكر والأنثى معًا، ولكل منهما دوره وحضوره، فإن الإنسان هو العنصر الأساسي؛ ولذلك يقولون: أهم استثمار هو الاستثمار في الناس، فإن الإنسان إذا صلح يستطيع أن يحقق الانتصارات الكبيرة.

٣- العمل، وهو السعي.

وقَـلَّ مَـنْ جَدَّ في أَمـرٍ يُحَاوِلُـهُ   واسْتَصْحَبَ العزمَ إِلَّا فازَ بِالظَّفَرِ[1]

* ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [الليل:٥-٦]:

«أمَّا» هنا للتقسيم، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أفعال بها يفوز الإنسان وينجو، وهي: «أعطى»، و«اتَّقى»، و«صدَّق بالحُسنى».

يقول العلماء: إن الإنسان فيه ثلاث قوى:

١ - قوة الفعل.

٢- قوة الترك والامتناع.

(١) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ١٩٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص ١٩٣)، و«ربيع الأبرار» (ص ٣٢٥)، و«حماسة القرشي» (ص ٢٨).

٣- قوة العلم والعقل.

فهذه الآيات اشتملت على القوى الثلاث، فمَن «أعطى» فقد استخدم ووظَّف «قوة الفعل»، بما في ذلك قوة البدن والعطاء والإحسان التي تصبح جزءًا من شخصيته، والمال أول مذكور، ولهذا جاء في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]، يعطي الكلمة الطيبة، وهي صدقة، ويعطي الابتسامة، والشفاعة في الجاه؛ بحيث يكون البذل عنده سجِيَّة، فيبذل من ماله ووقته وعلمه وعقله وتفكيره ومشورته وجاهِه، وهذا يعني تنمية القوة العملية عند الإنسان بالعطاء.

ومَن «اتَّقى» فقد نجح في توظيف «القوة التَّرْكية أو الامتناعية»؛ لأن التقوى تركُ المعاصي والمخالفات، فتقوى الله هي: تركُ معاصيه، بأن يمتنع من الشهوة الحرام، والمال الحرام، والنكاح الحرام، وكل ما لا يرضي الله، فتقوى الله عنده مَلَكة الامتناع والترك.

وجماهير المفسرين على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه[1].

وقد أخرج الحاكم وغيره، أن أبا قحافة قال لابنه أبي بكر رضي الله عنهما: يا بني، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالًا جلداء يمنعونك ويقُومون دونك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أريد ما أريد. فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ...﴾ إلى آخر السورة[2].

---

(١) ونقل الإجماع على ذلك: البغوي وابن عطية والرازي وغيرهم.
ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢١٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٩/ ١٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٠، ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٦٦، ٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٤١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (١)، و«الحاكم» (٢/ ٥٢٥)، وابن عساكر (٣٠/ ٦٩).

وذكر الثعلبي والقرطبي وغيرهما سببًا آخر في نزول هذه الآية، أنه كان لرجل من الأنصار نخلة يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «تبيعها بنخلة في الجنة؟». فأبى، فخرج فلقيه أبو الدَّحْداح ﷺ، فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ«حُسْنَى» حائطٍ له؟ فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحْداح إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده». فقال: هي لك يا رسول الله. فدعا النبيُّ ﷺ جارَ الأنصاري فقال: «خذها». فنزلت ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ...﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة، وفي سنده ضعف شديد[1].

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: هذه الآية الثالثة تمثل «القوة العلمية أو العقلية»، بأن يكون عنده تصديق بالحق.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في «الحُسنى» فقال بعضهم: هي الجنة، وقيل: هي الشريعة، أو كلمة: «لا إله إلا الله»، أو الصلاة، وكلها معانٍ صحيحة، لكنها أمثلة فحسب، والمقصود بـ«الحسنى»: كل حق يجب التصديق به[2].

وخطر لي أن «القوة العلمية» تؤدِّي بالإنسان أحيانًا إلى حصول شبهات وشكوك.

و«القوة العملية» تفضي إلى الوقوع في الشهوات، فهذه السورة قرَّرت وجود هذه القوى عند الإنسان، ثم شجعت الإنسان على الامتناع من توظيفها فيما لا يحل ولا يحسن، وذلك بتحقيق التقوى.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦١-٤٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٧-٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٢-٣٨٣).

وذكْرُ الخلق في السورة دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي خلق الناس لدفع الشبهات وتعزيز الإيمان.

كما أن التحذير من النار الحامية المعدَّة لمتبعي شهواتهم يحيي في القلب التقوى ومراقبة الله.

* ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٧]:

أحسن ما قيل في معنى ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾: أن يسهِّل الله أموره في الدنيا والآخرة، من السعادة والهناء وقرة العين.

ومن التيسير لليسرى: رضا الله.

ومن التيسير لليسرى: فرح الإنسان بلقاء الله تعالى عند الموت، ونعيم القبر، ومنها: التيسير في الحساب.

ومنها: أن يسهِّل الله له دخول الجنة، فبقدر ما تكون الأعمال الصالحة سهلة عليه يسهل عليه كل شيء حتى دخول الجنة، وبقدر ما تشق عليه هذه الأعمال -حتى ولو كان من الصالحين- يكون الأمر بالنسبة له أصعب، وفي حديث معاذ رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: يا رسولَ الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة.قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه**»[1].

ومن ذلك أن ييسر الله له الذكر ويطوِّع له لسانه وقلبه، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، وينظر: «علل الدارقطني» (٦/ ٧٣-٧٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣٤-١٣٦) (٢٩)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

* ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]:

ذكر ثلاثة أعمال، أولها: البخل، وليس المقصود البخل بالمال فحسب، وإنما البخل بكل ما يمدح الإنسان ببذله مما هو مشروع، كالنصيحة والكلمة الطيبة.. والبشاشة.

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ هذه تقابل قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ ووجه المقابلة بين العطاء والبخل ظاهر، أما بين «التقوى» و«الاستغناء»؛ فلأن «المتَّقِي» عبد خاضع لربه، متَّقٍ لسخطه، مُقِرٌّ بالعبودية والافتقار إليه، ويقابله «المستغني»، وليس الغني، بل هو مَن رأى نفسه غنيًّا بما لديه، مغترًّا بقوته ناسبًا الفضل لنفسه، معرضًا عن ربه، متكبرًا على عباده.

والأمم التي كفرت بالله تعالى، وإن كان لها إنجازات حضارية، فلديها خَوَاءٌ روحي وخلل إيماني بسبب شعورها بالاستغناء؛ فإنهم شعروا بسبب المكتشفات والعلم والحضارة والتقدم وتوظيف العقل أنهم لم يعودوا بحاجة -كما يعبِّرون- إلى وصاية الله عليهم؛ ولهذا استغنوا عن الله تعالى، وكذَّبوا بالحُسنى، فهؤلاء ييسِّرهم للعسرى.

ولو أنهم اتقوا الله وأطاعوه مع ما عندهم من الحضارة، لكان ما هم فيه من التيسير أعظم وأتم، وهم قد حُرِموا من النعيم الإيماني؛ ولذلك تجد أن أعلى نسبة للانتحار والأمراض النفسية في الدول التي تكون نسبة دخل الفرد عالية فيها.

وعند هذه الآيات يبحث العلماء موضوع القَدَر، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث علي ﷺ: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض، فقال: **«ما منكم من أحد إِلَّا وقد كُتِبَ مقعدُهُ من النار، ومقعدُهُ من الجنة»**. قالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ قال: **«اعملُوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، أما مَن كان من أهل السعادة؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأما مَن كان من أهل الشَّقاء؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشَّقاوة»**. ثم قرأ النبي ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ

﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-١٠]..»[1].

وفي الآيتين جعل الله البدء من عند الإنسان نفسه، فالذي يسَّره الله لليسرى هو مَن سبق أن «أعطى واتقى» فيسَّره الله بعد ذلك لليسرى، ولذا جاء حرف السين الدال على المستقبل، والذي «بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى» هو الذي سوف ييسِّره الله للعسرى، وكأن المعنى أن الله مكَّنهم وأقدرهم على سلوك الطريق الذي يختارونه دون قهر أو إلزام هذه واحدة.

٢- إن الحساب والعقاب في الآخرة، إنما يكون بموجِب ما جعله الله تعالى في الفطرة من الإدراك الضروري الذي يعلم كل أحد أنه يفعل باختياره، وأنه لا يوجد قوة تفرض عليه إجراء مثل هذه التصرفات؟!

وحين يكون لديه خيارات متعدِّدة في المسكن أو الزواج أو القرارات الأخرى، يفكِّر ويبحث ويستشير، ثم يختار بمحض إرادته ويتحمل نتائج خياره.

إن أمور الإنسان الدنيوية؛ من دراسة، وأكل وشرب، ونوم ويقظة، وكلام، وذهاب وإياب وسفر، لا يحتج الإنسان فيها بالقضاء والقدر.

بل يفعل الإنسان ما يحلو له، وما يقتنع به وما يريد، فهذا الشعور الضروري الذي يوجد عند كل إنسان هو الذي سيحاسب بموجبه يوم القيامة، وليس بالضرورة أن تقام جلسة مناظرة في كلام السُّفَسطائيين والفلاسفة والجبرية والقدرية وغيرهم، ألم يكن لديك -وأنت إنسان- شعور ضروري تحس به حتى ولو كنت طفلًا صغيرًا أنك تفعل باختيارك، وتترك باختيارك؟!

وهذا هو الوسع ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وهو الفطرة،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧).

ولو أن الناس كانوا مقهورين على طريق ما لم يكن للحياة معنى ولا للاختيار حكمة ولتساوى البر والفاجر والصالح والطالح.

٣- الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، فهل يمكن أن يقول أحد: إن الله يخلق الناس ويفاجأ بما يعملون؟!

تعالى الله عن ذلك، بل الله علم ما الخلق عاملون، وعِلْم الله سبحانه وتعالى مكتوب عنده: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢]، والكون كله خلقه الله تعالى بإرادته، لكن هل علم الله تعالى هو الذي يملي على الإنسان ما يعمل، ويقهره عليه؟ تعالى الله عن ذلك.

وهل نظن أن إرادة الله اعتباطية، بحيث إن هذا الإنسان يريد الخير والله يريد له الشر؟! وهل يقول أحد بهذا؟!

قطعًا لا، إنما إرادة الله سبحانه وتعالى هي فيما يعلم الله أن هذا الإنسان يريده، بمعنى أن الإنسان هذا لو ترك وشأنه لم يكن ليفعل إلا ما فعله من قبل نفسه من خير أو من شر.

٤- القدر أُخْفِي، وهناك شرع أُظْهِر، وكان القدر ابتلاءً ليؤمن به الإنسان، والشرع ابتلاءً ليعمل به الإنسان، ولا تضاد ولا تناقض بينهما[1].

* ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل:١١]:

«ما» هنا نافية، أي: لا يغني عنه ماله، ويحتمل أن تكون استفهامية، أي: ما الذي يغني عنه ماله؟ ولم يَذْكُرْ هنا شخصًا؛ فهي تعم كل مَن ينطبق عليه الوصف.

وإذا كان مدار رُقِي الأمم وقيام الحضارات على المكان والزمان والإنسان، فهذه الآية تشير إلى شرط المال؛ فإن المال عصب الحياة، والذي يملك المال يملك القوة؛

---

(١) وللمزيد ينظر تعليق المؤلِّف على «مختصر صحيح مسلم»، كتاب القدر (١٨٣٨-١٨٤٤).

ولذلك أبرزه الله في هذه السورة مع أنه من العطاء المذكور في قوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾، وهو واحد من الأشياء التي يبخل بها، وهي المذكورة في قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾.

وقد يكون تخصيصه هنا إشارة إلى تعلُّق بعض الغافلين به؛ لأن المقام مقام ذم، فهو يشير إلى فئة شغلتها أموالها عن التزكِّي والتطهُّر والسُّمو.

معنى: ﴿ تَرَدَّىٰ ﴾ أي: هوى في نار جهنم، وقد يكون المعنى تردَّى في قبره، أو تردَّى رداء الكفن الذي يلبسه، والأقرب أن المعنى: إذا هلك وسقط، ويدخل في ذلك هلاكه في الدنيا، أو في الآخرة؛ وذلك لأن المال من الأشياء التي تحول أحيانًا بين الناس وبين الهداية والطاعة ولزوم الطريق المستقيم.

* ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ [الليل:١٢-١٣]:

والمعنى: إن الله تعالى أوجب على نفسه -كرمًا منه وفضلًا- الهدى، وهو بيان الحق للناس، وليس معناه: هداية الناس كلهم للدين الحق؛ لأن الواقع أن الناس منهم المهتدي ومنهم الضال، فهي هداية البيان وإقامة الحجة وليست هداية الإلهام والتوفيق ولزوم الطريق.

وفي هذا إشارة إلى استطاعة الاهتداء، ومهما يكن فالثمرة من اهتداء الإنسان هي له، والله لا ينفعه هداية مهتدٍ ولا ضلالة ضال، ولهذا قال بعدها: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾، فلا ينفع الناسُ ربَّهم إن أطاعوه، ولا يضرونه إن عصوه؛ فله الدنيا وله الآخرة، ومَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضل فإنما يضل عليها.

وقد قال جل وعلا في الحديث القدسي: «**...يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد،**

ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا..»[1].

* ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل:١٤]:

هذا من الهدى الذي وعد الله أن ينذر الناس النار.

ومعنى: ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ أي: تتوهَّج وتتَّقد، وخطب النبي ﷺ في المسجد فجعل يقول: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ». حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لَسَمِعَه حتى وقعت خَمِيصة كانت على عاتقه عند رجليه[2].

* ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل:١٥-١٦]:

﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾: الأكثر شقاوة، وقد ورد أن الشَّقِي في النار: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥]، فإما أن يكون معنى ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾: الشقي، وهنا لا إشكال، أو يكون المقصود هنا نارًا خاصة، وهي نار الكفار التي لا يخرجون منها، وهي نار الخلود الأبدي السرمدي؛ وهذا كقوله: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [مريم:٧٠] فيكون في ذلك إشارة إلى أن الأشقى هو الكافر، والنار يدخلها الكفار، ويدخلها بعض عصاة المؤمنين ممن شاء الله تعذيبهم فيها، ثم يخرجهم منها بإذنه.

﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فيه إشارة إلى أن الشقاء هنا يتعلق بالتكذيب وبالتولِّي، والتكذيب يكون باللسان ورفض الدين، والتولِّي يكون بالفعل، فهو جمع بين التكذيب بلسانه والتكذيب بفعله، ولا نقول: إن الكفر لا يكون إلَّا بالتكذيب، بل إن الإنسان قد يكفر بالتكذيب، وقد يكفر بالفعل، وقد يكفر بترك الفعل.

* ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧]:

﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ هنا أيضًا أفعل تفضيل من التقوى، وهو: المُيَسَّر لليسرى، وقد ذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٢٩)، وأحمد (١٨٣٩٨)، والدارمي (٢٨٥٤)، وابن حبان (٦٤٤، ٦٦٧)، والحاكم (١/ ٢٨٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[1]، ولكن لا يعني هذا قصر الآية عليه.

ومرجع الضمير إلى النار، ولأن المقام في هذه الآيات مقام وعيد وتخويف وإنذار، ناسبَ أَلَّا يذكر الله الجنة هنا، مع العلم أن مَن زُحزح عن النار فسيدخل الجنة برحمة الله.

* ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٨]:

أي: يعطي ماله طلبًا لزكاة نفسه من البخل والشح، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، وطلبًا للإحسان إلى عباد الله، فهو لم يفعل ذلك رياءً ولا سمعة.

* ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ [الليل:١٩]:

يعني: ما أعطاهم ليرد لهم جميلًا، وهذا فيه إشارة إلى مشروعية رد الجميل؛ لأن الإنسان السَّوي يحفظ الجميل، ومن اللؤم نسيان الجميل، بل من أسباب انقطاع الناس عن فعل الجميل أن يفعل الإنسانُ المعروفَ لشخص، ثم يتنكَّر له، كما قال عنترة:

نُبِّئت عَمرًا غَيرَ شَاكرِ نِعْمَتِي   والكُفْرُ مَخبَثَةٌ لنَفسِ المُنْعِمِ[2]

* فالمقصود: أن أبا بكر الصديق ﷺ وكل مَن يصلح له الخطاب لم يكن عطاؤه مجرد رد يُجازي به، وإنما كان ابتداءً بالفضل والإحسان، وابتغاء وجه ربه الأعلى: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل:٢٠].

* ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل:٢١]:

وهذا وعد، وانظر قوله عن الرضا: ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ فأحال على المستقبل؛ لأن الرضا يكتمل له في الدار الآخرة بما يُعطاه من الثواب في الجنة، وهو الرضا الذي لا يعقبه

(١) كما تقدم عند قوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾.

(٢) ينظر: «ديوان عنترة بن شداد» (ص٨٣).

سخط، وأعظمه حينما يتلقَّى أهل الجنة رضا الله عنهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة:٨]؛ ولذا فإن الله عز وجل إذا سأل أهل الجنة: **«هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»**[1].

ولذا، فإن تمام الرضا ودوامه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة:٦-٧].

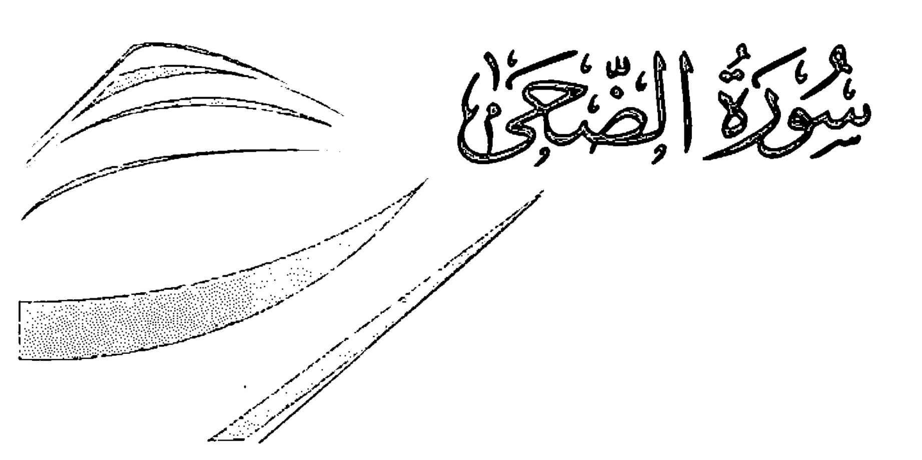
وهنا معنًى لطيف: أيهما نزلت أولًا: «سورة الليل»، أو «سورة الضحى»؟

الأقرب: أن «سورة الضحى» نزلت قبل «سورة الليل»؛ ففي «سورة الضحى» أعطى سبحانه النبي ﷺ، ومهَّد له كثيرًا، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] يعني: يعطيك حتى ترضى، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، فناسب أن يكون له نصيب من هذا الرضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، وناسب أن تكون السورتان متجاورتين؛ فتلك فيها البشارة والرضا للنبي ﷺ، وهذه فيها البشارة والرضا لأبي بكر الصديق، وإن كنا نقول: إن الآية ليست خاصة بأبي بكر الصديق، وإن كان هو سبب نزولها، إلَّا أنها لكل من عمل بمثل هذه الأعمال الصالحة الفاضلة، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

سُورَةُ الضُّحَىٰ



سورة الضحى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (٥) أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (١٠) وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (١١) ﴾ [الضحى:١-١١].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة الضحى»، أو: «سورة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي»، وكتب السنة والتفسير، ولم يُذكر اختلاف في التسمية[1].

* عدد آياتها: (١١) آية، وهي السورة الحادية عشرة تقريبًا في ترتيب النزول، فهي مكية بإجماع المفسرين، كما ذكر القرطبي وابن الجوزي وابن عطية والقاسمي والطاهر ابن عاشور وغيرهم، فقد اتفقوا على أنها من السور المكية، بل ومن السور المتقدِّمة في النزول[2].

ولنزولها سبب مروي في «الصحيحين» وكتب التفسير، وهو أن النبي ﷺ أصابه مرض، فترك القيام ليلتين أو ثلاثًا، فقال له بعض المشركين: ما نرى ربك إلا قد

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٠١)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«تفسير القاسمي» (١٧/ ٦١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

قَلَاك، أو جفاك. فحزن لذلك النبي ﷺ، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣][1].

وفيهما معنى عظيم، وهو الثناء البالغ على النبي ﷺ والبُشرى بالوعد الحق له، مما يظهر منزلته عند ربه، وقد أذن الله أن يكون السبب في ذلك هو أَذيَّة المشركين، لما قالوا له: إن ربك قد جفاك أو قَلَاك. والله تعالى قد يستخرج للعبد المؤمن الخير والفضل في الدنيا والآخرة بسبب أعدائه وخصومه، ويأذن له من الثناء الحسن والسمعة الطيبة ورِفعة المنزلة، وثقل الميزان في الدار الآخرة، ما لا يحصل عليه إلا بفضله تعالى، ثم بسبب العدو الذي يريد المضرَّة؛ فهذا سبب النزول.

وعليه، فـ «سورة الضُّحى» نزلت بعد فترة الوحي أي: فتوره وتأخره، وهذا قال به كثير من المفسرين وأهل السير.

والذي يظهر -والله أعلم- أن الوحي فَتَر في النزول على النبي ﷺ أكثر من مرة، فبعد أن نزلت «سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»، حصل فُتور في الوحي، ثم أنزل تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ثم نزلت بضع سور، قد تكون ثماني سور، ثم حصلت فترة، ظلت أيامًا معدودة، فحزن لذلك النبي ﷺ، ثم نزلت «سورة الضُّحَى»[2].

فكأن النبي ﷺ لما تهيَّأ لنزول «سورة الضحى»، كانت قد تَروَّضت نفسُه، واستعدت لتلقِّي الوحي، وعادة ما يتم الترويض بعد الثلاث، فكان بداية ذلك أن يمهِّد ربنا سبحانه وتعالى بهذه البشارات العظيمة في هذه السورة.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٢٥، ٤٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٤- ٤٨٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣).

* ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢]:

والقَسَم لا يكون إلا بأمور جليلة وعظيمة، و«الضحى» هو أول النهار، وقد يكون ذلك قَسَمًا بالنهار كله أو بجزء منه، والأقرب أن القَسَم هو بجزء من النهار، هو وقت الضحى، وهو بداية حرارة الشمس، لكنه ليس وقت القيلولة.

فيقسم الله سبحانه وتعالى ببداية النهار، وما فيه من الحياة والإشراق والعمل، كما يقسم بالليل، وهذا قَسَم بالليل كله، ولكنه تحديد لحالة معينة منه وهي: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، ومعنى ﴿سَجَىٰ﴾: غطى، والليل عبارة عن لباس يُغَطِّي الكون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ:١٠]، وتقول: هذا رجل مُسجًّى، أي: مُغَطًّى.

أي: إذا عمَّ الكونَ وغطَّى عليه بظلامه.

ومن معاني ﴿سَجَىٰ﴾: هدأ، تقول: البحر الساجي، أي: الهادئ الذي هدأت عواصفه وأمواجه، وهَدْأة الليل: آخره، ولذلك إذا قال لك شخص يريد أن يأتيك بدون أن يعلم الجيران: متى آتيك؟ تقول: ائتني هدأة الليل؛ أي: إذا سكن الناس، ونام كل أحد، ولم يعد في الطريق ذاهب ولا آيب.

ومن معاني هدوء الليل: قلة الناس، وهذا قد يكون فيه إشارة إلى الوقت الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ.

وقد ذكرنا أنه ﷺ ترك قيام الليل ليلة أو ليلتين، بسبب مرض أصابه[1].

ومن معاني: ﴿سَجَىٰ﴾: طال، فيكون قَسَمًا بالليل وطوله، وطوله ظرف لتلذذ العباد الذين يفرحون بالليل كلما طال؛ ويناجون ربهم ذا الجلال، ويتلذذون بقراءة كتابه.

وإذا طال الليل، فأطول ما يكون على المحب وعلى الحزين وعلى الخائف؛ لأنه

---

(١) تقدم قريبًا.

لا ينامه بسبب اشتياقه أو همه أو حزنه ولا يدري عمَّ ينبلج وينجلي، وكثيرًا ما كان الشعراء يشتكون طول الليل.

أَرِقْتُ فَباتَ لَيْلي لا يَزُولُ وليلُ أخي المصيبةِ فيهِ طولُ[1]

وقول الآخر:

لكلِّ ما يُؤذِي وإِنْ قَلَّ أَلَمْ ما أطولَ الليلَ علَى مَنْ لم يَنَمْ[2]

وقد يكون في هذا إشارة إلى معاناة النبي ﷺ في انتظار الوحي، ومعاناته من الصعوبات التي كانت تعترض دعوته.

وهذا القَسَم له مناسبة بسبب النزول، كما أن له ارتباطًا لصيقًا بالمقسم عليه، وفيه إشارة إلى الجمع بين معنيين مهمين:

١- العمل والنشاط والاستمرار، فالضحى أول النهار الذي هو أول وقت النشاط، وفي الحديث: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بُكُورها**»[3]. وإذا سجى الليل فذلك وقت العبادة ووقت العلم والسَّهر على ما فيه من خير، ومصلحة وإنجاز، فهذا المعنى يكرِّس المعنى الأول، أعني: معنى الإقبال على الجد والعمل.

٢- الهدوء والاستقرار والطمأنينة، فإن بعض الناس قد يغلبه الجد فيتحول الجد إلى أزمة في نفسه، حتى تجده لا يبتسم ولا يضحك ولا يمزح ولا يهنأ بعيش، وبعض

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٦٧٥)، و«الروض الأنف» (٧/ ٥٩٨)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٧٨٦)، و«أسد الغابة» (٦/ ١٤١) منسوبًا إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ.

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٥٩)، و«معاهد التنصيص» (٢/ ٢٨٣) منسوبًا إلى أبي العتاهية من أرجوزة «ذات الأمثال».

(٣) أخرجه الطيالسي (١٣٤٢)، وأبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وابن حبان (٤٧٥٤) من حديث صخر الغامدي ﷺ. وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢٣٠٠)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٢٤، ٢٣٦).

الناس على النقيض من ذلك، حياتُه كلُّها عبث ولهو ولعب، فنهاره وضحاه وقت للسعي والنشاط، لكن في غير خير، وليله وقت للسهر في غير طاعة، ولذلك جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا سَمَرَ بعد الصلاة** -يعني: العشاء- **إلَّا لأحد رجلين: مُصَلٍّ، أو مسافر**»[1].

وفي بعض الأحاديث أنه عد من السهر المحمود مداعبة الرجل أهله ومحادثة ضيفه، وقد كان النبي ﷺ يسهر مع أهله بعد صلاة العشاء[2].

ومن معاني ذلك: الإشارة إلى التنوع في خلق الله سبحانه، وما قدره سبحانه وتعالى من قوة وضعف، وعز وذل، وغنى وفقر؛ وهو تنوع عظيم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالمعنى: لا يدوم إنسان على حال، ودوام الحال من المحال، وما يعانيه الإنسان، يتغير كما يتغير النهار والليل، وأنه تعالى كما امتن على البشرية بالليل وما فيه من الهدوء والسكون للكائنات حتى النباتات، كذلك امتن عليهم بالنهار وما فيه من الحركة والنشاط.

وكذلك كان الناس في الجاهلية في ظلام وجهل يشبه الليل المظلم، فامتن الله عليهم بالوحي الذي هو نور وإشراق وبصيرة.

وعندما أقرأ كلام المفسرين حول آية من القرآن، أشعر أن الوقوف عند آية واحدة يمكن أن يمتد بالإنسان إلى ما شاء الله من توليد لطائف جديدة.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٦٠٣)، وأبو يعلى (٥٣٧٨)، والطبراني (١٠٥١٩) من حديث ابن مسعود ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٢، ٣٥٨١، ٤٥٦٩) ، و«صحيح مسلم» (٧٦٣، ٢٠٥٧١)، و«سنن أبي داود» (١٣٩٣)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٤٥)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (٥/ ١٣٦، ١٤٦)، و«فتح الباري» لابن رجب (٥/ ١٧٣-١٧٥)، و«عمدة القاري» (٥/ ٢٩)، و«إرشاد الساري» (١/ ٥٠٤).

وهذا من معجزات القرآن؛ فإنه كلما تأمل القارئ وتدبر وجد أن وراء هذا المعنى معنى آخر.

* ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]:

هذا المُقْسَم عليه، وهذه الحقيقة التي أراد الله بشارة النبي ﷺ بها، بعدما قال المشركون: إن ربك تركك وقلاك.

والفرق بين «وَدَّعَ» و«قَلَى»: أن «الوَدْع» هو الترك والهجر، و«القِلَى» هو البغض، فيكون المعنى: إن الله لم يترك نبيه ولم يبغضه.

وفي قراءة: (ما وَدَعك) بالتخفيف[1]، والمعنى واحد.

وهنا لم يقل الله: (وما قلاك)، وفي هذا رعاية لفواصل السورة؛ لأنها ألف مقصورة؛ ولأن المقصود نفي القَلَى وهو البغض، فمن محبة الله لنبيه ﷺ أن ضميره لا يجتمع مع لفظ القَلَى، مبالغة في تأكيد الرد على ما ادعاه الكفار من ذلك.

وهذه الآية وإن جاءت بصيغة النفي، إلا أن المقصود منها بشارة النبي ﷺ بأن الوحيَ مستَمِرٌّ، وأنه رسول الله ونبيه ومصطفاه، وأن الله يحبه ولن يتخلَّى عنه.

* ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]:

تطلق الآخرة في القرآن ويراد بها الدار الآخرة، أي: وإن الدار الآخرة خير لك من الدار الدنيا.

وهناك معنًى أعمُّ وأشملُ وأعظمُ من هذا، وهو أن الحال الآخرة خير لك من الحال الأولى، وهذا المعنى أشار إليه جمع من المفسرين المتقدِّمين والمتأخرين، وكنتُ

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٤١)، و«الكامل في القراءات» (ص٦٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٧٩).

ذكرته مرة لبعض الإخوة فاستغربوه، ثم وجدتُ نص العلماء عليه، وممن نص عليه من المتأخرين الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وحاصل هذا المعنى: أن كل حال لك يا محمد بعد البعثة فما بعدها خير منها، وهذا يعني ترقِّي النبي ﷺ في مدارج الفضل ومعارج الكمال والعز والرفعة؛ فكل حال آتية فهي أفضل مما قبلها، حتى إن النبي ﷺ ما مات إلا وهو في أكمل أحواله عليه الصلاة والسلام تقوى وإيمانًا، وعلمًا وعملًا وكذلك الوحي الذي أرسل به.

وفيه دعوة للمؤمن إلى الترقِّي والاستمرار، وألَّا يكتفي بدرجة معينة، بل كلما وصل إلى درجة، تطلَّع إلى ما هو خير وأفضل منها.

والوحي مر بثلاث مراحل بالنسبة للفتور والتواصل، فالحالة الثالثة -التي نزلت فيها هذه السورة- أكمل وأفضل من الحال التي قبلها، ويكفي أن هذه السورة نزل فيها من البشائر والوعود ما لم يكن من قبل.

وإن حال النبي ﷺ في المدينة كانت أكمل من حاله بمكة؛ لما في ذلك من اكتمال الشريعة ونصرة أصحابه، وقوة الدعوة، ومن هذا المعنى أن حاله في الآخرة خير وأفضل من حاله في الدنيا.

وورد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال في تفسير هذه الآية: **«عُرِضَ عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَلۡـَٔاخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ..﴾»**[2].

فيكون هذا من معاني الآية.

---

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص ٩٢٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٢)، والضياء في «المختارة» (١٢/ ٣٤٥) (٣٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٠).

* ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]:

هذه الآية وما قبلها، كلها في سياق واحد مما يدل على التدرُّج:

١- نفى الله ما زعمه المشركون بقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾، وهذا متضمن قدرًا كبيرًا من الرضى والمحبة من الله للنبي ﷺ.

٢- ثم انتقل إلى مرحلة ثانية وهي أن حاله أكمل من التي قبلها، فقال تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

٣- ثم جاء الوعد بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾، وهذا وعد أُكِّد باللام وبـ«سوف»، ولم يذكر ماذا يعطيه، فيعم كل عطاء؛ كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩]، فيعطيه الرسالة، والسمعة الحسنة والذكر الطيب، والأصحاب الأفاضل، والعلم الغزير، والمجد والدولة والسلطان، والشفاعة والكوثر والجنة، والوسيلة التي هي درجة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وهو محمد ﷺ، ويعطيه ما لا يخطر على بال ولا يعلمه أحد ولا يحيط به عقل، ولا يدركه خيال، ولهذا قال: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾، ولم يذكر المفعول الثاني لـ «يُعطِي»، ولم يحدِّد ذلك العطاء؛ لكنه حدَّد نهايته وهي الرضا، مع أنه ﷺ راض عن ربه، وإن منعه، كما قال الشاعر:

رَضِيْتُ في حُبِّكَ الأيامَ جائرةً   فعلقَمُ الدَّهْرِ إن أرضَاك كالعَذْبِ

فهو ﷺ يرضى عن الله وهو محروم من المال، أو من الأصحاب، أو ينزل الموت ببعض أحبابه، أو يؤذيه المشركون، فيحتسب ذلك كله في ذات الله ويقول: «إِنْ لم يَكُنْ بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي»[1].

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٦٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٤)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٨٥)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٣٦).

وهنا جمع الله له بين الأمرين، وذلك أن الله تعالى يمنحه كمال الرضا وكمال العطاء.

ومثل هذا لو طلب منك إنسان شيئًا فقلت له: ائتني وسأعطيك حتى ترضى، وكأنك تقول له: سأُحَكِّمُك فيما تريد.

وربنا سبحانه وتعالى لم يقل هذا لمحمد ﷺ؛ لأنه لو حكَّم إنسانًا فيما يريد، فإنه لا يصل ظنه وخياله إلى ما عند الله تعالى، ولهذا جعل الله تعالى العطاء منه، فيعطي النبي ﷺ ما لم يخطر له على بال وما لم يدر في خيال.

ويلاحظ أن القَسَم كان بـ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وهما أمران، فجاء السياق في بقية الآيات مشابهًا له، فقال أولًا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ عدم الترك وعدم البغض.

ثم قال: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ وهما أيضًا اثنتان: الآخرة والأولى، وكلاهما للنبي ﷺ خير، لكن إحداهما خير من الأخرى.

ثم قال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ وهما اثنتان: العطاء والرضا، فهذا يتناسب مع سياق القسم بأمرين: الضحى والليل، وهذا العطاء له ﷺ ولأصحابه ولأمته في الدنيا وفي الآخرة.

* ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى:٦]:

انتقل السياق إلى التذكير بالماضي على سبيل البرهنة على تحقق الوعد الآتي كما تحقق في الماضي ما سيذكره هنا.

فقد مات أبوه ﷺ وهو حَمْل، وكان له إذ ذاك ستة أشهر في بطن أمه، ثم ماتت أمه في صغره، ثم كفَلَهُ جده، ثم مات جده، فكفَلَهُ عمُّه أبو طالب، فهذا من الإيواء، وهو أن يُقَيِّض الله تعالى له مَن يعتني به في طفولته.

ومثل ذلك في الرضاعة، لما كانت المراضع يأتين إلى بيوت قريش ويأخذن أولاد الأكابر والأثرياء والتجار؛ طمعًا فيما عندهم، وكان ﷺ يتيمًا لا مال له، فتحتسب حَلِيمة السَّعْدية، وتختاره لترضعه، وهذا من إيواء الله عز وجل له.

ومعنى: ﴿ يَجِدْكَ ﴾: يَعْلمك، ومعنى: «آواك»: جعل لك مَن تأوي إليه.

ثم يقيض الله تعالى للنبي ﷺ خديجة رضي الله عنها قبل الرسالة وفي أول الرسالة، ثم يقيض له أتباعه الذين يؤمنون به، ثم يقيض له أهل المدينة يؤمنون به وينصرونه، فهذا كله من الإيواء، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأهل المدينة: «**ألم أجدكم ضُلَّالًا، فهداكم اللهُ بي؟**». عاد فقال: «**أَلَا تقولونَ: أتيتنا طَرِيدًا فآويناك؟**»[1]. إذن هذا من الإيواء.

يا يتيمًا واليُتْمُ دمعٌ وضَعْفٌ كيف ذَلَّتْ لِيُتْمِكَ الأقوياءُ؟!

فانظر هذا اليتيم الذي عنده من الجَلَد والصبر والقوة والمقاومة، وكمال العلم والعمل، وكمال الشخصية، وكمال العقل والفصاحة ما عنده، ثم يختاره ربه سبحانه وتعالى ويصطفيه بالرسالة، ولذلك فهو ﷺ فخر للأيتام كلهم، كما أنه فخر للعرب أن يختاره الله تعالى منهم، بل هو فخر للإنسانية أن يختار الله واحدًا منها للنبوة وينزل عليه الوحي، وهو أيضًا قدوة للأيتام كما هو قدوة لكل أحد.

* ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]:

وهنا جاء وصف الضلال، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي جاء التعبير فيه بهذا اللفظ عن النبي ﷺ، ولذلك اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير هذا الحرف على نحو من ستة أقوال:

فقال جمهور المفسرين: إن معنى ﴿ ضَآلًّا ﴾، أي: ضالًّا عن الوحي وعن الشريعة

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥٤٧، ١٣٦٥٥) من حديث أنس وأبي سعيد رضي الله عنهما.
وبنحوه عند البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

والإيمان[1]، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

فليس الضلال هنا اتباع الباطل؛ لأن النبي ﷺ في جاهليته وإن لم يكن عنده معرفة بالوحي ولا بالشريعة ولا بالإيمان ولا بالكتاب؛ إلا أنه كان يتمسك بالفطرة السليمة وما تمنع عنه من الضلالات، فكان يتعبد ويتحنث على الملة الحنيفية، ولم يقع في الشرك الذي وقع فيه من حوله.

ويشبه هذا ما جاء في قصة يوسف، حيث قال إخوتُه لأبيهم: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف:٩٥]، فهم لا يقصدون الضلال في الدين، وأبوهم كان نبيًّا، وإنما مقصودهم أنك لا زلت في غفلتك القديمة، فهكذا كان النبي ﷺ في غفلة عن الإيمان والكتاب.

ومن اللطيف أنه حتى في سورة يوسف أخبر الله نبيه محمدًا ﷺ بأنه كان قبل وحي القرآن من الغافلين فقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣]!!

فالضلال هنا بمعنى الغفلة، والسياق يدل على أن الضلال لم يكن سوى عدم معرفة الطريق إلى إنقاذ الناس ودعوتهم وهدايتهم، ثم هداه الله تعالى إلى ذلك.

وقيل: معناها: ناسيًا[2]، وهو مستعمل في القرآن الكريم، كما في آية الدَّيْن: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٧).

﴿إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وتضل هنا معناها: تنسى.

وقال بعضهم: تائهًا، وفسروها بالمعنى الحسي، وهو أنه لما سافر في تجارة خديجة ضاع في الطريق، وقالوا: إن الشيطان نفخه حتى وقع بعيدًا[١].

وفي نظري أن هذه من الروايات التي ينبغي تنزيه كتاب الله عنها، فالشيطان أضعف وأذل من أن يفعل هذا برسول الله ﷺ حتى قبل البعثة، وإنما تسلَّط الشيطان على بني آدم بالوسوسة والكيد وما أشبه ذلك.

وقال بعضهم: إنه ضاع قريبًا من مكة[٢]، حتى قلق عليه عمُّه، فكان يمسك بباب الكعبة ويدعو ربه ويقول:

رُدَّ إِلَيَّ صَاحِبِي مُحَمَّدَا   رُدَّهْ إِلَيَّ واصطَنِعْ عِنْدِي يَدَا[٣]

حتى جاء به أبو لهب أو أبو جهل على بعيره، وهذا المعنى بعيد أيضًا.

وقال بعضهم: إن المقصود ضلال الناس من حوله، يعني وجدك في قوم ضالين في مكة، فهداك وهداهم بك[٤]، واللفظ لا يساعده.

وأول الأقوال أولاها، والله أعلم.

* ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]:

و«العائل»: الفقير، وقد يكون ذا العيال الكُثُر، والمقصود هنا الأول.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٧)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦).

(٣) ينظر: «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٥١)، (٢/ ٢٠) و«تاريخ الإسلام» (١/ ٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٩٢)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٨).

وقد كان النبي ﷺ فقيرًا، فأغناه الله تعالى بمال خديجة لما ذهب مع غلامها ميسرة، وتاجر في الشام وربح، وكذلك كان ﷺ عائلًا فأغناه الله تعالى بالأموال الطائلة التي سيقت له بالفتح وغيره، ومع ذلك؛ فإنه ﷺ ما اعتبر هذا المال له، وإنما كان ينفقه في سبيل الله ويتصدق به، ولم يكن يدخر منه شيئًا لنفسه، حتى إنه مات ﷺ ولم يورث دينارًا ولا درهمًا.

وهذا دأب الأنبياء والصالحين، فالواحد منهم ولو تيسرت له الدنيا فإنها تكون في يده ولا تكون في قلبه، وإنما يستعملها كما يستعمل الفِراش الذي يجلس عليه والدابة التي يركبها، فيستخدمها ولا يخدمها، ولا يكون عبدًا للدرهم والدينار. وغناه ﷺ غنى لأصحابه، فإنهم كانوا عالة فأغناهم الله به ﷺ كما قال ذلك للأنصار[1]، وكذلك المهاجرون كانوا فقراء بعدما أُخِذت بيوتهم في مكة، فلما هاجروا إلى المدينة فتح الله تعالى عليهم خزائن الأرض.

بل غِناه ﷺ غِنًى لأمته، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا نائمٌ، أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فوُضعت في يديَّ**». قال أبو هريرة رضي الله عنه: وقد ذهب رسول الله وأنتم تنتثِلونها[2].

فمن معاني الآية: غنى الأمة كلها، فإنه وإن كان الله تعالى يخاطب بها النبي ﷺ، إلا أن الخطاب يعم أمته من بعده، ولو تأملنا ما سبق لوجدنا العطاء للنبي ﷺ عطاء لأمته، والنبي عليه السلام لما دعا كان يقول: «**ربِّ، أُمَّتي أُمَّتي**». فكان ربه سبحانه وتعالى يقول: «**إِنَّا سنُرْضيك في أُمَّتك ولا نسُوؤُكَ**»[3]. فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).
وتنتثلونها: تخرجون ما فيها وتتمتعون به.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

أمته، ورضي وأنعم.

وعندما يقول: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى:٦]؛ تجد هذا منطبقًا على الأمة التي كانت أمية جاهلة، ليس لها تاريخ ولا حضارة.

ولو نظرت معنى اليتم، لوجدت أن اليتيم هو مَن انقطع تسلسلُه مع مَن قبله، فلم يجد مَن يرعاه، وهكذا كانت الأمة يتيمة، وإنما كانت الحضارة عند اليونان والرومان، والهنود والصينيين وغيرهم، وكانت حضارات عريقة وراسخة، ومع ذلك أَبَى الله تعالى إلا أن يختار هذه الأمة اليتيمة فيؤويها ويصطفيها كما آوى واصطفى نبيها محمدًا ﷺ.

وهي أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم، حتى أنزل الله تعالى عليها الحكمة والكتاب، فأصبحت أمة العلم وصار رجالها سادة الأمم وقادتها حقبًا طويلة.

تتكلم مصنفات كثيرة عربية وغربية عن أثر الأمة ومجدها في قيادة البشرية كلها، حتى في علوم الدنيا فضلًا عن علوم الهدى والإيمان والسلوك والآخرة.

وهذا وإن كان حسنًا إلا أنه من غير المستساغ أن نعيش في تخلفنا ونكتفي بالحديث عن الماضي ومضغ الذكريات الجميلة وكان هذا يكفي!

وهكذا قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾، والعرب قد كانوا فقراء لا يجدون غير المرعى والمطر يرقبونهما ليعيشوا عليهما، يقتل بعضهم بعضًا على المرعى، وتاريخهم معروف في ذلك، فلم يكن عندهم إلا واحات صغيرة في جزيرة العرب، ورحلة الشتاء والصيف.

وها هي الثروات الهائلة، وأهمها النفط؛ الذي يوجد أكثر مخزونه واحتياطيه في بلاد المسلمين، والثروات الأخرى الهائلة التي منحها الله تعالى هذه الأمة وأغناهم بها من عيلة!

فهذا من إعجاز القرآن وتجدد معانيه.

ثم يلاحظ أنها ثلاث آيات تقابل الثلاث الأولى:

١ - فإنه قال: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:٣]، ويقابل ذلك قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى:٦].

٢- وقال: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]، ويقابله قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧].

٣- وقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، يقابله قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى:٨].

وليس المقصود غنى المال فقط، بل يتناول غنى النفس، كما قال النبي ﷺ: **«ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس»**[1]. وقد أعطاه الله تعالى الغنى في نفسه والقناعة باليسير.

فضلًا عما أعطاه من العلم والنبوة والحكمة والبصيرة والخلق الجميل.

وختم الله تعالى السورة بثلاث أيضًا؛ فهي «سورة الثلاثيات المتقابلة المتوافقة»، ويُسمِّي ذلك علماء البلاغة: «اللَّف والنشر المرتب»[2].

* ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى:٩]، يتناسب مع قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾، وهذه الفاء الفصيحة، و«أما» هنا للتفصيل والتقسيم، لكن المعنى: مهما يكن من شيء ومهما يكن من أمر فلا تقهر اليتيم.

ومن الخطاب الجاري في اللغة أن يقال: لا تقهر اليتيم، ولكن السياق أبلغ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص ٤٢٥)، و«نهاية الأرب» (٧/ ١٢٩)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» (٢/ ١٨٥).

فإنه قدم لفظ اليتيم، إشارة إلى الحفاوة والعناية؛ لأن تقديم المعمول يشعر بالتنبيه والاهتمام، كما لو قال: أما البيت فلا تدخله مطلقًا، وأما المال فلا تأخذ منه شيئًا، وأما الأولاد فلا تعتدِ عليهم؛ فإن المخاطب يشعر أنها نقاط محددة، وقد استجمع هذا الأسلوب كل ذهنه للاستماع والإنصات.

وفيه الإشارة إلى أن مدار الشريعة يكاد أن يكون قائمًا على حفظ حقوق الناس؛ لأن اليتيم لا يجد مَن يأخذ حقه ويدافع عنه، وكذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى:١٠]، فإنه وصية خاصة بالضعفاء، كما وصَّى رسول الله ﷺ بحق المرأة وبحق اليتيم[١].

وهي وصية بحقوق الناس.

إن مدار الشريعة على حفظ الحقوق حتى العبادات فيها معنى التربية على التزكية وتهذيب السلوك، ولهذا قال في الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال عن الزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال عن الصوم: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال عن الحج: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٩٧]، وجماع ذلك كله حديث النبي ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[٢].

كثيرون يظنون أن الدين لم يأت بالحقوق ولم يحافظ عليها، بسبب نقص العلم وسوء التطبيق عند المسلمين، ويتمثل ذلك في الإطاحة بالحقوق بين الأزواج، فمعظم البيوت قائمة على مشكلات وبلايا، حتى الأبناء والآباء.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**اللهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيم، والمرأة**»: أخرجه أحمد (٩٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٤، ٩١٠٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي بعض المجتمعات الإسلامية شيء من تعميق الصراع بين الآباء والأبناء، والأزواج والزوجات، والأولاد والبنات، وبين طبقات المجتمع والقبائل والبلدان، وهكذا... في حين أن الأمم الغربية قامت حضارتها اليوم على حفظ الحقوق، ولذلك حصل لهم العز والنصر والتمكين في الدنيا.

والقهر يكون بالقول كالسَّبِّ والشَّتم، ويكون بالفعل كأخذ المال، ويكون بالإشارة مثل الازدراء أو التحقير أو الإعراض أو الإهمال، وهذا يتناسب مع قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

* ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]:

وهذا يتناسب مع قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، ووجه التناسب أن السائل هنا هو طالب العلم الذي يسأل عن دينه ويريد الجواب، وهذا قول سفيان بن عُيينة وجمع من السلف، واختاره طائفة من المفسرين، وهو قوي[١].

وقد كان النبي ﷺ يأتيه الناس يسألونه عما لا يُسأل عن مثله الأنبياءُ عادة، فكان ﷺ يجيب بصبر وحلم وهذا مما أدَّب الله به نبيه ﷺ، حتى لما قال له الرجل: يا رسول الله، مَن أبي؟ قال: «أبوكَ فلانٌ». ولم يمتنع عن الجواب، وربما سأله رجل عن ناقته إذا ضلَّت[٢]، فكان النبي ﷺ في غاية التواضع للناس.

وفي هذا تربية لأصحاب الخطاب الدعوي وحملة العلم والهدى من بعده، أن يكون عندهم من الصبر على الناس وتحمل حماقاتهم وإزعاجهم وعجلتهم وطيشهم، ما لا ينفرهم عنهم.

وكذلك في الخطاب العام: كخطبة الجمعة، وسائر المواعظ، أن لا يكون الدعاة

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٣٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٢٢، ٧٢٩٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

أشداء، بل رحماء.

وإذا خُوطب وأُدِّب بهذا محمد ﷺ، فنحن من باب أولى؛ لأن الناس ينقادون له بالنبوة، أما غيره فلا ينقاد لهم الناس كذلك، وقد يكون لدى الآخرين من العلم أو الخير أو الأخلاق مثلما عند الدعاة أو أقل أو أكثر، أو هكذا يظنون، فلذلك ينبغي الحرص على رعاية هذا الجانب.

ومن معاني ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: الفقير الذي يطلب المال، وقد امتثل النبي ﷺ فأعطى رجلًا غنمًا بين جبلين، وأعطى آخر مائة من الإبل، ولم يُسأل شيئًا قط فقال: لا[1].

ما قال: «لا» قطُّ إلَّا في تَشَهُّدِهِ   لَولَا التَّشَهُّدُ كانَتْ لاءَهُ «نَعَمُ»[2]

ويقول آخر:

تَـراهُ إذا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَـلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

ولوْ لم يَجِدْ في كَفِّه غيرَ رُوحِه   لجـادَ بها فليتَّـقِ اللهَ سَائِلُـهْ[3]

فكان ﷺ أكرم الناس وأجودهم.

❊ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]:

وهذا متناسب مع قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]، أي: أعطاك فرضيت، فتحدث بنعمة الله تعالى عليك!

ونِعَمُ الله تعالى على الناس لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وإنك لو أردت أن تحصي الخلايا الموجودة في جسمك، لما استطعت؛ لأنها تفوق العدَّ والحصر، وهذه الخلايا لو انفجرت خلية

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣١٥٠، ٦٠٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢، ٢٣١١، ٢٣١٢).

(٢) ينظر: «ديوان الفرزدق» (ص٥١٢).

(٣) ينظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص٩٢).

واحدة منها بشكل غير طبيعي لسبَّب لك الأمراض المستعصية، فعندك بقدر هذه الخلايا من النعمة بسلامتك من هذا المرض!

ولو ذهبنا نعدِّد الأمراض التي سلِمت منها لم نحصِها، ولا نقضي العمر قبل إحصائها، فكيف لو أردتَ أن تَعُدَّ جميع النعم في البدن؟! فكيف إذا ذهبتَ تعدِّد النعم المعنوية من الإسلام والعقل والفهم والوالدين والمال والولد والزوجة: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١٨]؟! وهنا قال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾؛ أي: لا تعدها، ولكن تحدَّث بالنعمة.

فكيف بالنعم في البيئة والكون والطبيعة، والنعم على الناس كلهم سابقهم ولاحقهم؟

وقد يكون من مقاصد النعمة هنا: النبوة، كما قال: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ [القلم:٢]، أي: فادع الناس إلى ربك وإلى الإيمان بك، وحدِّثهم أن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وتحدَّث بما أنعم الله تعالى به عليك.

وهنا مسألة: هل يناسب أن يتكلم الإنسان عن أعماله الصالحة من باب التحدُّث بالنعمة؟

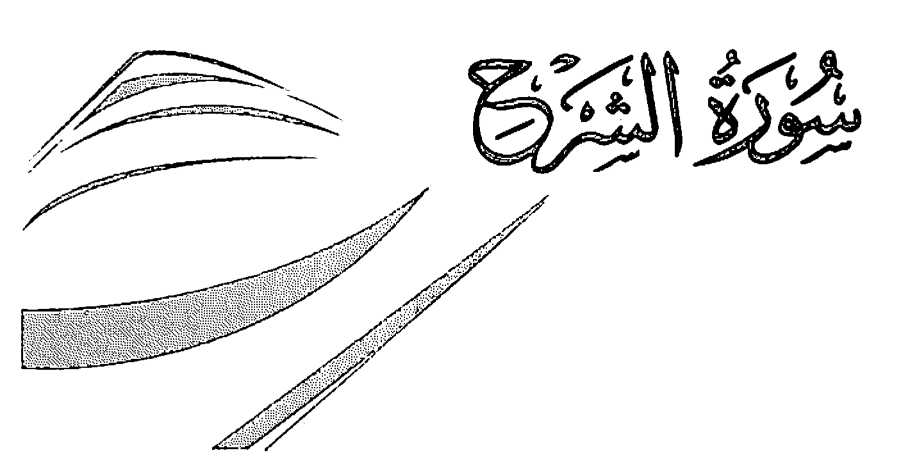
الجواب: لا يناسب في الأغلب؛ لأن إخفاء العمل خير من إظهاره، لكن جاءت نقولات خاصة عن بعض السلف كعمرو بن ميمون وغيره، أنه قد يتحدَّث لبطانته ولمَن يحب، إذا كان في ذلك تحفيز على العمل، وأمن من العُجب والرِّياء[1].

وكثير من النعم ليست خفية، وإنما إظهارها من باب الاعتراف بها وشكرِ الله تعالى عليها وحث النفس على إدراكها وحسن توظيفها، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ١٧٨)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢٧، ٢٢٩)، (٣/ ٣١٨)، و«مقاصد الرعاية» (ص ٩٧).

سُورَةُ الشَّرْحِ



سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾ [الشرح:١-٨].

* تسمية السورة:

١ - غالب كتب التفسير والحديث على تسميتها: «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾».

والبعض يختصر: «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾»، أو: «سورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾»[1].

٢- ومن أسمائها: «سورة الشرح»، وهو المصدر[2].

٣- وبعضهم يسميها: «سورة الانشراح»[3].

* عدد آياتها: ثمان آيات[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٣٢)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٩٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٣)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥).

* وهي مكية باتفاق، قاله كثير من المفسرين[1].

وخالف في ذلك بعضهم، كالقاسمي الذي رجح أنها مدنية[2].

وقد يحتج بدلالة السورة ومعناها ومضمونها، وهو خلاف قول الجمهور، ومن السلف، كعمر بن عبد العزيز وبعض الصحابة مَن يَعُدُّ «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾»، و«سورة: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾» كالسورة الواحدة، وبعضهم لا يفصل بينهما بالبسملة، ويقرؤهما في الركعة، ولأن مضمون السورتين ومعناهما متقارب[3].

وربما تكون هذه السورة في ترتيب النـزول الثانية عشرة، ونزلت بعد «سورة الضحى»[4].

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]:

بدأ تعالى السورة بصيغة السؤال، الذي قصد به الإثبات لا النفي، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك. وجواب السؤال معلوم، ولذا عطف عليه قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢].

يمتن سبحانه على النبي ﷺ بحالة الرضا والسكينة والطمأنينة والإيمان التي يجدها ﷺ في قلبه، فيهون بها كل شيء، وهي من أعظم الأسباب المحققة لنجاح

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٦٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٩)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٦٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٥)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

الدعوة، ولذلك لما أنزل الله الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام وأمره بالبلاغ، كان أول ما دعا به: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه:٢٥-٢٦]، لأن الداعية يواجه من العنت والأذى الشيء الكثير.

والأنبياء والصالحون هم أطيب الناس عيشًا، وأرضاهم نفسًا، وأكملهم سعادةً، لما جعل الله في قلوبهم من الانشراح، بخلاف من يعانون فراغًا روحيًّا وخَوَاءً قلبيًّا لا يقاوم مصاعبَ الحياة ولأواءها.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير «الشرح»، فنُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «شرح الله صدره للإسلام»[1].

ويشهد لهذا قوله عز وجل: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢].

فنزول الوحي على النبي ﷺ هو من شرح الصدر، إضافة إلى ما جعل الله تعالى في قلبه من الفرح بفضل الله؛ ولهذا قال الحسن: «إن قلب النبي ﷺ مُلِئَ حكمة وإيمانًا»[2].

ويجوز أن يكون المقصود به ما حدث للنبي ﷺ أكثر من مرة، لما جاء الملك واستخرج قلبه، ثم غَسَلَه وملأه حِكمةً وعلمًا، ثم ردَّهُ، فقد ثبت أنه حدث للنبي ﷺ في طفولته، وفي يوم المِعراج[3]، وهذا واحد من الأشياء التي شرح الله بها صدر النبي ﷺ، وملأه بها علمًا وإيمانًا وحكمة.

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢) تعليقًا، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم -كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥)- وابن مردويه، كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٢)، وفي إسناده ضعف.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

وبهذا نقول: إن العلم من أكثر ما يشرح صدر الإنسان؛ فالإنسان لا ينشرح صدره بكثرة المال؛ لأنه يصبح عنده ترقُّب وهمٌّ من زوال المال.

ولا بكثرة الولد؛ فالأولاد يخاف الإنسان عليهم من الموت ومن المصائب.

فَيَبْكي إِنْ نَأَوْا خَوْفًا عَلَيْهِمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ[1]

ولا بالسلطان؛ لأنه يخشى من ذهاب السلطان، فيصبح في قلق وترقب، لكن العلم سرور وقُرَّةُ عين وسعادةٌ وأُنسٌ، فأكثر ما ينصح به الإنسان الحرص على العلم النافع، وليس المعلومات التي يتكثَّر بها الإنسان، أو يتصدر بها المجالس، بل العلم النافع الذي يظهر أثرُه على صاحبه بالسرور، وقُرَّةِ العين، كما يظهر في حسن القول، وصدق العمل، والخُلق الفاضل والإحسان.

وقال سهل بن عبد الله التُّستَرِي: «شرح الله صدره بنور الرسالة»[2].

ونقل ابن عطية عن الجمهور: إن الله سبحانه وتعالى شرح صدر رسول الله ﷺ بالمعرفة، وشرح صدره بالطاعة، وشرح صدره بفعل المعروف والمبادرة إليه[3].

وبعضهم قد يفسرون ذلك بالأثر الناتج عن انشراح الصدر، وهو أن يكون النبي ﷺ طيِّب الخاطر في كل الأحوال، يمرَض وهو كذلك، يغتني أو يفتقر، ينتصر أو يهزَم، يقيم أو يظْعَن وهو طيب النفس، مثلما قال المتنبي:

وحَالاتُ الزَّمانِ عَلَيكَ شَتَّى وحَالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حَالِ[4]

---

(١) ينظر: «أمالي الزجاجي» (ص ٤٤)، و«ديوان المعاني» (١/ ٢٦٦)، و«اللطائف والظرائف» (ص٢٣٨).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٦٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (٣/ ٢٠).

وفي إضافة كلمة ﴿لَكَ﴾ في الآية مزيد بيان، أي: شرحناه من أجل إسعادك وإرضائك.

ولم يقل: نشرح لك (قلبك)، وإنما قال: ﴿صَدْرَكَ﴾، وهذا فيه رعاية للفواصل، فكلها بالراء والكاف، وله مقصد آخر هو أن شرح الصدر أبلغ من شرح القلب؛ لأن الصدر هو البحر الذي يسبح فيه القلب؛ فإذا انشرح الصدر كان القلب منشرحًا من باب أولى، ولهذا تجد التعبير بالصدر في القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وانشراح صدر النبي ﷺ له صور عديدة، منها:

١- الصبر على المخالفين.

فهذا من انشراح الصدر؛ لأن ضيِّقَ العَطَنِ لا يطيق أحدًا يخالفه، ولا يرد عليه، في حين أن النبي ﷺ كان منشرح الصدر حتى مع المخالفين، مع أنه كان على بينة من ربه، ويعلم أنه على الحق.

ومن ذلك أنه شجَّه قومه حتى أَدْمَوه، وهو يقول: **«اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»**(١)، وأوذي ﷺ بمكة حتى وضعوا سَلَى الجَزور بين كتفيه وهو يصلِّي(٢)، وتآمروا على قتله في مكة.

٢- صبره على الأتباع، الذين قد لا يوافقونه في كل حال على ما يحب، مثلما حصل من الأنصار في حُنَين عندما وجدوا أن رسول الله ﷺ أعطى قومه عطاءً ولم يُعطهم، فقال بعضهم: لقد لقي رسولُ الله قومه! فجمعهم وقال: **«ما قالةٌ بلغتني**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢)، و«صحيح ابن حبان» (٩٧٣)، و«شرح النووي» (١٢/ ١٥٠)، و«فتح الباري» (٧/ ٣٧٢)، (٨/ ٥٠٨)، (١٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

عنكم...؟» الحديث[1].

وهكذا في الحُدَيْبِيَة، لَـمَّـا عقد النبي ﷺ الصلح، ولم يكن يريد بذلك مصلحة لنفسه، ولا يريد دنيا، ومع ذلك تألَّم أصحابُه وخالفوا أمره ولم يسارعوا إلى طاعته بالتحلل بالحلق أو التقصير حتى فعل ذلك أمامهم، حتى لقد قال عمر رضي الله عنه: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «بلى». قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِل؟ قال: «بلَى». قلتُ: فلِم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري». قلتُ: أو ليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنا سنأتي البيت فنطوفُ بِهِ؟ قال: «بلى، فأخبرتُكَ أنا نأتيه العامَ؟»، قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطَّوِّفٌ به». قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيُّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلِم نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذًا؟ قال: أيُّها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصِـي ربَّه وهو ناصِرُه، فاستمسِك بغرزه، فوالله إنه على الحق[2]. أي: الزم طريقه وتمسك بجادته، ولا تخرج ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ فإنه رسول الله ﷺ.

٣- صبره على المنافقين الذين يُحسبون ظاهرًا على المسلمين، وكان يقع منهم على الرسول ﷺ كثير من الأذى والمضايقة، كما كان يفعل عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ وغيره ممن كانوا يتآمرون على النبي ﷺ.

ومن أشد ذلك: إشاعتهم لحادثة الإفك المعروفة، التي فيها طعنٌ في عرض عائشة رضي الله عنها، حتى نزلت براءتُها من السماء، وكان النبي صابرًا في تلك الفترة محتسبًا[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٧٥) من حديث سهل بن حُنيف رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المِسوَر بن مَخرَمة ومروان بن الحكم.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

٤- ثقة النبي ﷺ بالمستقبل؛ فقد أنزل تعالى هذه السورة بمكة، وكانت عاشر سورة ولم يكن الإسلام قد انتشر آنذاك، وكم كان ﷺ يتأذى لصُدودِ قومه عنه، ومع ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، بل قال بعدها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]. وهو آنذاك ما ارتفع له ذكر في الدنيا عند الناس، فأتباعه قليل، وهو في مكة محاصر ولم تظهر بوادر النصر، لكن كان عنده ثقة كبيرة بنصر هذا الدين.

ولهذا روى البخاري حديث خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه وقول المستضعفين: يا رسول الله، أَلَا تدعو لنا، أَلَا تستنصر لنا؟! فيقول رسولُ الله ﷺ: «وَالله، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ، حتى يمشيَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه»[1]. يقول هذا وهو متوسِّد بردة بجانب الكعبة، لا يملك إِلَّا أتباعًا يُعذَّبون!

لقد كان يتعامل بهدوء واتِّزان وثقة بالله؛ لأن الصراخ والانفعال والغضب والتأثر بالحوادث لا يصنع شيئًا، سوى تدمير صاحبه من الداخل.

وهذا الموقف يعتبر تعبيرًا عن الهدوء والسكينة النفسية، التي ينبغي أن يتحلَّى بها العالم والداعية، بل والإنسان الناجح أيًّا كان في كل الظروف.

وهكذا لما هاجر النبي ﷺ ولحق به سُراقة بن مالك رضي الله عنه، فقال له: «كيف بك يا سُرَاقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى؟». فقال سراقة: كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ؟! قال: «كِسْرَى ابنُ هُرْمُزَ»[2]. وهذا رجل كان كافرًا، ومع ذلك يخبره أنه سوف يلبس سِواري كسرى

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٣٦٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٦١٠)، و«مسند أحمد» (٣)، و«صحيح البخاري» (٣٦٥٢)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٨١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٨٤)، (٦/ ٣٢٥)، و«الاستيعاب» (١/ ١٧٤)، و«أسد الغابة» (١/ ٤٢٢)، و«الكامل» لابن الأثير (١/ ٢٧٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٨٧-١٨٨)، (٦/ ١٩٤)، و«الإصابة» (٣/ ٤١).

ابن هرمز وهو أعرابي من بني مُدلج! وقد تحقق ذلك.

وعندما تجمَّع الأحزاب حول المدينة، والنبي ﷺ يحفر الخندق مع أصحابه، فضرب صخرة فلمِعَتْ، فقال النبي ﷺ: «رُفعت لي مدائنُ كِسْرَى، ومدائنُ قَيْصَرَ»[1]. ففي وقت الضعف والخوف والقلق، وتسلُّطِ الأعداء ووقوع الحصار يبشرهم.

وكان المنافقون يقولون: محمَّد يعِدُنا بكنوز كسرى وقيصر، والواحد منا لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط![2].

وهكذا لما قال النبيُّ ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟». قال: لم أرَها، وقد أُنْبِئْتُ عنها، فقال النبيُّ ﷺ: «فإن طالت بك الحياةُ؛ لترَيَنَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ أحدًا إلَّا الله»[3].

فكانوا يستغربون ويستكثرون ذلك؛ لما يعلمونه من خطورة الطريق من الحيرة إلى مكة، ومع أنها من الغيب، إلا أنهم آمنوا بها؛ لأن النبي ﷺ أخبر بها، فوقعت وشهد عديٌّ بعضَها.

٥- مداومته ﷺ على العمل، والدعوة، والطاعة، دون يأس أو ملل؛ فالنبي ﷺ كان بمكة أولًا، ثم ذهب إلى الطائف، ثم إلى المدينة، وفي قلبه من السرور وقرة العين ما يجعله يتغلَّب على الصعاب.

وأكثرُ الناس تقعد بهم الصعوبات، وقد يبدأ الفرد منهم متحمسًا لمشروعه العلمي أو الإعلامي أو التجاري أو التعليمي أو الوظيفي، فإذا واجه العقبات بدأ

---

(١) ينظر: «سنن النسائي» (٦/ ٤٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٣١).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٢٢)، (٢/ ٢٢٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٧٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣٠)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٣١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٢، ٤٣٥)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٨٩)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١١)، (٦/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

يتذمَّرُ ودبَّ إليه اليأس، وملَّ وترك ما هو فيه من خير، ولو صبر ليَسَّرَ الله له ما تعسَّر.

فالتعليم على سبيل المثال، يتطلب نوعًا من الدَّأب والمواصلة، والصبر والحفظ، وقد يعرض للإنسان ملل أو تعب، لكن عليه أن يحاول ويواصل، وهكذا مجال الدعوة.

٦- عدم استعجال النبي ﷺ للنتائج وقطف الثمار على طريقة حرق المراحل .

وما أكثر الذين يستعجلون؛ لأنهم ليسوا أهلًا لتحمل النجاح.

٧- محافظة النبي ﷺ على الخلق الكريم والتسامح، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجذبهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرت به حاشيةُ الرِّداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسولُ الله ﷺ فضحك، ثم أمرَ له بعطاء[1]. وكان هذا من حسن خلقه ﷺ.

وكذلك موقفه من أهل مكة يوم الفتح بعدما حصل منهم ما حصل، ومع ذلك قال: «ما ترونَ أني صانعٌ بكم؟». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»[2]. ثم إنه لم يسترجِع منهم أموال المهاجرين ودُورَهم، ولا انتقم منهم.

وكذلك غَوْرث بن الحارث الذي رفع السيف عليه وهو نائم تحت شجرة

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٩، ٥٨٠٩)، ومسلم (١٢٨).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢-١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١١٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

وقال: مَن يمنعك مني؟ قال ﷺ: «اللهُ». فسقط السيف من يده، فأخذه رسولُ الله ﷺ فقال: «من يمنعكَ مني؟». قال: كُن كخيرِ آخِذٍ. قال ﷺ: «أتشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسولُ الله؟». قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتِلَكَ، ولا أكونَ مع قومٍ يُقَاتِلُونَكَ. فخلَّى سبيله ﷺ[1].

وبهذا نعلم ما كان عليه من كرم الأخلاق في جميع الظروف، ومع جميع الناس حتى من أساؤوا إليه.

٨- الهدوء في معايشة الحياة مع أطفاله وأهل بيته، ومن ذلك أنه سابق عائشة رضي الله عنها، وكانوا في غزوٍ[2]، على سبيل المتعة والمؤانسة وأداء الحقوق، وهذا يزيد من القدرة على التعليم، ويضمن استمرار العمل والعلاقة.

٩- عدم استغراقه ﷺ في اللحظة الحاضرة؛ فإن الحياة لها تيَّار متدفق، والتاريخ لا ينتهي ولا يتوقف حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بخراب هذا الكون.

الإيمان يعطي قدرًا من التفاؤل بالمستقبل، وتأتي الأمور على أفضل مما تظن.

* ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:٢-٣]:

أكثر المفسرين على أنه وضع عنه ذنوبه عليه الصلاة والسلام، وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[3].

والذي يظهر عدم حصر الآية في هذا المعنى، وأن الأقرب حمل الوِزر على المعنى

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٣١) من حديث جابر رضي الله عنه، وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٥٦٥)، والحميدي (٢٦١)، وأحمد (٢٦٢٧٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «إرواء الغليل» (١٥٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢-٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٢).

اللُّغوي، والوِزر في اللغة هو: الحِمْل الذي يثقل الإنسان، ومن ذلك الحرج، ومنه الشيء الثقيل. فوضع الوزر عن النبي ﷺ يشمل عدة أمور:

١- وضع الآصار والأغلال عن هذه الأمة، وإنزال الشريعة التي فيها: اليسر والسماحة ورفع الحرج والمشقة، فهذه الشريعة هي شريعة اليسر: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨].. ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧].

ولا شك أن ما وضع عن الأمة، فقد وضع عنه ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] فيَعِزُّ عليه ﷺ ما يُعَنِّتُ أمته ويحرجها.

٢- وضع ما كان عليه أهل الجاهلية، مما كانوا يعملونه؛ كتغييرهم دين إبراهيم الخليل عليه السلام، فعلَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم.

٣- إزالة الحزن والكرب الذي كان يتغشَّاه ﷺ أول الأمر، ففي «الصحيحين» أنه لما نزل الوحي على النبي ﷺ، خاف في أول الأمر، وجاء إلى خديجة رضي الله عنها يقول: «زَمِّلُونِي»، «دَثِّرُونِي»، وقال لها: «لقد خشيتُ على نفسي»[1].

وكذلك لما انقطع عنه الوحي قلق من الانقطاع، فوضع ربُّه عنه وزرَه، وأزال عنه الـحُزنَ، وأذهب عنه الكربَ، وقال له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣].

٤- غُفرانُ الذنب، كما قال تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢].

فإن قيل: وما الذنب؟

فنقول: إن «سيئاتِ الأبرارِ حسناتُ المقربين»، فالذنبُ بالنسبة للنبي ﷺ هو ترك الأولى، وقد يكون فعل ما يدخل في باب المكروه في حقه ﷺ بخلاف عموم

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣، ٤، ٤٩٢٢، ٤٩٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠، ١٦١).

الناس، وقد يفعل شيئًا باجتهاده فيعاتبه ربه كما قال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ.. ﴾ [الأنفال:٦٧].

وكذلك غفران الذنب لأُمَّته من بعده عليه الصلاة والسلام، وذلك بما جاء في الشريعة من التوسعة والكفارة والتوبة إلى غير ذلك.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي: أثقل ظهرك، وذلك أن الحمل إذا كان ثقيلًا؛ فإنه يكون له صوت وأَطِيطٌ من ثقله، وهذا الذي جعلنا نستبعد أن يكونَ المقصود الذنب فحسب؛ لأن النبي ﷺ ليس له ذنب يوصف بهذا الوصف.

* ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح:٤]:

وذكر النبي ﷺ مرفوع باللسان أولًا، ومرفوع في قلوب المؤمنين به.

وأما ذكره باللسان؛ فإن الله تعالى قد قرن اسمَ محمدٍ ﷺ مع اسمه في الأذان والإقامة والشهادة.

في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية لم يكن النبي ﷺ يُعرف إلا في حدود مكة، لكن الله رفع ذكره في الملأ الأعلى، كما أنه سبحانه ناداه في القرآن بالنبوة والرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ... ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ... ﴾ بخلاف الأنبياء الآخرين الذين يذكرهم الله تعالى بأسمائهم: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ ... ﴾، ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ ... ﴾، ﴿ يَٰعِيسَىٰ ... ﴾، ﴿ يَٰمُوسَىٰ ... ﴾ .. إلى غير ذلك.

* ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦]:

هذه الفاء الفصيحة، وسميت فصيحة؛ لأنها تختصر كلامًا طويلًا، كأنه يقول: فإذ قد شرحنا لك صدرك، ورفعنا لك ذكرك، ووضعنا عنك وزرك؛ إن مع العسر يسرًا. والمعنى: أنه ما دام هذا كله صنيع الله تعالى بك فيما مضى، فكيف تظن بصنيع الله تعالى بك فيما يأتي؟! فلتكن أكثر ثقة وطمأنينة بوعده.

وأكثر المفسرين يفسرون الآية: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ على أنها نوع من الاستعارة، قالوا: لأن العسر واليسر نقيضان، فلا يجتمع العسر واليسر.

وما ذهبوا إليه فيه نظر، والأقرب أن الآية على ظاهرها وليست استعارة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هنا لم يقل: إن العسر يسر، وإنما قال: «إن مع» أي: يقارنه ويصاحبه، وهذا مشاهد معروف.

وقد جاء في بعض الأحاديث: **«لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرين»**[1]. و: **«لو كان العسرُ في جُحْر، لدخل عليه اليُسرُ؛ حتى يخرجه»**[2]. وهذه أحاديث ضعيفة، ولكنها في معنى الآية الصريحة.

والتكرار للتوكيد، فكأنه لما قال في المرة الأولى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، كان هذا كالتعقيب على ما يتعلق بحال النبي ﷺ، وأن الصعوبات التي يلاقيها معها يسر، وهي دعوة إلى قراءة الوجه الإيجابي للعسر، وأنه مصحوب في الوقت ذاته بألوان من اليسر والروح والفرح والرحمة، لمن تأمل ونظر، ولم يستغرق في التشاؤم.

ثم انتقل إلى إنشاء حكم جديد، ومسألة مستأنفة، وسياق آخر، وقال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، وهذا تأسيس أيضًا، فهو يؤسس لقاعدة عظيمة لا تخصُّ النبيَّ ﷺ، بل

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤١) عن الحسن مرسلًا.

ورُوي من قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما. ينظر: «الموطأ» (٢/ ٤٤٦)، و«الجهاد» لابن المبارك (٢١٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٨)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٩٤٨٦، ٣٣٨٤٠)، و«الزهد» لأبي داود (٧٦)، و«الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٣١)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٣٣٤)، و«المستدرك» (٢/ ٣٠٠)، و«شعب الإيمان» (٩٥٣٨).

(٢) أخرجه البزار (٧٥٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني (٩٩٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧١٢).

هي لكل الناس، فالأُولى مربوطة بما قبلها، والثانية تأكيد وتأسيس لقاعدة عامة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٧]، وفيها عدة معان:

١- أنه نكَّر كلمة «يُسر»، وعرَّف كلمة «العُسر»، وفي هذا معنى لطيف، وهو: أن «العُسر» غالبًا معروف، فكل إنسان يعرف «العُسر» الذي يعانيه، كالفقر، أو المضايقة، أو الأذى، أو الظلم، أو المرض، لكن «اليُسر» قد يأتيه من حيث لا يحتسب ولا يدري، ولذلك قيل:

عَسَى فرجٌ يأتِي بـه اللهُ إنَّـهُ ... لهُ كلَّ يومٍ في خليقتِهِ أَمْرُ[1]

وقيل:

عَسَى الكَربُ الذي أَمسيتَ فيه ... يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ[2]

وعلى المؤمن أن لا ييأس من رَوْح الله، مهما ادْلَـهَمَّت في وجهه الخطوب والصعاب، ولو ظن أنه لا سبيل إلى فرج، فإن الفرج قريب، والله عند ظن عبده به.

٢- جاء «اليُسْرُ» مكررًا مرتين، وهو نكرة، بخلاف «العسر» فهو واحد؛ لأنه معرفة، فالعسر الأول هو الثاني، وهو يقابل يسرين، و«لن يغلبَ عُسرٌ يُسرين»، فما هذان اليسران؟

اليُسر الأول: يسر الصبر والرضا والشكر؛ لأنه إذا كان الإنسان في مصيبة كمرض، ثم رزقه الله سبحانه وتعالى سرور القلب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي شُفي أم لم يُشفَ لِـمَـا عنده من الإيمان، كان هذا يسرًا عظيمًا.

وبذا تحصل سعادة القلب، وسرور النفس، فهذا اليسر المصاحب للرضا والصبر والشكر.

---

(١) ينظر: «خريدة العصر» (١/ ٢٠٨)، و«بهجة المجالس» (١/ ٣٤).

(٢) ينظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٥٥)، و«أمالي القالي» (١/ ٧٢).

اليُسر الثاني: هو يسر الفَرَج وزوال الغمِّ، أي: زوال الشيء الذي يعاني منه الإنسان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّـا.

وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسلِّم ويرضى بقضاء الله، والثاني أن يهيَّأَ له انكشافُ هذا الأمر من حيث لا يحتسب.

اليُسر الثالث: يسر يعمله الإنسان ويحاوله، وهو يسر التسبب والحيلة؛ لأنه مطلوب من الإنسان أن يبذل الأسباب، بأن يتعالج، أو يطلب العلم، أو يبذل المال، فيحرص على إزالة الأسباب الموجبة للهمِّ والغمِّ، وتحصيل الأسباب الموجبة للسعادة.

اليُسر الرابع: يسر العطاء والمنحة والفضل من الله سبحانه وتعالى من غير سبب، والله تعالى يقول: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩]، فقد يعطي الله تعالى العبد من غير تسبب.

اليُسر الخامس والسادس: يُسر الدنيا ويسر الآخرة، وهو ما يعطي الله تعالى العبد في الدنيا من الخير والبرِّ والفضل؛ فإن فاته ذلك ظفر باليسر الأُخروي، ولذلك إذا تخيل المؤمن ما عند الله تعالى من النعيم والفضل والعطاء، سُرَّ بذلك واطمأنَّتْ نفسُه وَقرَّت عينُه.

اليُسر السابع والثامن: يسر الحال والمآل: فيسر الحال هو ما يعيشه المرء الآن، والمصيبة قد تكون سببًا في ألوان من الخير والفيض والعطاء.

وأما يُسر المآل، فهو الانتظار والترقب، وانتظار القادم، وتوقع الأفضل.

والعسر مسبوق بيسر ومتبوع بيسر، وقبل الفراق كنت مع من تكره فراقَه، وأحببت الاجتماع به زمانًا طويلًا، ثم أنت الآن محروم، وستعود إليه، ويعود إليك، كما يقول القائل:

إذا رَأَيْتَ الوَدَاعَ فاصبِرْ ولا يَـهُـوْلَـنَّـك البِعَـادُ
وانْتَظِرِ العَوْدَ مِنْ قَرِيبٍ فإنَّ عَكسَ الوَدَاعِ: «عادُو»[1]

فينبغي بالعبد أن يدرك أن العسر محفوف باليسر معه وقبله وبعده.

* ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]:

قال مجاهد وغيره: إذا فرغت من دنياك[2]. فالإنسان يضطرب في دنياه وكسبه، فإذا فرغت منها فأقبل على ربك، بالنَّصَب والعبادة.

وقال الحسن وغيره: إذا فرغت من الجهاد[3].

لكن الآية لم تذكر المفعول للفعل ﴿فَرَغْتَ﴾، ولا للفعل ﴿فَٱنصَبْ﴾، ولذلك تجري مجرى المَثَل، لاشتمالها على أقصر وأخصر الألفاظ وأعظم المعاني، والمعنى: كلما وجدت فراغًا فاستثمِرْه، وأقبل على ربك، وانصب نفسك له بالعبادة.

وذلك لأن العبادة شكر على العطاء الذي منه شرح الصدر، وهي ينبوع من ينابيع السعادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال النبي ﷺ: «**العبادةُ في الهَرْج كهجرة إِلَـيَّ**»[4]. وذلك لأن الإنسان ينشغل بأمر نافع، بينما الناس ينشغلون بالقيل والقال.

ولأن العبادة تكسب الإنسان سكينة وطمأنينة، وتخفف من التوتر والاحتقان

---

(١) ينظر: «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٩٦) منسوبًا إلى أبي عبد الرحمن النيلي.

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١١٤٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٩)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٩)، (٢٤/ ٤٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ﷺ.
والهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس.

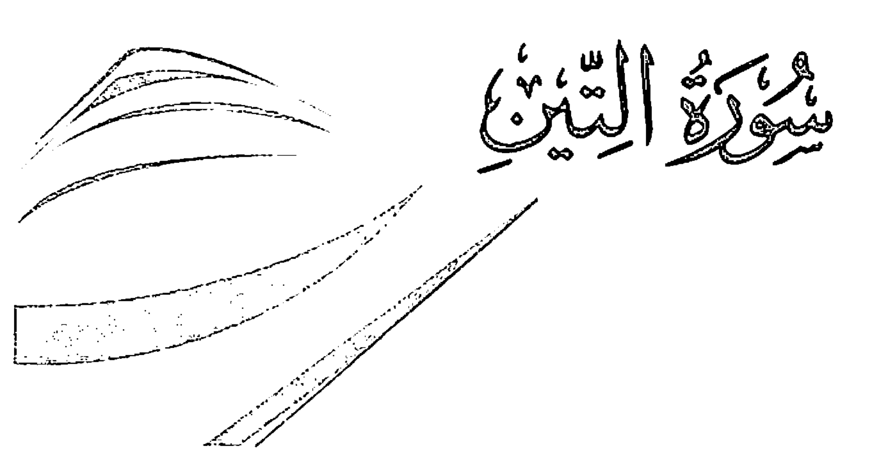
النفسي الذي يحدث بسبب الضغوط، وتجعل الإنسان أكثر اعتدالًا وهدوءًا وتعقُّلًا في قوله وفعله، وتبعده عن الحالات التي قد يفضي فيها إلى يأس أو قنوط، وقد يقول أو يفعل ما يوبق دنياه وآخرته.

وبعض الناس إذا غضب قد يطلِّق زوجته أو يقتل، أو ينتحر، أو يقول الكفر أو يفعله، بسبب فرط الانفعال والغضب.

وقدَّم قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على الفعل للاختصاص، أي: لا ترغب إلَّا إلى الله سبحانه وتعالى في تحصيل ما تريد من أمر الدنيا وأمر الآخرة. والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ التِّينِ



سورة التين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ (٣) لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ (٤) ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ (٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ (٧) أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨) ﴾ [التين:١-٨].

* تسمية السورة:

هذه السورة معروفة باسم واحد عند المفسرين، وفي المصاحف، وهي: «سورة التين»، وقد يذكرون الواو، فيقولون: «سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾»[1].

* عدد آياتها: ثمان آيات[2].

* وهي مكية، ولم يذكرها صاحب «الإتقان» وغيره في السور المختلف في نزولها؛ لأن الأكثرين يرون أنها مكية.

ويرجِّح القول بمكيتها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣]، فهو إشارة إلى مكة البلد الأمين، الذي كان فيه النبي ﷺ، فتكون الإشارة إلى معهود حضوري، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مدنية، والراجح هو الأول[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٤٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«زاد المسير» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩).

وهي من السور المبدوءة بالقَسَم، وقد أقسم تعالى هنا بأربعة أشياء فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣].

وتوجد علاقة بين الأشياء التي يقسم الله تعالى بها، وبين الموضوع الذي يقسم عليه؛ لأن لورود كل شيء في القرآن سرًّا وحكمةً.

* ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين:١]:

افتتحت السورة بالقسم بـ «التين والزيتون»، وهما شجرتان معروفتان، وثمرتان مأكولتان، فهل المقصود التين والزيتون المعروف؟

هذا ما قاله جمع من أهل التفسير، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، ورجَّحه الإمام الطبري[2]، وقالوا: إن هذا ظاهر سياق القرآن الكريم.

ويرى بعض الباحثين المعاصرين المهتمين بالإعجاز العلمي، أن القسم بـ «التين والزيتون» مرتبط بخواص غذائية لهاتين الشجرتين.

والذي يترجح -والله أعلم- أن القسم هنا بـ «التين والزيتون» ليس قسمًا محضًا بهاتين الشجرتين، وإنما هو قسم بمواطن التين والزيتون ومنابتها.

* والتين غالبًا ينبُت في بلاد الشام، والزيتون ينبُت في بيت المقدس وأرض فلسطين وما حولها، وهذا يتناسب تمامًا مع قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢].

والمقصود بـ «الطور» عند أهل اللغة: الجبل، وأدق من ذلك أن يقال: إن الطور هو الجبل الذي تنبت فيه الأشجار؛ لأننا نعرف أن غالب جبال الجزيرة العربية جرداء، بخلاف جبال الشام وأوروبا وغيرها، فهي مكتسية بالخضرة، وفيها ألوان من الأشجار.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨) بسنده إلى «تفسير مجاهد» عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وهو في «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧) من قول مجاهد، وكذا في «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٣).

فالراجح أن «الطور» هو: الجبل الذي فيه الشجر[1].

وقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، قيل: ﴿سِينِينَ﴾ معناها: جميل أو حسن، أي: الطور الحسن، أو المبارك، أو الجميل.

وذهب الأكثرون إلى أن «طور سنين» اسم موضع، وهو المذكور في آية أخرى، حيث قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وهذا نُقل عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وهذا الطور يسمى: جبل موسى؛ لأنه هو الجبل الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾[2] [مريم:٥٢].

فهنا أقسم الله تعالى ببلاد الشام ومهد المسيح عليه السلام، ومنابت التين والزيتون، فالمسيح عليه السلام وُلد في بيت لحم في فلسطين، وعاش في بيت المقدس[3]، فأقسم الله تعالى بـ«التين والزيتون»، أي: جبل بيت المقدس، وأقسم بـ«طور سينين» وهو جبل سيناء، وهو جبل موسى عليه السلام، وحتى في بيت المقدس يوجد جبل يسمى: جبل زيتا وجبل سيناء، ففي القسم إشارة إلى الموضع وإشارة إلى الشجرة أو الثمرة لذاتها ولمنافعها، والسياق القرآني يظل مفتوحًا على المعاني الصحيحة المحتملة لغويًّا.

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٧)، و«تاريخ دمشق» (١/ ٢١٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ١٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير يحيى بن سلَّام» (١/ ٣٩٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٢)، (٢٤/ ٥٠٣، ٥٠٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٨)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٩٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«غريب القرآن» للأصبهاني (ص٣٠٩)، و«تاريخ دمشق» (١/ ٢١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١١٤)، (٢٠/ ١١٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٣)، و«الإتقان» (٢/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٣٤).

(٣) ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٥١)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٢٧٤)، و«المختصر في أخبار البشر» (١/ ٣٥)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ١٧٢)، و«الروض المعطار» (ص ٥٧١).

* ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين:٣]:

ذِكْرُ البلد الأمين جاء في نهاية القسم، وهي إشارة إلى ترابط النبوات، وأن الأنبياء إخوة، كما قال النبي ﷺ: «**الأنبياءُ إِخوةٌ من علَّاتٍ**[١]**، وأمهاتهم شتَّى، ودينهم واحدٌ**»[٢].

فيأخذ بعضهم بركاب بعض، ويزكِّي بعضُهم بعضًا، ويصدِّق بعضُهم بعضًا، عقيدتهم واحدة، وإن اختلفوا في الشرائع.

فأقسم الله تعالى بمهد المسيح عليه السلام، ثم بجبل موسى عليه السلام، إشارة إلى الديانات السماوية -أعني: دين المسيح ودين موسى- ولا أريد أن أسميها اليهودية، لأن هذا الاسم لم يرد إشارة إلى دين موسى عليه السلام، وإن كانت اسمًا ينتحله الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، لكن لا نقول إن موسى دينه اليهودية، وإنما دينه المنزَّل من عند الله تعالى.

فهذا القَسَم بالأديان السماوية التي نزلت على الأنبياء، وبخاصة الأديان التي بقي لها أثر وحضور، وامتداد تأريخي، وهو قَسَم يؤكِّد معنى ربانيًّا إيمانيًّا، وهو أن الأنبياء كلهم إخوة، وملَّتهم واحدة، وليس بينهم تعارض ولا تناقض، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، هذا أولًا.

ثانيًا: تأكيد ختم الرسالات والنبوات بمحمد ﷺ، حيث جاء ذكر البلد الأمين في آخر هذا القَسَم.

ثالثًا: تأكيد معنى الوراثة -أعني: وراثة النبي ﷺ للأنبياء كلهم- فقد جاء

---

(١) أولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ليجدِّد شرائعهم، وقد كان ﷺ يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى**»[1].
ولدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام علاقة قوية بالبلد الأمين.

فالقَسَم بالبلد الأمين ليس إشارة إلى محمد ﷺ المبعوث في البلد الأمين فحسب، بل فيه إشارة إلى إبراهيم عليه السلام، وأن محمدًا ﷺ هو مجدِّد ملة إبراهيم، ومحيي دينه، ومزيل أوثان الجاهلية عن البيت الحرام.

وفيه معنى وراثة النبي ﷺ لكل معاني القيم الفاضلة والتوحيد الخالص، التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وألتمِسُ في هذا القسم معنًى رابعًا، وهو: أن دِيْنَ محمد ﷺ لما كان خاتمًا للرسالات وناسخًا للشرائع لا يدخله التبديل ولا التحريف ولا النسخ، وبقي بصفائه ونقائه، فقد جاء القَسَم المتعلِّق بهذه النبوة ومكانها بوضوح بعيدًا عن اللبس وغموض المعنى، ولم يذكر ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ مطلقًا بغير قيد ولا تحديد، كما في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١]، الذي يمكن أن يصدُقَ على أي بلد، ولم يقل: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ فحسب؛ لأنه يحتمل أن يقع من الناس نوع من التساؤل عن مرجع الإشارة، ولم يقل: ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فقط، ولكن أشار إليه وسمَّاه ووصفه بما يزيل كل التباس، وإذا كان المفسرون قد اختلفوا في تحديد التين والزيتون وطور سينين، فإنهم لم يختلفوا قط في أن البلد الأمين هو مكة[2].

ثم هناك معنًى خامس: فأنت تقرأ هذه السورة، وفي مقدمتها هذا القَسَم، تلحظ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، وابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم (٢/ ٤١٨) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣)، و«أضواء البيان» (٨/ ٥٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٢).

أن هذه المواطِن التي أقسم الله بها أو بما ينبُت فيها، يجمعها خاصية ظاهرة؛ وهي أنها أماكن تكاد تجتمع فيها أهم الحوادث والصراعات بين الأمم والطوائف الدينية.

ولذلك يتقوّى أن نربِطَ بين ما أقسم اللهُ به في هذه السورة وبين مشاهد الحوادث في هذه المنطقة، لا سيَّما إذا استدعينا بعضَ النصوص النبوية التي يذكر فيها النبي ﷺ أرض الشام، وأرض المَحْشر والمَنْشر، وأرض الميعاد، وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المجاهدين في سبيل الله إلى قيام الساعة، حتى يقاتل آخرُهم المسيحَ الدجالَ.. إلى غير ذلك، مما يعطي المؤمن شعورًا بأن القَسَم هنا له امتدادات ومعانٍ عميقة، قد يدرك الناس طرفًا منها بالتأمُّل.

* ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤]:

هذا جواب القَسَم، ولأهميته احتاج الأمر إلى تأكيده بالقَسَم السابق، ثم باللام، ثم بحرف التحقيق وهو «قد»، مما يُشعر بأهمية المقسم عليه.

ليس المقسم عليه هو مجرد خلق الإنسان؛ لأن خلق الله تعالى للإنسان من المعلوم، حتى للمشركين ، فقد كانوا يعترفون بتوحيد الربوبية، وأنه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما.

وقد يقال: إنه نزَّلهم منزلة المنكرين لهذا المعنى؛ لأنه لم يظهر أثره عليهم، فهم يقولون ذلك بألسنتهم، لكنهم لا يعبدونه سبحانه، ولا يطيعون رسله، ولا يلتزمون بأوامره، فكأنهم نزلوا منزلة مَن ينكر خلق الله تعالى له، فهذا وجه!

والأقوى: أن يكون القَسَم غير منصبٍّ على مسألة خلق الإنسان، بل على خلقه في أحسن تقويم، ثم ردَّه أسفل سافلين، وهذا معنى أوسع؛ لأنه اشتمل على قضية خلق الإنسان، وعلى أنه خُلق في أحسن تقويم، وعلى أنه رُدَّ إلى أسفل سافلين، وعلى الاستثناء: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين:٦]، فهي أربع قضايا إذًا.

وإذا تقرر هذا، فما هو التقويم الحسن الذي خُلق عليه الإنسان؟

أكثر المفسرين يميلون إلى الكلام عن الجانب الجسدي المشهود في الإنسان، من حسن صورته واعتدال قامته، واكتمال أعضائه وسمعه وبصره وخلقته، وهذه من مظاهر القدرة العظيمة والحكمة الباهرة والعلم المحيط في خلق الإنسان بهذه الصفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨].

عندما تنظر إلى الجمال في خلق البشر، صورة وشكلًا لوجدته ظاهرًا، فلو فقد الإنسان من أعضائه جزءًا صغيرًا لشعر بالنقص والتعيب، كما لو فقد ظفرًا من أظفاره، أو أُصيب هذا الظفر بسواد، فإنه يخفيه عن الناس، ولو فقد بعض شعره الظاهر، كشعر حاجبه أو لحيته، أو فقد بعض أصابعه، أو تغيَّرت صورة جلدِه، لشعر بحرج من نقصها، وحاول إخفاءها.

ومن الخَلْق في أحسن تقويم ما رُكِّب فيه من الأجهزة الباطنة، كالجهاز التنفسي والهضمي والعصبي..

وكذا العقل الذي ميَّز الله به الإنسان، وأقدره على الفَهم والإدراك، ومعرفة المقدِّمات والأسباب والنتائج، والاستفادة من التجارب والخبرات، ولذا جعل تعالى الإنسان إنسانًا بالعقل لا بالجسد فحسب، وإلا فقد تجد من الحيوانات ما هو أجمل منه كالطاووس، وما هو أقوى منه كالفيل أو الأسد، ومن الجبال ما هو أعلى من الإنسان؛ بما تحتويه من معادن الذهب والفضة.

إن إنسانية الإنسان بالعقل والإدراك، وبالمسؤولية والتكليف الشرعي المبني على العقل، وبالنفس التي كُرِّمت بالخطاب والتكليف، فهو إنسان باستقرار نفسه وسعادته وطِيب عيشه وسروره، وفرحه ورضاه واغتباطه.

فتبيَّن أن إنسانية الإنسان وكونه في أحسن تقويم، لا يتمثل بالجمال والكمال في الجسد فقط، بل هي في الجسد، وفي العقل، والروح، والنفس، وفي المواهب، والقدرات، وفي الملكات، والأعطيات التي لا تنتهي ولا يحيط بها عد: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

حتى التوازن في خلقة الإنسان بين الروح والجسد، حيث يتقاصر عن درجة المَلَك الكريم ويتعالى على درجة الشيطان المريد، ويجعل الروح والجسد والعقل تعمل بانسجام، وربما لا يدرك هذه النعم، وقد لا يستوعب الكلام عنها وهي من التقويم العظيم!

* ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين:٥]:

وهذا جزء من المقسم عليه، أن هذا الإنسان الحسن في شكله وهيئته وتقويمه، يُرَدُّ أسفل سافلين، عندما ترى الشاب في توقُّده وحيويته وقوته وعنفوانه واندفاعه، ترى مظهرًا من مظاهر الجمال والقوة والنشاط، وقد يخيَّل للشاب أنه سيستمر شابًّا، ولا يتصور أنه سيصبح يومًا شيخًا هرِمًا، تذهب نضارة وجهه إلى غضون وتجاعيد، ويتساقط شعر حاجبيه على عينيه، وتتساقط الأسنان، ويصاب بثقل الكلام وبطء الحركة، ويحدودب ظهره، وتغزوه الأمراض، ويبدأ الارتعاش وتظهر عليه مقدمات (الزهايمر)! هل في هذا الوجه الضعيف الذابل أثر من ذلك الوجه الصبوح النضير؟

ومن معاني رده أسفل سافلين: رده في حياته العقلية إلى أرذل العمر، فترى هذا الإنسان العاقل الخبير الذي يتقد ذكاءً وفطنةً، في آخر عمره خرفًا هرمًا كالطفل، بل الطفل أفضل حالًا منه.

ومن معانيها: ذهاب الشهوة، فترى الذي قضى شبابه بالأمس يَعُبُّ الشهوات عبًّا، دون تقوى أو ازدجار، قد كبر وشاخ وعجز، ولم يبق له إلَّا الذكريات السيئة

المؤلمة والحرمان.

يحـزنُ المـرءُ على ما فــاتَـه　　　من لذاذاتٍ إذا لم يقـضِـها

وتـراهُ فـرِحًـا مستـبـشـرًا　　　للتي أمضَى كأن لم يُمْضِـها

إنها عندي كأحلامِ الكَرَى　　　لقريبٌ بعضُها من بعضِـها

وقيل: معنى ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: «السافلون» هم سفلة الاعتقاد، والإشراك أسفل الاعتقاد، فيكون ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ وذلك أن الإنسان يأخذ في تغيير ما فُطر عليه من التقويم والإيمان بإله واحد وتوجه الفطرة إليه بالعبادة والتعظيم فيصير ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

وهل أسفل ممن يعتقد ألوهية الحجارة أو الأشجار أو الحيوانات، أو ممن يجحد وجود الخالق وهو يشاهد مخلوقاته ويتلقَّى إنعامه!

ومن السُّفول الذي يرد له مَن تجاوز تقويم الفطرة: السُّفول في الأخلاق من طمع وجشع وجزع وهلع وجبن وفحش، فهل بعد هذا من تسفل في الأخلاق[1].

وقيل ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: أي أن الصورة القويمة سوف ترد إلى صورة قبيحة مشوَّهة حينما تُلقى في ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وهي أسفل دركات النار، فيكون المراد بـ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الدرك الأسفل من الجحيم موضع العصاة المتمردين على ربهم[2].

* ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [التين:٦]:

وفي هذا الاستثناء أسرار، فإن الله تعالى استثنى المؤمنين، والسؤال: أليس يمر

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٧- ٤٢٨).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٩).

وينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٩، ٥١٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ١٢)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤١٠)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٦٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٠٨، ٥١٣).

عليهم الهرم والكبر والشيخوخة كغيرهم؟

بلى.. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠]، والسنن البيولوجية لا تحابي أحدًا.

والمؤمن قد يصيبه الخرف في عقله، وبعضهم يقول: إن الذي يحفظ القرآن لا يصيبه الخَرَف، وهذا فيه نظر؛ لأنه لم يثبت ذلك في القرآن، ولا في السنة، ولا في التاريخ، ولا يدل عليه الواقع؛ فإننا نجد من الناس مَن يكون عالِـمًا وحافظًا ثم يتغير، والمحدِّثون كانوا يحجرون على الشيخ إذا كبر سنه وتغير حفظه، ويمنعون الناس من الأخذ عنه والتلقِّي منه، ويقولون: فلان اختلط. لئلا يختلط حديثه الصحيح بغيره فيُرَد، مع أنه كان مُحَدِّثًا قضى عمره كله في: «قال»، «حدثنا»، «أنبأنا»، «أخبرنا».

وقد نقول: إن ذلك فيهم أقل منه في غيرهم؛ لأن الإنسان إذا نقص عقله يظل يردِّد الأشياء المألوفة فيما مضى من عمره، فيقرأ القرآن ويسبِّح ويسوق الحديث النبوي.

أو يردِّد ما ألفه واستقر في ذاكرته من أمور رديئة أو فاسدة، فتسمع منها ما يعيبه ويُعَدُّ منقصة فيه.

وثَمَّ وجه آخر: أن الإنسان في كبره يبقى في وجهه نور وإشراق من أثر الطاعة والعبادة، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسَعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لسوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضًا في قلوب الخلق»[1].

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٣٠)، و«منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٧)، و«روضة المحبين» (ص٤٤١)، و«الوابل الصيب» (ص٣٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣)، و«روضة المحبين» (ص٤٤١).

وقد ذكر أنس ﷺ أنهم نظروا إلى وجه النبي ﷺ فكأنه ورقة مصحف، وذلك في آخر عمره[1].

وقد استشهدت عائشة ﷺ في وصفه ﷺ بقول أبي كَبِير الهذلي:

ومُبَرَّأٍ من كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ وفساد مرضعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ

وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وَجْهِه بَرَقَتْ كبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ[2]

ومعنى ثالث: أن الإنسان الذي يحتقب ذكريات اللهو والمعاصي، يتمنى المعصية حين يعجز عنها، وربما يُكتب عليه وزرها، أما المؤمن فإنه يُكتب له الأجر، وفي «الصحيح» مرفوعًا: «إذا مرض العبدُ أو سافرَ، كُتب له ما كان يعملُ مقيمًا صحيحًا»[3].

فإذا عجز عن صلاة الليل أو الصيام أو الذكر أو التعليم أو الجهاد، لعارض من كبر السن أو المرض؛ فإن أجره يدرُّ عليه، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، حتى وإن كبروا وعجزوا، فالأجر لا يقطع، بل هو مستمر لهم على ما كانوا يعملون، بخلاف أولئك الذين لم يكونوا من الأخيار ولا من الصالحين.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: لا يَمُنُّ به عليهم، بل يتفضل الله سبحانه وتعالى عليهم من غير أن يَمُنَّ عليهم به أحد؛ لأنه من الله سبحانه وتعالى المعطي المتفضِّل، بخلاف عطاء الناس فإنه قد يلحقه مَنٌّ أو أذى، ولذلك مدح الله الذين ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٢]، وقال هنا: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) ينظر: «حلية الأولياء» (٢/ ٤٥)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٤٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[1].

فهناك رابط بين القسم الذي أقسم الله به: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾، وبين الأمر المقسم عليه، وهو خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم إرجاعه إلى أسفل سافلين: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

وهذا القسم إشارة -والله أعلم- إلى القيمة الحقيقية للإنسان، وأنها الإيمان، فهو الذي يصحِّح عقل الإنسان، ويحفظ عمل جسده فلا ينقطع أجره، ويحفظ نفسه وروحه وماله، ودنياه وآخرته[2].

* ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [التين:٧-٨]:

وهذا خطاب للإنسان المكذِّب بالدين، و«الدين» هنا هو الجزاء والحساب في الدار الآخرة، حيث يُدان الإنسان بما عمل، أي: يُجزى به، ومنه الدينونة، أي: ما الذي جعلك تكذب بالدار الآخرة، وأنت تَرَى الإنسان يُخلَقُ في أحسن تقويم، ثم يُرَدُّ إلى أسفل سافلين؛ في جسده وفي نفسه وفي عقله؟

وهل تظن أن الذي خلق الإنسان بهذه الحكمة والعظمة والإبداع، وأرسل إليه الرسالات، وكلَّفه بالتكاليف، أتظن أنه يترك الإنسانَ سُدًى، ولا يبعثه بعد ذلك، ولا يدينه ويجازيه؟

ما الذي يجعلك تكذِّب بعد هذا كله بالدين؟

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٨٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ١٠٣)، و«نظم الدرر» (٢٢/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١٧، ٥١٩، ٥٢١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٦).

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أَلَا تدري أن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، أي: صاحب الحكمة، والحكمة تقتضي أن لا يُخْلَق الإنسان سُدًى.

وفي حكم البشر أنه لو عمل أحد شيئًا بغير جدوى، لقال الناس: هذا ليس من مقتضى الحكمة، حتى النعل يلبسه الإنسان ليتقي الحر والبرد والأشواك، وغيرها مما يكون في طريقه، فكيف يُترك هذا الإنسان بكلِّيته سُدًى؟! ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة:٣٦-٣٧]، وهذا المعنى موجودٌ في سورة التين.

أفمن الحكمة: أن يُخلق الإنسان بهذه القوة والكثرة، والامتداد التاريخي والجغرافي والإبداعي، ثم يُترك ويُهمل، فيذهب الظالم والمظلوم، والمخطئ والمصيب، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويأكلهم التراب والدود، فلا يُبعثون ولا يُسألون ولا يُحاسبون ولا يُجازون ولا يُقتص للمظلوم من الظالم؛ هل يتوافق هذا مع الحكمة؟! كلا؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾؟ بلى، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وقد يكون معنى الاستفهام، أي: يا رسول الله، ما الذي يجعلهم يكذِّبونك بعد هذا؟ والمعنى متقارب.

وقد روى أبو هريرة ﷺ حديثًا عن النبي ﷺ قال فيه: «**مَن قرأ منكم بـ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[1]. والحديث فيه ضعف، ورجَّح أبو زرعة وقفه[2].

○ ○ ○

(١) أخرجه الحميدي (١٠٢٥)، وأحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٦)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، وفي «شعب الإيمان» (١٩٢٩).

(٢) ينظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (١٧٦٣)، و«علل الدارقطني» (١١/ ٢٤٦-٢٤٨)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٤/ ٢٤٣-٢٤٤)، و«نتائج الأفكار» (٢/ ٤١)، و«تمام المنة» (ص١٨٥-١٨٦).


سورة العلق

سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

[العلق:١-١٩].

* تسمية السورة:

١ - الذي عند جمهور المفسرين: «**سورة العلق**»[١].

٢ - «**سورة** ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾»، أو: «**سورة** ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾»، وبعضهم يختصرها: «**سورة** ﴿ اقْرَأْ ﴾»[٢].

٣- وقد سماها بعضهم، كابن العربي، وابن الجوزي، وابن القيم، وغيرهم: «**سورة القلم**»؛ لتشابه سورة ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١][٣].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٣٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٧٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٦)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٨)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«ملاك التأويل» (٢/ ٥٠٩)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص ٢٩٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٣٠٧)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

وسورة ﴿ نٓ ﴾ أشهر أن تسمى بالقلم، أما هذه السورة فالأشهر أن تسمى: «العلق»، أو ﴿ اقْرَأْ ﴾.

* عدد آياتها: تسع عشرة، وقيل: ثماني عشرة، وقيل: عشرون[(١)].

* وهي مكية بالإجماع، وأول ما نزل عند جماهير المفسرين، خصوصًا صدرها، وكان نزولها في رمضان ليلة السابع عشر منه[(٢)].

* قصة نزول سورة العلق:

هذه السورة على وجازة ألفاظها، وقصر آياتها، بديعة المعاني رائعة الألفاظ، دقيقة الإعجاز، تُبهر العقول وتأخذ بالألباب، وهي أول سورة طرقت سمع النبي ﷺ.

نزلت بدايات هذه السورة في غار بعيد يصعب الوصول إليه (غار حراء)، حيث كان النبي ﷺ يعبد ربه فيه في ظل جاهلية جَهْلاء غطَّت عقول الناس وحياتهم، ومكة تضج بالأوثان، كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، والناس كما قال الشاعر:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنمٍ، قد هام في صنمِ

والأرض مملوءةٌ جَوْرًا، مسخَّرةٌ ... لكلِّ طاغية في الخَلْق محتكمِ

مسيطرُ الفرس يبغى في رعيته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عمِ[(٣)]

تلك كانت الحياة الملأى بالضَّلالات والظُّلمات والجَهَالات في جزيرة العرب خاصة، لا دين ولا دنيا، ولا حضارة ولا علم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٤)، و«زاد المسير» (٩/ ١٧٥)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٦٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٣٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «الشوقيات» (١/ ١٩٧).

يتعبَّد كل سنة في غار حراء الشهر الذي يوافق شهر رمضان، فإذا بالمَلَك يأتيه، وكان أول ما يخاطبه به ويقرَع سمعَه هذه الكلماتُ.

وقد ذُكرت قصة نزول الوحي في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂، وكيف أن النبي ﷺ في أول الأمر قال: «ما أنا بقارئٍ.. ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ». كل ذلك يأخذه ويغطُّه ويضغطه، حتى يبلغ منه الجَهد، حتى خشي على نفسه ﷺ، ثم قال له هذه الآيات.

والظاهر والله أعلم أن النبيَّ ﷺ قرأها في الموقف، ثم رجع إلى خديجة ﵂ ترجف بوادره، وهو يقول: «زمِّلوني زمِّلوني». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، ثم قال لخديجة ﵂: «أي خديجة، ما لي؟». وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيتُ على نفسي». قالت له ﵂: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتَصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ على نوائب الحقِّ. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتابَ العربيَّ ويكتُبُ من الإنجيلِ ما شاء اللهُ أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خديجة ﵂: يا ابنَ عمِّ، اسمعْ من ابنِ أخيكَ. قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي، ماذا تَرى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه. فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي أُنزل على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جَذَعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرِجُكَ قومُكَ. قال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟». قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدركْنِي يومُك أنصرْكَ نصرًا مؤزَّرًا[1].

والحديث يدل على أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وبها نُبِّئ النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ففي «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال -وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا في السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، قال: فرُعِبْتُ منه، ورجعتُ وقلتُ: زمِّلوني**». فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فحمي الوحي بعد ذلك وتتابع[1].

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد الأمر الأول، وهو أن سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر الملك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه بسورة اقرأ، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل سورة المدثر؛ أي: أول ما نزل بعد ما فتر الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول ﷺ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم فتر كما في حديث عائشة، ثم عاوده الوحي بسورة المدثر، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير.

وهو ما يقتضيه النظر، فإنه ﷺ نُبئ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأُرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فكانت ﴿ٱقْرَأْ﴾ نبوءة له، ثم أُرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١-٢].

إن التعبد الذي كان يعمله النبي ﷺ في غار حراء كان على ملة الحنيفية في عبادة الله تبارك وتعالى، وفي العبادة أنس للقلب، وراحة للنفس، وقرب من الله تبارك وتعالى، فكان النبي ﷺ يأنس بعبادة ربه؛ ولذلك سُميت: عبادة؛ لأنها تذلِّل النفس لطاعة الله تعالى، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل ما يكون العبد

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤)، و«صحيح مسلم» (١٦١).

حينما يقترب من ربه، فكانت العبادة له ﷺ أُنسًا لا يخالطه عناء، لكن الله سبحانه وتعالى أراد بسابق حكمته وبالغ رحمته أن يواجه الرسول ﷺ أمر الدعوة إلى الله عز وجل، وأمر توجيه الناس، وهذا فيه العناء والجهد والمشقة، وفيه الجرح والقتل والطرد والتكذيب والتعذيب؛ ولذلك لما جاء جبريل عليه السلام كان أول ما فعله مع النبي ﷺ أن أخذه وغطَّه، يعني: ضمَّه وضغطه وهزَّه، حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، وقال له: «اقرأ»: فقال له النبي ﷺ : «ما أنا بقارئ». أي: أنني لا أحسن القراءة؛ فأنا أميٌّ لا أقرأ ولا أكتب.

وقد جاء في بعض الروايات الضعيفة- وهي من المراسيل- أن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ بديباجة فيها هذه السورة، فكان يقول له: «اقرأ ما هو مكتوب»[1].

ولا يلزم هذا التقدير، بل إن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «اقرأ» كان المفترض أن يكون مع النبي ﷺ شيء يقرأ منه، أو يكون في صدره ما يقرؤه؛ فإن القراءة تطلق على ما يُقرأ من الورق، أو ما يقرأه الإنسان من صدره، فلو قلت لرجل: اقرأ. فقرأ من حفظه، لكان امتثل.

والله تعالى أمر المؤمنين بقراءة القرآن، فقال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠]، وإنما سُمي قرآنًا؛ لأنه يُقرأ.

فجبريل عليه السلام كان يريد من النبي ﷺ أن يقرأ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: أنا لا أحسن القراءة؛ لأنه أمي، كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٩)، و«إتحاف المهرة» (٣/ ٢٩٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٠١).

فهذا معنى قوله: «ما أنا بقارئ»، مع أن البعض قد يظنها تأبيًا من النبي ﷺ، وكأنه يقول: لا، لن أقرأ. وليس هذا المعنى، إنما معنى قوله: «ما أنا بقارئ»، أي: لا أحسن القراءة، إنما أنا أميٌّ، ولم يسبق لي تعليم.

وفي الغَطِّ والضغط إشارة إلى أن مرحلة التعبد الناعمة التي تخلو بها بربك وتناجيه وتدعوه وتسأله دون تحمل مسؤولية تقلق مضجعك وتثقل ظهرك قد انتهت، وجاءت مرحلة أخرى جديدة تتحمل فيها ثقل الدعوة، وبلاغ الرسالة، وما يترتب على ذلك؛ ولذلك كانت هذه هي البداية، ثم جاءت بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١-٢]، والأمر بالقيام فيه أمر بالنهوض والإنذار والبيان، ثم جاءت الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١-٢]، فعرف النبي ﷺ أنه دخل مرحلة جديدة وعهدًا فيه المشقة والتعب والعناء، ولكن في ذات الله عز وجل.

وفي قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ» أنه كان خلوًّا من الترقب والتطلع والانتظار، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن في الجاهلية يترقب الرسالة ولا ينتظرها، خلافًا لما كان عليه كثير من الحنفاء وأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت؛ فإنه كان ينتظر الرسالة، فلما كانت إلى النبي ﷺ حسده، وكفر، مع أنه مؤمن في قرارة نفسه؛ ولذلك لما قُرئ شعره على النبي ﷺ قال: «آمن شعره، وكفر قلبه»[1].

فالنبي ﷺ لم يكن يترقب شيئًا من ذلك؛ ولذلك قال الله عز وجل له: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا

(١) ينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (١٩٧٣)، و«التمهيد» (٤/ ٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٥٠)، و«تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٣)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٩٢)، و«فتح الباري» (٧/ ١٥٤).

﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢].

* ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]:

لم يحدِّد المقروء، إما للعلم به، وهو القرآن، أي: اقرأ القرآن، أو اقرأ القدر الذي أعلِّمك إياه الآن.

أو المقصود: اقرأ كل ما يُحتاج إليه من علم نافع، فيكون أمرًا لأمته من بعده، ودعوة إلى طلب العلم النافع في أمر الدين أو الدنيا، فتكون الآية دليلًا على إيجاب طلب العلم المحتاج إليه، فمنه ما يجب على الأعيان، ومنه ما يجب على الكفاية، كما في حديث: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[١].

نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو من أمة أمِّية[٢] يغلب عليها الجهل، وما كانوا يعرفون القراءة إلا نادرًا، كانت تُعرَف في اليمن والشام والعراق، أما عرب مكة والجزيرة فما كانوا يعرفون الكتابة، وكانوا يرونها من خصائص اليهود والنصارى؛ لأنهم أهلُ كِتاب، وفي الشَّاهد النحوي:

كما خُطَّ الكتابُ بكفِّ يومًا يهوديٍّ يقاربُ أو يزيدُ[٣]

وربما وُجد في البلد كاتب واحد؛ فالناس يأتون إليه إذا كان عندهم ما يحتاجون إلى كتابته، أو قراءته.

وكانوا على ضلال مبين من عبادة الأوثان، فقد كان الواحد منهم إذا نزل في

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبزار (٩٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٥٤٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥). وينظر: «العلل المتناهية» (١/ ٥٤-٦٦)، و«جزء فيه طرق حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم» للسيوطي.

(٢) كما أخبر بذلك ﷺ: أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص ٢١٥)، و«عيار الشعر» (ص ٧١)، و«الموشح» (ص ٢٩٠) منسوبًا إلى أبي حية النميري.

مكان بحث عن أربعة أثافٍ، وجعل منها ثلاثة لِقَدْرِه، والرابع يجعله صنمًا يعبده، وإذا لم يجد أحجارًا يحثو بشيء من التراب يجمعه، ثم يحلب عليه الشاة -كما قال أبو رجاء العُطاردي- ثم يعبده[1]. وأما الكعبة فقد كان فيها ثلاثمائة وستون صنمًا.

أما الطب والصناعة والزراعة، فقد كانوا فيها على الفطرة والمعلومات الأولية، وأما التجارة فكانت محدودة.

كانت الجزيرة معزولة بصحرائها، ممتنعة عن أن تفرض عليها سلطة عالمية، مما جعلها معزولة عن التقدُّم والرقي والحضارة التي كانت عند غيرها، ولذلك تجد عجبًا أن يكون أول خطاب للرسول ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن أول واجب على المكلَّف هو العلم؛ لهذه الآية، لأنها أول ما خاطب الله بها رسولَه صلى الله عليه وآله سلم»[2].

والناظر إلى أحوال الأمة العربية والإسلامية في عهد النبوة وما بعده يلحظ أنها حصَّلت علومًا كثيرة، بل استطاعت أن تتفوق بها على الأمم الأخرى، ثم تصلحها إصلاحًا شرعيًّا وتنشرُها بين الناس، ثم حصل التراجع المحزن للأمة، حتى آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تدعو إلى العلم والتفكير، حتى في مصالح الحياة الدنيا، فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ [الأنعام:١٤١]، آيات تتحدَّث عن الزراعة والنبات، ومراحل تكوينه وأطواره، تلقتها الأمة من ربها، وليس من شيء يتعاطونه، بل بوحي القرآن الذي يعظمونه، وعلى ضوئه يتوقع أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٧).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٢/ ٢٣٤)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ١١٦).

تكون الأمة خطت خُطوات كبيرة في العلم بحرث الأرض والزرع وألوانه وأنواعه وتكوينه وتنميته، وبناء الأرض واستعمارها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، مما يثير الاستغراب لهذا التخلف والتأخر العظيم عند المسلمين، وغالب بلادهم زراعية!

ومن السنة: الحديث الصحيح: «**ما أنزلَ اللهُ من داء إلَّا وأنزلَ له دواءً، علمهُ مَن علمَهُ، وجهلَهُ مَن جهلَهُ**»[1].

وهنا سَمَّى رسول الله ﷺ العلم بالأدوية علمًا، وسَمَّى عدم المعرفة به جهلًا، كما لقَّنه ﷺ لأمته، أنه ليس هناك داء أو مرض إلا وله دواء ، إلا الموت، وهذا مما يدفع الأمة للبحث والنظر والتجربة والتعليم، فهو كقول مَن يقول لك: إن الحل موجود فابحث عنه. ومن ثَمَّ يصبح لدى الإنسان دافع للبحث؛ ليُصاب دواء الداء، فيبرأ بإذن الله تبارك وتعالى، ولكن الأمةَ عِيالٌ على أمم الشرق والغرب في الطب منذ قديم، حتى قال الشافعي: «ذاك علم غلبنا عليه أهل الكتاب»[2]!

ومع أن الله سبحانه وتعالى جعل أصولًا تنطلق الأمة منها إلى المعرفة والتعليم والاشتقاق والوصول، إلا أن الانقطاع عن ميراث النبوة، وعن الالتزام بهدي الله سبحانه وتعالى، والانشغال بأشياء بالَغْنا فيها، وأعطيناها أكثر مما ينبغي أخَّر المسيرة، وما وُجد سرفٌ إلا ومعه حقٌّ مضيَّعٌ.

إن العبادة بدون علم ضلالٌ، والدعوةَ بدون علم دعوةٌ إلى جهل، والجهاد بدون

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٢٢، ٤٢٦٧)، وابن ماجه (٣٤٣٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.
وأخرج البخاري (٥٦٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ نحوه مختصرًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٠، ٢٨٧٣).

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٣٣٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٧)، و«طبقات الشافعيين» (ص ٣٢).

علم انتهاكٌ لحرمات وتطويحٌ بالعدل والإحسان، وهكذا كل الأعمال المشروعة، إذا لم تكن مستنيرة بنور العلم والبصيرة، فإنها لا تعطي نتيجتها وثمرتها، ولذلك يقول الشاعر:

يا طالبي علـمَ النبيِّ محمدٍ ما أنتم وسـواكـم بسـواءِ

فمدادُ ما تجري به أقلامُكم أعلى وأغلى من دمِ الشهداءِ

البداءة بالعلم بداءة منطقية وضرورية؛ لأن كل المطالب: من عبادة ومخالطة ودعوة وجهاد ومصالح دنيوية، كالتجارات وعلاقات الزواج، مفتَقِرة إلى العلم في ثمرتها الأخروية، وفي حصيلتها العاجلة.

تشير الآية إلى الترابط المطلوب بين العلم والدين، وإذا انفصل العلم عن الدين، فإنه ينذِر بوجود كارثة كبيرة : كما في قضية الاستنساخ والخلايا الجذعية والتعديل الوراثي والجيني للإنسان والحيوان والنبات، والذي يوشك أن ينفلت دون رقابة أو مسؤولية، فيكون عبثًا بالفطرة الإنسانية.

ومثله سباق الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والجرثومية، والتي من الممكن أن تدمِّر البشر على وجه الأرض.

إن العلم الذي حضنه الإسلام، وتربى في المجتمع الإسلامي، كان له أثره على البشرية في تقدمها ورقيها وقربها من الله تعالى، وفي المحافظة على القيم والأخلاق والمبادئ، وحتى الذين لم يستنيروا بنور الإسلام استفادوا من هذه العلوم في تسهيل أمور دنياهم.

فربط القراءة باسم الله تأكيد على أن المعرفة منحة من الله للإنسان، وليست ظفرًا إنسانيًّا ينتهبه الناس من الآلة كما تزعم الأساطير اليونانية، وهو دعوة إلى تكريس المبدأ الأخلاقي للعلم والذي غايته نفع البشرية وخدمتها وليس تدميرها.

لقد بُدئت السورة بالأمر بالقراءة، وخُتمت السورة بالأمر بالسجود: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩]، وتوسطت بذكر الصلاة: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠]؛ وذلك أن أعظم أقوال الصلاة ذكر الله تعالى وقراءة القرآن، وهو ما بُدئ بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأعظم أفعالها هو السجود، وهو ما خُتمت به السورة.

والعبد يبدأ صلاته قائمًا، ثم يركع، ثم يسجد، ثم يقعد، ثم يسجد، فكان السجود هو آخر ما يُراد في الصلاة، وهو أكمل ما يكون من العبودية لله سبحانه وتعالى؛ حيث يعفر الإنسان جبهته ووجهه لله عز وجل؛ ولذلك قال ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[1].

كرر لفظ: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ في السورة مرتين: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١]، الثانية: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]. والتكرار للتوكيد، وترسيخ المعلومة، والأمر الأول بطلب الامتثال، والأمر الثاني لتوكيد حصول العلم بالقراءة، وأن هذا فضل من الله الأكرم، فمَن قرأ عرف!

وهو دعوة للمداومة وعدم الانقطاع، والمحاولة وعدم اليأس، والقراءة الأولى للتعلم والفقه، والثانية للتعليم والدعوة ونفع الناس.

وتكررت كلمة ﴿ رَبِّكَ ﴾ ثلاث مرات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١]، الثانية: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]، الثالثة: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]. وكلها تأكيد للُّطف والرحمة وأنها بداية الرسالة، ولذا كان النبي ﷺ رحمة للعالمين.

أما كلمة: ﴿ خَلَقَ ﴾ فإنها مكررة مرتين: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق:١-٢]؛ فالخلق الأول خلق مطلق يشمل خلق السماوات والأرض والملائكة

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجن والإنس والدنيا والآخرة، وما نعلم وما لا نعلم، والثاني خاص بخلق الإنسان.

وكلمة: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تكررت ثلاث مرات: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢]، الثانية: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥]، الثالثة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق:٦].

فالأولى لذكر الخلق والفطر، والثانية للتعليم وقابلية المعرفة لدى الإنسان، والثالثة للتحذير من الطغيان بالعلم، وبيان أن العلم إذا انفصل عن القيم والأخلاق والفضائل صار طغيانًا.

أما كلمة: ﴿عَلَّمَ﴾ فقد كررت مرتين: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٤-٥].

وهذا يسمى عند أهل القراءات بالترديد، وهو وجود كلمة تتكرر في القرآن مرتين متجاورتين بلفظها، وكثير من الناس لجمال القرآن وبلاغته وإعجازه لا يفطنون لهذا إلا إذا نُبِّهوا عليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٥-٦]، وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة:١٠٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٦-٧]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه لفظ الجلالة مرتين متجاورتين.

والتكرار يدخل في باب التثنية أو المثاني؛ فإن الله تعالى وصف القرآن بأنه مثاني فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣].

والتثنية ليس المقصود بها أن يكون العدد اثنين، بل هي بداية العدد مطلقًا، أي: تكرار العدد، كما في قوله عز وجل: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣-٤]، فليس المقصود هنا مرتين فقط، وإنما المعنى: كرِّر النظر إلى السماء، وتأمَّل النظر في ملكوت الله تعالى مرة بعد مرة حتى تعتبر وتؤمن.

وفي هذا إشارة إلى ثنائية الخلق ووحدانية الخالق تعالى، والله تعالى يأمر وينهى، والإنسان عبد مربوب مأمور مطيع.

والله سبحانه كريم ذو فضل عظيم وعطاء جزيل، وكل خير فمنه وإليه، والإنسان فقير بطبعه، منتظر متطلع إلى عطاء الله تبارك وتعالى وتعليمه.

ويدل على ذلك قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ فإنه اختار من أسماء الله تعالى لفظ «الرب» الدال على الملكية والخلق والتدبير، كما يقال: رب الأسرة، أو رب المنزل، أو رب الإبل، أي: مدبِّرها ومتولِّي شؤونها ومصرِّف أمورها، فالله سبحانه وتعالى هو الرب المدبِّر، وقد ناسب اختيار هذا المعنى باعتبارين:

١- الإشارة للنبي ﷺ ولكل مخاطب إلى أن الطريق طويل وشاق، وفيه عناء وأشواك، والاستعانة بالله عز وجل تذلل الصعاب، يقول كثير من العلماء: إن الباء في قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة، يعني: اقرأ مستعينًا بالله تعالى، كما أنك حينما تعاني أمرًا من الأمور تقول: بسم الله. يعني: أستعين بالله على هذا العمل، وقال عز وجل في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وفيه إشارة إلى أن العبد لا يستطيع أن يقوم بالتبعات: العلم والدعوة ومسؤوليات الحياة إلا بالاستعانة بالله؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

٢- أن كلمة «الرب» تشير إلى القرب والعناية والمعية والرأفة.

و«الرب» هو الاسم المناسب للمقام؛ لأن النبي ﷺ كان مرعوبًا من هذا المَلَك

الذي فاجأه وهو في الغار، وقد طرق سمعه لأول مرة ناموسٌ يقول له: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، وهذا تكليف وإشعار بأن النبي ﷺ ابتدأ الآن حياة جديدة مبنية على التعبد، والانقياد والأمر والنهي.. فالأمر كان كبيرًا؛ ولذلك فزع النبي ﷺ؛ فلما قال: ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ كان هذا مشعرًا باللُّطف، وأنه هو الذي ربَّاك وتعهدك، وحَمَاك في الجاهلية مما كان يفعله أهل الجاهلية، وحفِظَك وتولَّاك، وأعانك حتى كنتَ تتعبَّد في مثل هذه الأوقات، فضلًا عن الإشعار بالحفظ في المستقبل.

فهو ربك الذي سيتعاهدك ويحميك في إقامتك وسفرك، وحِلِّك وظعنك، وحربك وسِلْمك، وليلك ونهارك، فهي تذكير بالماضي، وتطمين للمستقبل.

لقد كان ورقة يقول للنبي ﷺ: «**لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إِلَّا عودي**»؛ لأنه يدري بعلمه بالكتاب والنبوات السابقة أن مهمة الرسول ﷺ تغييرية؛ وإنه جاء ليغير عقول الناس وسلوكهم وأخلاقهم وعقائدهم وعباداتهم، وأن هذه المهمة الشاقة لا تتم إلا بالاستعانة بالله، فهو محتاج إلى التزود الدائم من العلم، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالله، ومحتاج إلى بذل هذا العلم للناس، وهذا لا يكون إلا بالاستعانة بالله، والرب هو الذي يمدك بعطاءات ربوبيته، ويمنحك فيوض معرفته كلما ازددت من القراءة طلبًا للعلم النافع، وهو الذي يفتح لك من الأبواب والمسالك لاكتساب المعارف مما يجر إليه تسلسل الفكر، وترابط الذهن ما لا يمكن أن تجده إلا بعونه.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أمر بالقراءة، ثم أشار إلى الخلق، فربك هو الخالق المعبود، كما قال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهنا يظهر زيف الأصنام، ويتجلَّى الإقرار المطلق بالوحدانية التامة لله تعالى؛ لأنه ما من أحد ادَّعى الخلق مع الله سبحانه وتعالى.

* ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق:٢]:

فيه إشادة بالإنسان، فبعد أن ذكر المخلوقات كلها كرَّمه وخصَّصه، وأي تكريم أعظم من أن يختار الله تعالى من جنس الإنسان نبيًّا يوحي إليه، كما قال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وهذا من الاحتفاء والتكريم، نقيض ما كان المشركون يقولون: كيف يكون نبيًّا وهو بشر؟

وثَمَّ معنى آخر، وهو أن كون الإنسان محلًّا للابتلاء، هو في حقيقته تكريم؛ لأن الحيوانات والطيور والجمادات ليست مخاطبة، أما الإنسان فقد كرمه الله تعالى واصطفاه، وخاطبه وكلَّفه وميَّزه بالعقل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾: قد يكون العلق اسم جمع لعلقة، ولم يقل سبحانه: (خلق الإنسان من علقة)؛ لأن المقصود بالإنسان الجنس وليس الفرد، كما في قوله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر:١-٢]، يعني: خلق الناس، وهنا ناسب أن يكون خلق الناس من علق، وقد يأتي التعبير في القرآن أحيانًا بصيغة المفرد، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [الحج:٥].

والفرق أن سياق «سورة العلق» خبر عن جنس الإنسان، أما «سورة الحج» فهي خطاب مباشر، والخطاب يتجه عادة للفرد ويحسِّن حفز كل مستمع أن يشعر أنه المقصود دون سواه، ولذا عبَّر بلفظ الفرد، والله أعلم.

و«العلقة» مرحلة من تكوين الجنين، والإنسان يُخلَقُ من الحيوان المنوي، وهو من الأحياء الدقيقة التي لا يمكن مشاهدتها إلا بمكبرات ضخمة، وعندما يلقح

البويضة يبدأ وجود الإنسان، وقد تكون العلقة هي هذا الحيوان المنوي، والأقرب من سياقات القرآن أن المقصود بالعلقة مرحلة متقدِّمة، لأن الإنسان لم يُخلق من الحيوان المنوي للذكر فقط، وإنما مع بُويضة المرأة، فالأنسب أن تكون العلقة بعد التلقيح، ولهذا قال: ﴿ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾، والنطفة ماء الرجل، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج:٥] وهي تشبه العلقة الموجودة في الماء حيث تعلق في رحم المرأة.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾: فيه إشارة إلى الفرق بين الإنسان وبين العلق، بين هذه المادة التي تخلق منها ومر بمرحلتها وبين كونه إنسانًا قد كرمه ربه وسواه وعدله، ورزقه العقل، وفرض عليه التكليف، فثَمَّ نقلة بعيدة بين هذا وذاك، وسرعان ما يسرح الخيال مقارنًا بين علقة لا ترى إلا بالمجهر وبين إنسان سوي قائم عاقل قارئ مكرم، ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾. ثم رد بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٨-٣٩]، فهم يعرفون مِمَّ خُلِقوا؟ كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦]، وكأن المعنى أن المادة التي خُلِقْتَ منها لا تؤهِّلُكَ للمطالب العالية بمجردها إذا لم تستخدم الوظائف التي أَقْدرك عليها الله سبحانه.

* ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣]:

﴿ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ هنا ليست صفة مبالغة بقياس الله تعالى لأحد من خلقه، فالله تعالى له من الكرم والجود والفضل ما لا يقاس به أحد؛ لأن كرمَ المخلوقين كلَّه في بعض ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكَرَمُه في خلقه للعباد، ومنحهم العقول والأفهام، ووضع هذا الكون الفسيح الممتد المحكم المنضبط وتمكينهم من قراءة نواميسه وتسخيره لهم، ثم بإنزال الرسالة إليهم، ولم يكِلْهم إلى أنفسهم.

* ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٤-٥]:

فيه إشارة إلى أن العلم من أعظم الكرم الرباني، والكرم يشمل الحياة والصحة والعافية، والجوارح والسمع والبصر، والعقل واللسان، وكل الفضائل والنعم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، ولكنه نص هنا على نوع خاص من الكرم وهو التعليم بالقلم.

والله تعالى هو المعلِّم، ولم يبين من هو المعلَّم، فدخل في ذلك الإنسان والملائكة، وكل ما يصلح للخطاب.

وفي الآية لفتة إلى أن النبي ﷺ لم يكن كاتبًا، وأنه لا يزال أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فلم تُشر الآية إلى تعليم النبي ﷺ نفسه بالقلم، وفيه إلماح إلى عدم زوال الأمية عن النبي ﷺ، فهي بالنسبة له كمال، في حين أنها بالنسبة لغيره نقص، ولهذا يقول القائل:

إن أميةَ الرسولِ قضَاها الـ ـله عن حكمـةٍ لها بينـاتُ

كلُّ أميةٍ سواها يسيـحُ الـ ـجهلُ فيها وتسبحُ الظلماتُ

ففي أميته الدلالة على مصدر تعليمه، وهو الوحي، ومع أميته فهو سيد العلماء، وإمام الفقهاء ودليل العارفين، وقائد الدعاة، وهو الذي قال: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَهُ منه**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٥٠، ١٦٧٣٨، ١٦٧٥٤)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠، ٢٣١)، والحاكم (١/ ٨٦-٨٨) عن جماعة من الصحابة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

وفيها إشادة بالقلم، حتى في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، فإن جميع وسائل الحفظ لا تخرج عن مفهوم القلم والكتابة، ويظل القلم هو سيد الأدوات والآلات ويظل للكتاب مقامه ومكانته، ولا تجد بيتًا إلا وفيه مكتبة، وثقة الناس بالكتاب لا زالت أكثر من ثقتهم بأي وسيلة إعلامية أخرى.

وقد ذُكر القلم في مواضع، منها هذا الموضع، ومنها: قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤].

وإذا كانت ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي أول الأوامر، فإن القلم هو أول المخلوقات، كما في «سنن أبي داود»: «**أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القلم أول المخلوقات، وذهب آخرون إلى أن العرش قبله.

ومعنى الحديث السابق: أن الله أول ما خلق القلم قال له ذلك، وليس المعنى أن القلم هو أول مخلوق.

والراجح: أن العرش متقدِّم على القلم، وأن القلم خُلق بعده، ولهذا معناه ودلالته[2].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، وأحمد (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٤٦)، (٢٣/ ١٤٠-١٤٧)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢١)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٧٥)، (١٨/ ٢١٣)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص٢٦٥).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الأقلام اثنا عشر، منها قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، ومنها قلم الوحي الذي يُكتب به الوحي الذي ينزله الله تعالى على أنبيائه ورسله، وقد وصل النبي ﷺ يوم الإسراء والمعراج إلى مستوًى يسمع فيه صريف الأقلام، ومنها قلم التوقيع عن الله عز وجل، وهو قلم المفتين والفقهاء الذين يبيِّنون للناس شريعة الله، ومنها قلم الطب، أي: طب الأبدان الذي يحفظ صحة الإنسان ويدفع عنه المرض، ومنها قلم الملوك والساسة والمدبِّرين في الأوامر والنواهي والقوانين، وقلم الحساب، وقلم الحكم والقضاء، وقلم الشهادة، وقلم التعبير، يعني: تعبير الرؤيا، وقلم التاريخ وتدوين الحوادث، وقلم اللغة وكتابة المعاني، والقلم الجامع لرد الشبهات والأباطيل[1].

يقول أبو تمَّام في وصف القلم:

لَكَ القلمُ الأعلى الذي بشَبَاتِهِ
تصابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُه
وأَرْيُ الجَنَى اشتَارته أيدٍ عواسلُ

فصيحٌ إذا استنطقْتَه وهو راكبٌ
وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجلُ

أطاعتْه أطرافُ القَنا وتقوَّضتْ
لنجواهُ تقويضَ الخيامِ الجحافلُ

وقد رَفَدَته الخِنصَران وشدَّدت
ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأناملُ

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٠٦- ٢١٢).

لــه ريــقــةٌ طــلٌّ ولــكــنَّ وقـعَـهـا
بآثـارِه في الشرقِ والغـربِ وابلُ

له الخَـلَـواتُ الـلَّاءِ لــولا نـجـيُّـهـا
لما احتفلـتْ للمُلكِ تلك المحافلُ

إذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ وأفرغتْ
عليه شعـابُ الفكرِ وهْي حوافلُ

إذا استغزرَ الذهـنَ الذكـيَّ وأقبـلـتْ
أعاليـه في القرطاسِ وهْي أسافلُ

رأيــتَ جليلًا شــأنُـه وهْـو مـرهـفٌ
ضنًى وسمينًا خطبُه وهْو ناحلُ[1]

إن أُميَّةَ الرسول ﷺ هي أمر خاص به من باب الإعجاز: حتى لا يظن أحد أنه تلقن ذلك من بشر أو تعلَّمه من كتاب، كما قال تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، ولذلك ظل ﷺ أميًّا حتى مات، على القول الصحيح من أقوال أهل العلم، ولم يكن يقرأ ولا يكتب.

وأما ما ورد في صلح الحُدَيْبِيَة من أن النبي ﷺ كتب «محمد» بدل «رسول الله» كما في بعض الألفاظ في «صحيح البخاري»، فقيل: إن المعنى: أنه أمر مَن يكتب، وقال بعضهم: إنه لا مانع أن يكون الرسول ﷺ تعلَّم هذه الكلمة فقط؛ لأنها اسمه الكريم، ومن السهل على كثير من الناس حتى لو كانوا أميين أن يعرف الواحد منهم كيف يرسم اسمه دون أن يكون قادرًا على الخط والكتابة، وهذا ما ذكره الذهبي وغيره.

---

(١) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص ١٣٨-١٣٩).

وقد تحمل الإمام الباجي عناءً كبيرًا حينما تبنى القول بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكتب وقال به، ورد عليه كثير من الناس، وشنعوا عليه، وبالغوا في ذلك، كما هي عادة الأقران بعضهم مع بعض[1].

فالإشارة إلى القراءة بالأمر الإلهي ثم إلى الكتابة بذكر القلم هي دعوة لهذه الأمة أن يقرؤوا ويتعلَّموا، ويفتحوا كنوز العلم، ويتخلَّصوا من أميتهم، ويبدأوا مسيرتهم العلمية المترقية في كل مجالات العلوم، فليست هذه فضيلة لأحد بعد الرسول ﷺ، فالأمة مأمورة بالقراءة والكتابة والتعلم والتعقل والتفكير.

وفي ذكر الكرم الإلهي وعد لطالب العلم إذا صدق وبدأ عمله باسم الله تعالى، مستعينًا به، صادقًا في نيته، مفوِّضًا إليه، باذلًا للأسباب؛ أن يعينه الله ويساعده، ويذلل له العقبات؛ ولهذا قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٥]، يعني: علم الإنسان الأشياء التي لم يكن يعلمها من قبل، ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ﴾ [النساء:١١٣]، فهو علم نبيه من الوحي ما لم يكن يعلم، وعلم الإنسان - جنس الإنسان- ما لم يكن يعلم.

* ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق:٦]:

وهذا أول موضع ترد فيه كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ من حيث النزول، وقد وردت كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعًا، منها ثلاثة مواضع في هذه

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٥١)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٤٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٥٢)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٢٢٠)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠٣)، (٨/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١٠).

السورة، وغالبًا في القرآن المكي؛ لأن كلمة ﴿ كَلَّآ ﴾ فيها معنى الزجر والتوبيخ والتهديد والوعيد، وهذا مناسب لعناد الكفار وتكذيبهم وإيذائهم لرسول الله ﷺ.

وإلى هذا المعنى ذهب فقهاء البصرة، وسيبويه والخليل المُبَرِّد والزَّجَّاج وجماعة[1].

وذهب آخرون إلى أن ﴿ كَلَّآ ﴾ تأتي بمعنى «حقًّا»، وقد تكون حرف جواب، بمعنى: «إي» أو «نعم»، وقد تكون حرف استفتاح، بمعنى: «ألَا»[2].

وهذه الآيات الكريمة المبدوءة بـ﴿ كَلَّآ ﴾ متراخية في النزول عن أول السورة؛ فإن الآيات الخمس الأولى هي أول ما نزل في غار حراء، ثم جاءت فترة الوحي، فتأخر الوحي عن النبي ﷺ مدة اختلف المفسرون وأهل السيرة في تحديدها، قال بعضهم: سنتين، وهذا مستبعد؛ فإن النبي ﷺ كان يتطلع إلى الوحي، وخلال هذه الفترة جدَّت أحكام أخرى، فيحتمل أنه نزل وحي آخر غير القرآن والله أعلم[3].

واستفتح السياق الجديد بـ﴿ كَلَّآ ﴾؛ لأن الحديث انتقل إلى المكذِّبين المعارضين، فناسب أن يبدأه بالزجر والتعنيف والتهديد.

لقد سبق ذكر خلق الإنسان من علق، وهنا يظهر التناسب اللطيف بين الموضعين، بين إنسان مخلوق من ماء مهين، ثم من نطفة، ثم من علقة، وبين هذا الإنسان المكتمل النمو؛ فهو يزهو بنفسه ويطغى بما أوتي من غنى ومال وولد وقوة وجاه.

---

(١) ينظر: «مغني اللبيب» (ص ٢٤٩)، و«اللامات» للزجاجي (ص٣٦)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٤٦).

(٢) ينظر: «مغني اللبيب» (ص٢٥٠)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا يحتمل مقصودين:

١- عموم الناس.

٢- شخص معين، وهو أبو جهل؛ وقد جاء في الحديث الصحيح، أن أبا جهل لما رأى النبي ﷺ يركع ويسجد ويعفِّر وجهه، قال: واللات والعُزَّى، لئن رأيته يفعل ذلك، لأَطَأَنَّ على رقبته، أو لأُعَفِّرَنَّ وجهَهُ في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، زَعَمَ ليَطأ على رقبته. قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو ينكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتَّقِي بيديه. فقيل له: مَا لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا وأجنحةً[1]. فتراجع ولم يتعرَّض للنبي ﷺ.

ونلاحظ أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي جهل نصًّا في الآية، مع أنه «فرعون هذه الأمة»، وقد سبق في علم الله أنه يموت يوم يموت كافرًا، ومع ذلك لم يسمه ربنا؛ لنتعلَّم من هذا الأدب أنه ينبغي على الإنسان أن يحرص على عفة اللفظ والقول، وألَّا يسمِّي إلا إذا كان ثمَّة حاجة إلى التسمية؛ لأن أولئك الناس هم محل دعوة، وقد يؤمنون وقد يسلمون، وقد يستقيمون، فأبقِ لهم فرصة، وابن لهم جسرًا يعبرون به إلى الخير، ولا تحاول أن تحاصرهم بأخطاء أو بأسماء، أو بأغلاط، وكأنك لا تريد أن يخرجوا من أخطائهم، أو كأنك ترى أن الخير والإسلام خصوصية وملكية شخصية لك، فكلما كثر الناس عليها قل نصيبك منها، وكأنك تقول: ماذا بقي لي إذا كان كل الناس أخيارًا وصلحاء ومستقيمين، وطلبة علم، ودعاة؟! وهل المطلوب أنك تتميز؟

يحسن أن نتعلم من القرآن الكريم أن نوصل الرسالة بدون أن نجعل فلانًا وفلانًا وسيلة إيضاح، ومن سب الناس سبوه، وكما قال الشافعي:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومَن هاب الرجالَ تهيَّبوه ومَن حَقَرَ الرجالَ فلن يُهَابا[1]

ولو مت وأنت لم تلعن فرعون ولا أبا جهل، فلن يحاسبك الله على ذلك يوم القيامة، فكيف بأخيك المسلم؟ فلماذا لا تعود لسانك العفة في اللفظ؟! وتصريف القول في معالي الأمور: في بناء النفس، وفي العلم، والعمل، والإخلاص، ومصالح الدنيا، وبناء الخير، وصناعة الحياة.

وهنا عبر بـ «يطغى»، وفي «سورة طه» كان الحديث عن فرعون، فعبر بلفظ: ﴿ طَغَىٰ ﴾، والتعبير هنا أشد من التعبير عن فرعون موسى؛ والسبب -والله أعلم- أن الآية نزلت وأبو جهل حيٌّ يرزَق، يمارسُ طغيانَه ويفعلُه، فهي تتكلم عن أمر يقع الآن ويقع في المستقبل، وليس عن أمر مضى، وإن كان قوله: ﴿ اَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٢٤] خطاب لموسى ، لكنه نزل في القرآن الكريم حكايةً عمّا كان.

ولا يبعد أن يقال: إن طغيان أبي جهل أشدُّ من طغيان فرعون، لأنه حتى قبل النبوة ما كان يعرف عن أبي جهل حسن المعاملة مع النبي ﷺ، بخلاف فرعون موسى الذي تربَّى في قصره: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ [الشعراء:١٨]، ثم لما أدركه الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس:٩٠]، بخلاف أبي جهل فرعون هذه الأمة لما ضُرب في معركة بدر وخَرَّ صريعًا ولم يمت كان يقول: لَمن الدائرة اليوم؟ ولما رقي ابن مسعود على صدره قال: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيعِيَ الغنم[2]. فكانت بدايته ونهايته الطغيان، ولا يبعد أن يكون في قلب أبي جهل

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٨٩-٩٠)، و«سيرة ابن هشام» (٣/ ١٤٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥٩٧٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٨٥-٨٦)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٣٧، ١٥٩).

من العتوِّ والتمرُّدِ والطُّغيان أشدَّ مما في قلب فرعون.

* ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٧]:

يعني: أن رأى نفسه؛ فالغنى في حد ذاته ليس المشكلة، وإنما المشكلة هي رؤية الإنسان ذاته مستغنيًا مغرورًا.

وهنا نلاحظ الفرق اللطيف بين قوله هنا: ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ وبين قوله في «سورة الليل»: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾، لم يقل: (ورآه استغنى)، لأنه هنا يبيِّن سبب الطغيان، وسبب الطغيان ليس هو الغنى، وإنما هو شعور الإنسان بالاستغناء عن الله سبحانه وتعالى، وفي الآية دلالات نفسية عميقة، فالإنسان إذا تُرِك وشأنه كبرت عليه نفسه.

والإنسان إذا شعر بالاستغناء في العلم حمله ذلك على الطغيان والكِبر والعُجْب، كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، وكذلك الاستغناء بالعلم على مستوى الأمم؛ فالغرب لديهم حضارة وعلم، ولكن شعورهم بالاستغناء، وافتقادهم للقيم الإيمانية الربانية أوجد عندهم طغيانًا ونسيانًا لحق الله.

والطغيان يمنع الإنسان من قبول الحق، ولذلك من فضل الله تعالى على العبد أن يرزقه التواضع، وكثرة مراقبة النفس، وبقدر ما تراقب الآخرين راقب نفسَك ولاحظْها، وتعاهدها، وانتبه إلى أنه تعالى قد يسخِّرُ لك حتى من خصومِك وأعدائك مَن يعينك على نفسك؛ حتى لا تكبُر نفسُك وتؤذيك.

والذي تعوَّد أن لا يسمع إلا المدح، تطرُب أذنُه للمديح، ويستلذُّ به، فإذا سمع صوتًا ينتقد، أو يصحِّح، أو يستدرك، أو يقتصد في الثناء؛ أصبح نشازًا في أذنه، وقد يكره صاحبه أو يظنه متحاملًا، ولو أن أحدنا سمع النقد والذم والتوجيه والملاحظة لمدة عشر سنوات بلا انقطاع، ثم توقف عنه ذلك أسبوعًا لا يسمع فيه إلا الثناء والمدح، فإن طبعَه يفسد أثناء الأسبوع، حتى لو جاءه في اليوم الثامن مَن ينتقده، لما

وجد الأريحيَّة والتقبل الذي كان يجده من قبل.

فمن رحمة الله وحكمته أن يقع للبشر نوع اختلاف، وعلى الإنسان دائمًا أن لا ينظر للأمور نظرة محدودة، فلله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون، وهذا يعوِّد الإنسان أن لا يرى نفسه ولا يستغني بعلم أو مال أو سلطان، أو خبرة، أو جاه، ولذلك كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «مَنهومان لا يشبَعان: صاحبُ العلمِ وصاحبُ الدُّنيا، ولا يَستويان، أمَّا صاحِبُ العلمِ، فيزدادُ رضًا للرحمنِ، وأمَّا صاحبُ الدُّنيا، فيتَمادى في الطُّغيانِ»[1].

وفي القرآن الكريم ذم الأَثَرة أو الأنانية؛ كقوله تعالى إخبارًا عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨].

وقد علَّم النبي ﷺ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يقول: **«اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»**[2].

حدث مرة في بلاد الأندلس أن أُصيبت بقحط وجَدْب، فجاع الناس وهلكت المواشي، وتواعد الناس للخروج لصلاة الاستسقاء، وأرسل الأمير عبد الرحمن الناصر إلى الفقيه المنذر بن سعيد القاضي يأمره بالخروج، فقال القاضي للرسول: يا ليتَ شعري ما الذي يصنعه الأميرُ يومنا هذا؟ فقال: ما رأيتُهُ قَطُّ أخشعَ منه الآن، قد لبس خشنَ الثياب، وافترَشَ الترابَ، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترفَ

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٤)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٠٠٩)، والآجري في «أخلاق العلماء» (١/ ٦٨)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

بذنوبه، ويقول: هذه ناصيتي بيديكَ، أَتُرَاكَ تُعَذِّبُ هذا الخلقَ لأجلي؟ فقال القاضي: يا غلامُ احمل المِمْطَرَ[1] معك، فقد أَذِنَ الله بسقْيانا؛ إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرض رَحِمَ جَبَّارُ السماء. فاستسقى، وسُقِي الناس[2].

* ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق:٨]:

﴿ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾: الرجوع، وأول مراحل الرجوع: الموت، ثم الدار الآخرة، وفي هذا تذكير لذلك الإنسان الذي «طغى» وكبرت عليه نفسه، فقد ذكَّره أولًا أنه «خُلق من علق»، ثم ذكَّره آخرًا أن «إلى الله الرجعى»، فكأنها تقول: إن الإنسان محصور بين بدايةٍ من علق، ونهاية إلى تراب، ثم رجوع إلى رب الأرباب، فكيف له أن يتمرَّد أو يتكبَّر أو يطغى، فعليه أن يلغي كبرياءه وغروره ويعرف قدر نفسه.

وهي دعوة للإنسان أن يتواضع لربه ويعرف قدره، فالغنى وتملُّكُ المال لا يكون مذمومًا إذا راعى فيه ثلاثة أمور:

١ - أن يكون طلبُ المال من حلال، لا عدوان فيه ولا ظلم.

٢ - أَلَّا ينفقه فيما حرَّم الله.

٣- أَلَّا يَحجزَه عما أوجبه الله عليه فيه، من زكاة وإطعام الفقراء والمساكين والمحاويج ومَن تجب عليه نفقتهم.

* ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠]:

﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ تدل على التعجب من حال هذا الإنسان الذي لم يكتف بالإعراض عن

---

(١) هو ما يُلبس في المطر يُتوقَّى به.

(٢) ينظر: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» (ص٢٥١-٢٥٢)، و«الكامل» لابن الأثير (٧/ ٣٤٧)، و«تاريخ الإسلام» (٢٥/ ٤٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٦٣)، (١٦/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٣٨٠)، و«نفح الطيب» (١/ ٥٧٣).

الصلاة، بل نهى المصلِّين عن الصلاة، والنهي هنا يدل على الزجر والتهديد والوعيد لمَن فعل، وهو أبو جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة، وكان يؤذيه بقبيح الكلام.

و«العبد» هنا هو الرسول ﷺ، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيد العابدين، ومع ذلك فإن الله تعالى أتى بهذا اللفظ ﴿عَبْدًا﴾ نكرة، وفي هذا معان:

١- افترِضْ أن أي إنسان نهى أي عبد، وليكن هذا العبد من ضعفاء الناس أو من أطرافهم، المهم أنه عبد يصلِّي، ويأتي آخر ينهاه عن طاعة الله، فهذا تشنيع لهذه الجريمة، أيًّا كان الشخص الذي وقعت عليه، أو وقعت منه.

٢- وفي ذلك تشريف لمقام النبي ﷺ وثناء عليه بالعبودية، وتعريض بخصمه المتجرِّد من تحقيق هذه الفضيلة.

وهذا شيء مثير للغرابة؛ فهو ينهاه عن الصلاة التي هي عبودية لله تعالى، والله تعالى وصف محمدًا ﷺ بالعبودية في مواطن كثيرة، كما قال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، يقول الفُضيل بن عِياض:

ومـمـا زادني شـرفًـا وتـيـهًا ... وكِدْتُ بأَخْمَصي أطأ الثُّرَيَّا

دخولي تحتَ قولك: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ ... وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا[1]

نسبته ﷺ إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، لما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا[2]، فمقام العبودية هو أشرف المقامات التي

---

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٩)، و«خلاصة الأثر» (١/ ١٦١).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا ﷺ.

٣- وفي ذلك إشارة إلى تناقض ذلك الناهي؛ لأن من شأن العبد أن يصلِّي لمولاه وسيده، فكيف يتجرَّأ على نهيه وتهديده؟ وربما كان من إيحاءاتها أن الناس ليسوا عبيدًا لك يا أبا جهل لتنهاهم كما يفعل السادة مع عبيدهم، بل هم عبيد لله وحده.

٤- وفيها تبشيع الفعل؛ لأن السامع إذا سمع ﴿يَنْهَىٰ﴾ تبادر إلى ذهنه تساؤل: ينهى عن ماذا؟ وقد يتخيَّل قائمة طويلة من المنهيات، ثم يفاجئه السياق بأن النهي ليس عن شيء منها، بل عن الصلاة التي هي سرور النفس وقرة العين ومعراج الروح وسلوة الفؤاد.

وكان النبي ﷺ يأتي إلى الكعبة يصلِّي ويعبد، فأتاه أبو جهل فنهاه، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والاستهانة بقيمة الإنسان، الذي خلقه ربه وعلَّمه ما لم يكن يعلم، واستعبده في الأرض، فتسلط من الطغاة من يمنع هذا الإنسان من أن يؤدِّي شيئًا من العبادة، ولو مجرد الصلاة، وهي سلوك شخصي صرف.

* ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق:١١-١٢]:

الراجح أن المقصود هو النبي ﷺ، وليس أبا جهل[١].

وفي الآية تنزل للخصم أيًّا كان المقصود بذلك، فهي تقول: هب أنه على الهدى، يأمر بالتقوى احتمالًا فلماذا تنهاه؟

والمؤمن مطمئنٌّ قلبه بالإيمان، وعلى بينة من ربه، والنبي ﷺ كذلك، لكن في مقام المخاطبة والدعوة يأتي مثل هذا الأسلوب الذي يستمِيلُ القلوب، ويهز قناعة كثير من الناس.

---

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٩)، و«خلاصة الأثر» (١/ ١٦١).

فمن أساليب الدعوة التنزل في الخطاب على أسلوب: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، ثم قال بعدها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ [سبأ:٢٤-٢٥].

ففيما يتعلق بفعلنا أنتم لا تسألون عما أجرمنا، يعني: فيما تعدونه أنتم جرمًا: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥]، ولم يقل: عما تجرمون، وهذا لم يغير من الحقيقة شيئًا، لكنه جاء بصياغةٍ تستمِيلُ القلوب.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾: قوله: ﴿عَلَىٰ﴾ يدل على التمكن، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥]، يعني: أنهم على هذا الهدى مستقِرُّون متمكِّنون، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام:٥٧].

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أمر غيره، فهذا مقام دعوة وبيان، فلماذا يتم الاعتداء عليه ومصادرة حقه في الدعوة إلى الله، ولهذا قال ﷺ: «**يا ويحَ قريش! قد أكلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائرِ الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادُوا، وإن أظهرَني اللهُ تعالى دَخَلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفْعلُوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظنُّ قريشٌ، فوالله لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهرَني اللهُ عز وجل أو تنفردَ هذه السَّالفةُ**»[1].

* ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق:١٣]:

أي: أبو جهل، وكل مَن يصلح له الخطاب ممن عمل عمله وكان على شاكلته، والضمائر في الآيات وإن كانت غير مرتبة، إلا أن السِّياق لا لبسَ فيه؛ فإن الذي على الهدى أو أمر بالتقوى هو النبي ﷺ، والذي كذَّب وتولَّى هو أبو جهل.

وقوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: كذَّب في نفسه، وتولَّى في حقِّ غيره، كما قال: ﴿وَإِذَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥]، فهو قد كذَّب في نفسه، وتولَّى للصد عن دين الله؛ ليمنع النبي ﷺ من الدعوة، ويحُول بين الناس وبينه.

* ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤]:

وهنا نلاحظ أن الله لم يبادئه بالتهديد بالعقوبة الأخروية وإنما ذكَّره باطلاع الله عليه، وفي هذا رادع لمَن كان له قلب.

كما قيل:

وإذا خلوتَ بـريـبـةٍ في ظـلـمـةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيـانِ

فاستَحْيِ من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لها: إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلامَ يراني(١)

وفيه طُمأنينة كبيرة للمؤمنين، فهذه دعوةُ الله، وهذا دينُه، والله تعالى حافظٌ دينَه، ومظهر دعوته.

* ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق:١٥]:

﴿ كَلَّا ﴾ تهديد يناسب ما صدر من أبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من التكذيب والتولِّي والإيذاء ﴿ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ هذه نون التوكيد الخفيفة، وإن كانت تُكْتَب في القرآن ألفًا.

أما الناصية، فهي مقدَّمُ الرأس، ومن معاني السَّفع:

١- الأخذ بالناصية؛ أي: يجر برأسه على وجهه، وهذا إذلال يقابل كبرياءه، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن:٤١]، أي: يؤخذ بناصية هذا الرجل ومَن كان على شاكلته ويسحب إلى نار جهنم: ﴿ يَوْمَ

---

(١) ينظر: «مجموعة القصائد الزهديات» (١/ ١٦٠).

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٣-١٤]، وهو معنى مرعب مخيف، وتهديد يزلزل قلوب مَن ليسوا مقصودين بهذا التهديد، فكيف بالمخاطِب لو كان له قلب؟!

٢- الصَّفع؛ أي: الضرب على وجهه، والناصية قد تطلق على مقدم الشعر باعتبار القرب، أي: إذا لم يكف فسوف يضرب على وجهه، وضرب الوجه إهانة وإذلال.

٣- السَّفع هو السواد، يقال: فلان فيه سَفعة، أي: ضرب من السواد، ومنه المِسْفَع، وهو: الغطاء الأسود الذي تلبسه المرأة، والمقصود الوجه وأطلق الناصية عليه من باب المجاورة، أو إطلاق الجزء والمراد الكل، فالمقصود: تسويد وجهه.

وهذا يشمل سواد الوجه الحقيقي بالمعصية، والسواد بالهزيمة، كما حصل لهم في بدر؛ فإنهم اسودت وجوههم وعاينوا سوء المصير، وقد يقال للإنسان الذي نزلت به نازلة أو مصيبة: إنه مسود الوجه.

ومنه تسويد الوجوه يوم القيامة، والمقصود ناصية أبي جهل، أي: الناصيةُ المعروفة المعهودة، التي استقرت في الأذهان، ناصية هذا الطاغية المتمرد.

* ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]:

وَصَفَ الناصية بأنها كاذبة خاطئة، أي: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها.

و«الخاطئ» هنا: من فِعل الخطيئة، وليس من الخطأ، والفرق بينهما واضح، كما قال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧].

والسياق وإن كان سبَبَه أبو جهل، إلا أن تقييده بالوصف يدل على أن كلَّ ناصية تفعل مثل ذلك ويتوفر فيها هذا الوصف، فهي حقيقة بهذا التهديد وليست ناصية أبي جهل فحسب؛ لأن الله سبحانه ما عرَّض بهذا الرجل إلا لأنه صاحبُ كذبٍ وخطيئةٍ، فكل مَن كان مثله بهذا الوصف، فهو جدير بالعقوبة وبالتهديد.

وجاء الوعيد هنا مخصَّصًا لأبي جهل من بين سائر المجرمين، بأن يُؤخذ بناصيته إن لم ينته، فلما كانت معركة بدر، وأُصيب أبو جهل، جاء إليه ابن مسعود نفسه، فارتقى على صدره، حتى قال له أبو جهل: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم. وسأله: لمَن الدائرة؟ قال: لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم سُحب أبو جهل بناصيته وأُلقي في القليب[1]!

وكانت معركة بدر في السنة الثانية، فكان بين الوعيد وبين إنفاذه نحو من أربع عشرة سنة!

* ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧-١٨]:

و«النادي» هو المنتدى الذي يجتمع فيه القوم ويتنادون إليه، ومنه: دار الندوة؛ التي كانوا يجتمعون فيها في مكة ويتشاورون في شؤونهم.

والنادي غالبًا ما يكون في النهار، وأما المجتمع في الليل فيسمَّى: السامر، كما قال تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٧]، من السمر، وهو: ضوء القمر الذي يأنَس به السُّمَّار، فيسهرون إلى غياب القمر.

إن كان يهدِّد بجماعة النادي فليدعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢]!

قوله: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾: ﴿ سَنَدْعُ ﴾ الراجح أن فيه واوًا؛ لأنه فعل مضارع ليس منصوبًا ولا مجزومًا، وإن كانت غير مكتوبة في المصحف لاعتبارات ذكرها أهل الرسم، وبعضهم يقول: إن (ندع) هنا مجزومة، ولكن هذا ليس بقوي؛ لأنه مسبوق بالسين[2].

وقوله: ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾: جمع ليس له مفرد من لفظه عند بعضهم، وبعضهم يقول:

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «روح المعاني» (٣٠/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٢).

له مفرد: زباني، أو زِبْنِيَة، أو زابن... والكلمة مستخدمة عند العرب، والمقصود بها الرجال الأقوياء الأشدَّاء، وإنما سموا «الزبانية» من الزبن، وهو الدفع.

والمراد بهم: الملائكة المكلَّفون، من خزنة جهنم أو غيرهم ممن يكلفون بعذاب مَن أراد الله تعالى تعذيبه.

والسين للاستقبال، ولكن فيها نوعٌ من التأخير، أو التنفس بعض الشيء.

* ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]:

هذا خطاب للنبي ﷺ أن لا يطيع أبا جهل، كما قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم:٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

فالسجود هو قرب إلى الله تعالى، وهو الذي كان ينهى عنه أبو جهل، أمر تعالى نبيَّه ﷺ بالإمعان في ذلك، والإصرار عليه والصبر، وأن يسجد لربه ويقترب منه؛ ولهذا قال النبي ﷺ استنباطًا من هذه الآية: «**أقْرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وَهْو سَاجِدٌ**»[1].

فالقرب والاقتراب من الله تعالى يكون بالسجود؛ لأن أشرفَ ما في الإنسان هي جبهته وأنفه.

فالإنسان إذا سجدَ لربه، وعفَّر وجهَه بالتراب، وأذلَّ نفسَه لربه، تخلَّص من كبرياء الأنانية، وكان في غاية العزة، وفيه دليل على أن صلاة النبي ﷺ التي كان يصلِّيها في أول الإسلام كانت قيامًا وركوعًا وسجودًا، وإنما كانت ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره.

لقد علِم تعالى أنَّ هذا الرجل يموت كافرًا، ولهذا تهدَّده وتوعَّده وبيَّن جرمه وغلظه، وسوء مصيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذكر تعالى أبا جهل بما لم يذكر به غيره من رؤوس الكفر، وظهر بعد حينٍ أن كثيرًا من شيوخ الضلالة أسلموا وحسن إسلامهم، وكان الرسول ﷺ يستأني بهم، حتى حدثت غزوة بدر وأَسَرَ منهم مَن أَسَرَ، وكان رأي النبي ﷺ ورأي أبي بكر رضي الله عنه إطلاق الأسرى مقابل الفِداء، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: يا رسول الله، أرى أن تستأني بهم؛ لعل الله تعالى أن يهديهم[1].

إن مسألة وجود أعداء للرسالات وللدعوات وللمصلحين، أمر لابد منه، والذي يحاول غير ذلك يحاول محالًا، ولكن ينبغي أَلَّا يُفهم من هذا افتعال العداوات أو صناعة الأعداء؛ فإن العدوَّ موجود ولا بد ولا يلزم من ذلك صناعة الأعداء ولا توسيع العداوات، ومَن لم تستطع أن تتخذه صديقًا، فعليك أن لا تتخذه عدوًّا، ومَن لم تستفد منه فلتحاول السلامة من شرِّهِ، والقرآن جاء بمصانعة العدو بالتي هي أحسن والإعراض عنه، ودفع السيئة بالحسنة حتى يصبح العدو وليًّا حميمًا.

وسيرة النبي ﷺ طافحة بهذا المعنى، كما في قصته مع ثُمامة بن أُثال، ومع غَوْرَث ابن الحارث، ومع أبي سفيان، ومع هند بنت عُتبة، ومع عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابن سَلُولَ، ومع أهل الطائف ومكة ومع المنافقين.. وغير ذلك.

وإذا تأملت «سورة العلق» وجدتها متضمنة معاني الدين:

كأمر الربوبية: ﴿رَبِّكَ﴾، وأمر الألوهية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]، وأمر الأسماء والصفات: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣].

وأمر البعث: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨].

وأمر النبوة في قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأمر الرسالة في قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق:١٢]، وأمر الكتب في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

وأمر القدر؛ فإن الخلق هو أول مراتب القدر، وبعده الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذا في قوله: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

وفي السورة تضمين لنظرية المعرفة وفلسفتها، أو ما يسمونها: «الأبستمولوجيا»، فهي تأكيد على أهمية المعرفة ونظام تحقيقها، والغيب والشهادة، وإشارة إلى وسائل المعرفة، وهي:

١- الوحي، وهو طريق معرفة الغيب وما لا يحيط به البشر، ولأنها أول سورة جاء بها الوحي كان مناسبًا أن تكون مؤسسة لنظرية المعرفة الإسلامية.

لقد استطاع العلم أن يكشف الكون ويحيط بنواميسه، ولكن الإنسان وتشريح دماغه ونفسيته لا يزال لغزًا تحيط به الكثير من الحواجز، وكلما اتسعت دائرة العلم تضاءل العقل البشري وتأكدت حاجته لمصدر آخر، هو الوحي.

ولا تزال علوم النفس والاجتماع أقرب إلى الملاحظات والمجملات منها إلى العلم.

٢- العقل، وهو وسيلة لاكتشاف الحياة والكون، ولفهم الوحي والشرع، ولذا فليس هو ندًّا للوحي ولا ندًّا للكون؛ لأنه أداة، أما هي فموضوع.

والإنسان مخلوق عاقل، ولذا علَّم الله آدم الأسماء كلها: الأرض، والسماء، والجبال، والبحار، والأنهار، والدواب، والحيوانات.. وإذا علم الأسماء فقد علم الصفات، فعرف أن هذا حيوان متميِّز بشيء واسمه كذا، وهذا ماء، وهذا بحر، وهذا نهر، وهذا ليل وهذا نهار، وهذه أرض وهذه سماء، وهذه نجوم وهذه أفلاك، علمه مباشرة أو ألهمه ذلك، أو منحه آلة التعقل والاستخراج، وكل ذلك من تعليم الله تعالى.

٣- الكون الذي أمرنا أن ننظر فيه، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج:٤٦]، فهو مصدر معرفة تنجم عن جولة العقل والتجربة لاكتشافه ومعرفة مجاهيله وأسراره ونواميسه.

٤- الحواس، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فالأفئدة تعي وتستوعب ما تستقبله الحواس من سمع وبصر وغيرها، والله أعلم.

○ ○ ○


سُورَةُ القَدْرِ

سورة القدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥ ﴾ [القدر:١-٥].

* تسمية السورة:

هذه السورة لها أسماء عدة:

١- أشهرها: «سورة القدر»، وهو المشهور في المصاحف وكتب التفسير[١].

٢- «سورة ليلة القدر»[٢].

٣- «سورة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾»[٣]، من باب حكاية الآية الأولى على أنها اسم للسورة.

* عدد آياتها: خمس آيات، وعدها بعضهم ستًّا باعتبار قوله تعالى: (ليلة القدر) الثالث آية[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٠)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: «جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠١)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٥)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٠).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

* وقد اختلف فيها: هل هي مكية أو مدنية؟ وحكى بعضهم كالثعلبي عن الجمهور أنها مدنية، وحُكِي عن الجمهور أنها مكية، وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بالمدينة المنورة[1].

وظاهر سياق السورة -والله أعلم- أشبه بالسور المكية، في موضوعها وطبيعتها، وقصر آياتها ووجازتها.

* ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]:

السورة تبدأ بهذا الضمير العظيم ﴿ إِنَّآ ﴾، وهو يدل على التفخيم والتعظيم لله الواحد الأحد، وعادة ما يستعمل في سياق المنة والنعمة، أو في سياق الأخذ والانتقام، وهو مشعر بأنه تعالى يمضي ما أراد بواسطة ملائكته المسخَّرين لذلك، فثَمَّ ملائكة للوحي، وآخرون للعذاب، وغيرهم لتدوين الأعمال..

وهي بهذا تبدأ بتحديد مصدر هذا القرآن وأنه من عند الله تبارك وتعالى.

ولو أنه قال: (نحن أنزلناه)، لكان هذا خبرًا مجردًا أن الله أنزله، لكن لما قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ جعل مع الضمير التوكيد بـ«إنَّ»، وفيه تعظيم الْمُنزِل، وهو الله تعالى، فيدرك الإنسان قبل أن يسترسل في السورة أن الشيء الذي من عند الله لا بد أن يكون فيه من القوة والكمال والرحمة والفضل ما لا يخطر على بال.

إن في قوله سبحانه: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ إشارة إلى العلو والعظمة والفوقية لله تبارك وتعالى، وهي وإن لم تكن منصوصة في الآية، إلا أنها مفهومة؛ لأن الإنزال إنما يكون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٢)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤٢٦)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

من الأعلى إلى الأسفل، فتدرك من هذا المعنى إثبات العلو لله تبارك وتعالى، علو الذات كما نص عليه في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]، وعلو القدر وعلو القهر، فهو العلي الأعلى.

والضمير المنصوب في قوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يعود على القرآن، والقرآن ليس مذكورًا في السورة؛ فأعاد الضمير إلى شيء غير مذكور! وذلك لأمرين:

١- لأن اللبسَ مأمون، فالشيء الذي ينطبق عليه أنه أُنزِل في ليلة القدر، هو القرآن.

٢- في ذلك إشادة وتعظيم وتفخيم لشأن القرآن بأنه حاضر في الأذهان، وإن لم يكن منصوصًا عليه في السياق، فهذا أفخم وأعظم من أن يُنطق باسمه.

ونلاحظ أيضًا أنه ذَكَر المُنْزِل جلَّ وعلا، ثم ذَكَر المُنْزَل وهو القرآن بواسطة الضمير.

وعندما قال: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ فإنه يفهم منه تلقائيًّا وجود وسيط، وهو جبريل عليه السلام: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣]. وهو أفضل الملائكة وسيدهم، ولذلك كان له اسم خاص، وهو الروح، وسيأتي ذكر للروح في هذه السورة ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤].

والقارئ عندما يتلو هذه الآية: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾، فإنه يتذكر مَن أُنْزِل عليه القرآن وهو محمد ﷺ، وأن الله تعالى اختاره بإنزال هذا القرآن عليه، وجعل في قلبه من العلم والبصيرة والقوة لتلقِّي هذا القرآن والدعوة إليه والعمل به، ما جعله به سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ إشادة بالوقت الذي نزل فيه القرآن، فاجتمعت العظمة في المُنْزِل وهو الله عز وجل، وكذلك المُنْزَل، وهو القرآن، وفي الوسيط،

وهو جبريل عليه السلام، وفي المُنَزَّل إليه، وهو محمد ﷺ، ثم في الزمان الذي نزل فيه القرآن، وهو ليلة القدر.

وسُمِّيت كذلك لعظم قدرها، وهذا يتناسب مع جو الآية الذي يدل على التفخيم للأشياء المذكورة، ويكفي في فضلها أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

ويحتمل أن تكون سُمِّيت بهذا؛ لأنه تُقدَّر وتكتب فيها الأشياء، فآجال السنةِ كلِّها تنقل من اللوح المحفوظ في هذه الليلة[1].

ومما يعزِّز هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، فيكون «القدر» هو الفرق والتقدير.

ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، فهي ليلة فاضلة، ومن فضلها أن الله يقدِّر فيها مقادير الخلائق.

وهنا سؤال: ما معنى إنزال القرآن في ليلة القدر، مع أننا نعرف أن القرآن نزل مفرَّقًا بحسب الأحوال والوقائع والأسباب خلال ثلاثة وعشرين سنة؟

والجواب: أن في ذلك معاني:

١- أن إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[2]، وهو مما لا يُقال بالرأي.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١١٦)، و«البحر المحيط» (٩/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩١)، وابن الضريس (١١٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٩١)، وابن جرير (٣/ ٤٤٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٠) (١٦٥٠)، (٨/ ٢٦٩٠) (١٥١٢٩)، والطبراني (١٢٣٨١، ١٢٣٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٢٣، ٦١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩٦).

وحاصله أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في تلك الليلة، ثم نزل القرآن مُنَجَّمًا مفرَّقًا.

٢- أن يكون ابتداء إنزال القرآن في ليلة القدر، وعلى هذا يكون أول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن وهو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ نزل في ليلة توافق ليلة القدر من رمضان.

وهذان المعنيان لا تعارض بينهما، وكلاهما صحيح.

٣- ويحتمل ما ذكره بعض المفسرين، كالرازي وغيره، وهو إنزال قرآن يُتلى في فضل ليلة القدر وفي ذكر أجرها وما يتعلق بذلك[1]، وهذا فيه ضعف، والله أعلم.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾: احتفاء بهذه الليلة، وبما أُنزل فيها وهو القرآن، واحتفاء برسالة النبي ﷺ، والقرآن هو الكتاب الأخير، والنبي هو الخاتم، وقد أذن ربنا سبحانه وتعالى أن لا تتفتح السماء بوحي بعد ذلك الحين، وأن لا يُبْعَثَ إلى البشر رسولٌ بعد محمد ﷺ.

ولذلك جعل الله ليلة القدر تعويضًا لنا؛ لأن الأمم السابقة كان يبعث فيهم أنبياء كثيرون، وكانت أعمار تلك الأمم طويلة.

ففي هذه السورة تعويض كبير لهذه الأمة، واحتفاء بهذه الليلة التي نزل فيها هذا الكتاب، فتَشْرُف الليالي بحسب ما يقع فيها، وبحسب اختيار الله لها: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨].

ولذلك يوجد اختيار اصطفائي من عند الله سبحانه وتعالى، ويوجد تشريف اختياري من عند الإنسان، وذلك بأن يجعل الإنسان العمل الفاضل للوقت الفاضل فيُؤجر على ذلك، فالإنسان ربما يضيِّع ليله في لهو محرم، فيكون الوقت وبالًا عليه،

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨).

وقد يبذل وقته في عمل فاضل فيكون مأجورًا، وهنا سر تلاحظه في فضل ليلة القدر؛ حيث ثبت فضل إحياء تلك الليلة والدعاء بها، حتى ورد أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ما أقول فيها؟ قال: «**قُولِي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**مَن قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»[2].

وفيه إشارة إلى أن أفضل ما يبذل الإنسان من الوقت، هو ما يبذله لحفظ القرآن وتلاوته والعمل به، وهذا سر من أسرار الإشادة بتلك الليلة، وأن أعظم فضيلة تُنسب إليها أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر:٢]:

الغالب أن هذا التركيب: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ يستخدم في الأشياء العظيمة التي لا يحيط بها عقل الإنسان، ولكن الله أطلَعَ نبيه ﷺ على شيء من فضلها، وهنا تستحضر شخصية النبي ﷺ؛ لأن الله خاطبه وقال له: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾.

ولذلك كثر اختلاف العلماء في ليلة القدر، حتى ذكر ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» قرابة الخمسين قولًا في ليلة القدر، وذكر أن من العلماء مَن قال: إنها كانت عند الأنبياء السابقين، وعند النبي ﷺ، وهذا هو الصحيح.

ومنهم مَن قال: إنها رُفعت بموت النبي ﷺ، ومنهم مَن قال: إنها باقية.

ثم الذين قالوا: إنها باقية، منهم مَن قال: إنها تكون في السنة كلِّها، وكان ابن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٥، ١٠٦٤٣)، والحاكم (١/ ٥٣٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مسعود ﷺ يقول: «مَن يقم الحول يُصِبْ ليلة القدر»[1]. ففهم بعضُهم من قول ابن مسعود هذا أنه يرى أن ليلة القدر تكون في أي ليلة في السنة، وهذا ليس بلازم، بل قصد ابن مسعود ﷺ من هذا أن يعمل الناس وأن لا يقصُروا عملَهم على ليلة معينة في السنة، بل يكون عملهم دائمًا غير منقطع، وكأن مَن يقوم الحول يتهيأ لإدراك ليلة القدر، وكان أُبَيُّ بن كعب ﷺ يحلف ولا يستثني أنها في رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، وأن ابن مسعود يعلم ذلك[2].

ومنهم مَن يقول: إنها تكون في رمضان، حتى ورد عن الحسن البصري أنها تكون ليلة السابع عشر التي كانت ليلة بدر، وهي يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

ومنهم مَن يقول: تكون في العشر الأواخر.

ومنهم مَن يقول: تكون ليلة ثلاث وعشرين، أو إحدى وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، وأرجى ما يمكن أن يقال: إنها ليلة سبع وعشرين.

ومنهم مَن يقول: إنها تتنقل، وهذا هو الراجح، فلا يلزم أن تكون ثابتة في كل سنة؛ فقد تكون هذا العام في ليلة إحدى وعشرين، وتكون في عام آخر ليلة سبع وعشرين، ولكنها تكون في الدنيا كلها في ليلة واحدة، وإن لم يعرفها الناس[3].

وجزء من الاختلاف في ليلة القدر سببه عظمتها، وجزء من الاختلاف فيها هو إخفاء الله تعالى لأسرارها حتى يتطلع الناس إليها ويجتهدوا فيها، كما أخفى الله تعالى عن الناس أشياء كثيرة منها إخفاء الآجال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]؛ حتى يجتهد الناس في العمل والعبادة.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٢).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٢٦٢-٢٦٦).

* ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر:٣]:

وتلاحظ أن الله تعالى في الآيات الثلاث يذكرها باسمها؛ لأنها هي المقصودة بالسورة، وليس المقصود الأصلي بالسورة الكلام عن القرآن، وإن كان قد ذكر إنزاله؛ ولذلك لم يذكر القرآن صريحًا بل مضمرًا.

وقد حسب العلماء ألف شهر، فوجدوها ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذا كعمر رجل من المعمَّرين من أمة محمد ﷺ، لأنه ورد أن أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين[1]. فجعل تعالى هذه الليلة الواحدة تقوم بعمر إنسان، بل هي أفضل من عمر إنسان.

* ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر:٤]:

أي: في هذه الليلة تتنزل الملائكة، ويتنزل معهم «الرُّوح»؛ وهو جبريل عليه السلام على المشهور عند المفسرين، وكما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النبأ:٣٨]، ويكون هذا من باب عطف الخاص على العام.

وقال بعضهم: الروح صنف من أشراف الملائكة، وهذا لا يعارض المعنى الأول، ويكون سيدهم هو جبريل عليه السلام.

وقال بعضهم: «الرُّوح» خَلْق آخر غير الملائكة[2]. وهذا بعيد ولا دليل عليه.

فالملائكة تنزل في هذه الليلة الفاضلة، وتكون أبواب السماوات مفتحة، والأرض ملأى بالملائكة، يجوبون جنباتها يقِفون عند المصلِّين، ينزلون بالبِرِّ وبالرحمة، وينزلون بالأقدار.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦) وأبو يعلى (٥٩٩٠)، وابن حبان (٢٩٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٧٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ يفيد أنه ليس لأحد غير الله قدر ولا أمر ولا نهي، بل الأمر كله لله سبحانه، فله الخلق وله الأمر، وهو الذي يفضِّل مَن يشاء، وهو الذي يقدِّر الأقدار التي تكون في تلك الليلة من حياة أو موت، أو ذل أو عز، أو غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو هدى أو ضلال، أو ما شاء تعالى من الأحوال للأفراد والجماعات والأمم وغيرها.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: كل ما يأمر الله تبارك وتعالى به مما ذكرناه؛ فإنهم يتنزلون به في تلك الليلة.

* ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٥]:

فهي ليلة سلَام، أي: فيها السلامة للناس، وفيها الرحمة والقبول، ويكفي ما ورد عن النبي ﷺ، أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه[١].

ويكفي أن الله تعالى وصفها في الآية الأخرى بأنها ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

ولو ربطنا هذا بالتحية والشعار الذي يتداوله المسلمون: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، لوجدنا أن الله تعالى جعل من الأعمال والشرائع ما يتحقَّق به للمسلم في كل وقت المعنى الموجود بقدر أو بآخر، فالسلام موجود يتبادله المسلمون فيما بينهم، وقد ذكر فيه الرحمة والبركة، والملائكة تنزل بالرحمة، ويفرح الناس بهذه الليلة لما فيها من تنزل الرحمة والدعاء بها وبالمغفرة لأهلها، وكذلك البركة؛ فإنها ليلة مبارَكة، وبركتها تشمل السَّنَة كلَّها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، يفيد أن ليلة القدر تستمر من غروب الشمس، إلى مطلع

---

(١) تقدم قريبًا.

الفجر، سمَّاها ليلة، والليل يبدأ بمغيب الشمس، وفيه نوع من التقليل لوقتها، ولذلك قال بعضهم: إن تسميتها بـ «ليلة القدر» مأخوذ من الضيق، فقد يكون من ضيق الأرض لكثرة الملائكة الذين ينزلون، وقد يكون إشارة إلى قصرها.

كما تجد ذلك في ساعة الجمعة؛ فإن النبي ﷺ لما ذكر يوم الجمعة قال: «**فيه ساعةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلِّي، يسألُ الله تعالى شيئًا إِلَّا أعطاه إِيَّاهُ**». وأشار بيده يُقَلِّلُها[1].

وقد يقول قائل: هذا عطاء من الغني الجَوَاد الكريم المتفضِّل، فلماذا التقليل لوقت الليلة؟

والجواب: إنه -وإن كان الوقت قليلًا- فالفضل عظيم، وفيه حث العبد على أن يستثمرها ويستغلها في الطاعة والعبادة؛ لأن من طبيعة الإنسان أن يمل، فجعل الله سبحانه وتعالى بعض الأيام أفضل من بعض، وبعض الساعات وبعض العبادات وبعض الليالي، فشهر رمضان ثم العشر الأواخر ثم الأوتار ثم ليلة سبع وعشرين، وحتى ليلة القدر بعضها أفضل من بعض؛ فالثلث الأخير منها أفضل، وذلك كما في الأحاديث المتواترة في أنه: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**»[2].

والحاصل أن التقليل فيه دعوة للإنسان إلى استثمار هذه الليلة بالذكر والعبادة، فهي ليلة في السنة، وهي بضع ساعات، ومع ذلك يمكن أن تعوِّض شيئًا لا يُقدَّر بثمن، فهذا يجعل الإنسان يقبل على هذه الليلة بالذكر والاستغفار.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

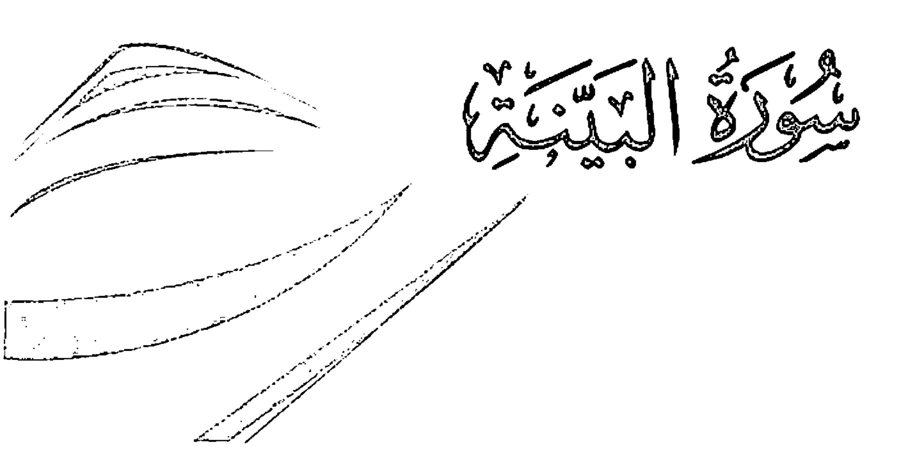
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تكلم العلماء وصنَّفوا كثيرًا في ليلة القدر، وصفاتها، وعلاماتها، وأسرارها، ومقاصدها[1].

○ ○ ○

(١) كـ«شرح الصدر بذكر ليلية القدر» لأبي زرعة ابن العراقي، و«شرف البدر بضياء ليلة القدر» لبدر الدين القرافي، و«إسفار البدر عن ليلية القدر» للمناوي، وغيرها. ينظر: «معجم الكتب» (ص٦٤)، و«كشف الظنون» (٢/ ١٠٤٢، ١٠٤٦، ١٠٨٨)، و«معجم المطبوعات العربية» (٢/ ١٠٣١)، و«إيضاح المكنون» (٣/ ٧٩)، (٤/ ٥٠، ٤٤، ٥٤٦)، و«هدية العارفين» (١/ ٤٢، ١٢٣، ٢٢٣، ٢٨٩، ٣٣٩، ٤٩٣، ٥١٠)، (٢/ ٤٤٩، ٤٩٨).

سُورَةُ البَيِّنَةِ



سورة البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾ [البينة:١-٨].

* تسمية السورة:

هذه السورة أسماء كثيرة:

١ - «سورة ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾»، كما في حديث أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال لأُبيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾». فقال أُبيٌّ: وسَمَّانِي لَكَ؟ قال: «نَعَمْ». فبكى أُبيٌّ[1].

وغالب المصاحف وكتب التفسير يختصرونها بـ: «سورة: ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾»[2].

٢ - «سورة البينة»: وهذا موجود في بعض المصاحف، ومعظم كتب التفسير[3]؛ لأن الله سبحانه ذكر فيها «البينة» مرتين.

٣ - «سورة القيمة»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٤).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٤)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

٤- «سورة أهل الكتاب»[1]؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أهل الكتاب غير مرة.

٥- «سورة البريَّة»[2]؛ لقوله فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧].

٦- «سورة المنفكِّين»[3]، أو «سورة الانفكاك»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة:١].

٧- وفي بعض الكتب: «سورة القيامة»[5]، والذي يظهر لي أن هذا تصحيف من «القيمة»؛ لأنه ليس للقيامة ذكر مباشر في السورة.

* عدد آياتها: ثمانٍ عند الجمهور، وعدَّها البصريون والشاميون تسعًا[6].

* وقد ذكر القرطبي وابن الجوزي وغيرهما من المفسرين أنها مدنية، وأن هذا قول الجمهور[7].

وينسب القول بأنها مكية إلى يحيى بن سلَّام صاحب «التفسير»[8]، ووهم ابن

---

(١) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٩١)، (٣٠/ ٤٦٧).

(٢) ينظر: «إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩١)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٠٧)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٢)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«أضواء البيان» (٩/ ٣٩).

(٤) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة (ص٢٨)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٥) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«أضواء البيان» (٩/ ٣٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤١٨).

(٦) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص٢٨٢).

(٧) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٦٧٣).

(٨) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٥)، و«زاد المسير» (٩/ ١٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠).

عطية، فجعل قول الجمهور أنها مكية، ونسب إلى ابن الزبير وعطاء بن يسار أنها مدنية[1].

وكثيرًا ما يقع اللبس والوهم في حكاية قول الجمهور، حتى في المسائل الفقهية؛ فإن البعض قد يقول: هذا قول الجمهور، وبعد التحقيق يتبين أنه ليس قول الجمهور، وأحيانًا إذا كان مَن يحكي هذا القول يميل إليه، فالغالب أنه يبحث عمَّن قال به، فيجدهم كثرة ويخيل إليه أنه مذهب الجمهور، ولو بحث في أنصار القول الآخر لوجدهم أكثر، والجمهور في هذه السورة على أنها مدنية، ومن أقوى الأدلة على مدنيتها: حديث أبي بن كعب ﷺ الذي ذُكر آنفًا: «إنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عليك سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾».

نعم، هذا ليس نصًّا في كونها مدنية؛ لأنه قد يقرأ عليه سورة مكية، ولكن يعزِّز القول بأنها مدنية أن فيها جدلًا مع أهل الكتاب ومحاجة لهم، والغالب أن مخاطبة أهل الكتاب كانت في المدينة بعدما نزل النبي ﷺ إلى جوار اليهود، وخالطهم المسلمون، واحتاجوا إلى مجادلتهم ومُحَاجَّتهم.

وقد ذُكر فيها إيتاء الزكاة، وهي إنما فُرضت في المدينة، وليس هذا بقوي؛ لأن إيتاء الزكاة ذُكر في سور مكية، كسورة فصلت.

* ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١]:

و«المنفكُّون»: جمع مُنفَكٍّ، من الانفكاك وهو الانفصال، والجمهور على أن المعنى: لم يكونوا منفصلين عن الضلال والشرك والكفر الذي هم فيه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، والبينة هي: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٢-٣].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٨)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠).

وذكر الفخر الرازي وغيره أن في السورة إشكالًا، غلط فيه بعض أكابر أهل العلم، وهو جدير بالتأمل حتى ننطلق منه إلى فهم السورة.

ذلك أنه في أول آية، ذكر الله تبارك وتعالى أن أهل الكتاب والمشركين لن ينفكوا عن كفرهم وشركهم إلى وقت معلوم، وهو أن تأتيهم البينة، ثم في الآية التي بعدها قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤]؛ فهل البينة سبب في أن ينفكوا عن شركهم وكفرهم ويكونوا مؤمنين، أم هي سبب في أن يتفرقوا ويختلفوا؟[١].

وقد ذكر المفسرون، كالقرطبي والآلوسي والطاهر ابن عاشور أكثر من تسعة عشر قولًا في حل هذا الإشكال[٢]، وترجع إلى جملة أقوال:

١- أن الآية الأولى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، حكاية عما يدَّعونه من أنه لو جاءهم رسول بالبينة لآمنوا، فكأن الله تعالى حكى هذا عنهم.

٢- أن كلمة ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لا تعني أنهم ينفكُّون عن الضلال ويتركون الشرك، وإنما المقصود أنهم لم يكونوا منفكين عن انتظار النبي ومدحه ﷺ وذكر فضائله إلى أن بُعث إليهم.

فاليهود كانوا يذكرون في كتبهم أن نبيًّا أطلَّ وأقبَلَ زمانه سيبعث، وأنهم سيتبعونه ويقتلون العرب به قتل عاد وإرم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، وكذا المشركون كانوا في الجاهلية يسمونه: الأمين، فلما بُعث كفروا به وكذَّبوه وخوَّنوه، فانفكوا عن مدحه بعدما جاءتهم البينة ببعثته إليهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٩).

٣- أن المعنى: أنهم ليسوا منفكين حتى ولو جاءتهم البينة، فإنهم سيظلون على ما هم عليه، وعلى هذا يكون معنى الآية أن القرآن لا يزيدهم إلا نفورًا، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

٤- أن المعنى: أنهم ليسوا بميتين حتى تأتيهم البينة، وتقوم عليهم الحجة قبل موتهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

٥- وقريب منه ما ذكره ابن عطية من أنهم ليسوا متروكين سُدًى[1]: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

٦- أن المعنى: حتى يأتيهم مَلَك من السماء، ويكون هذا نوعًا من السخرية منهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا ملكًا معه كتاب، كما كان المشركون يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢][2].

والذي أميل إليه: أن الآية لا تحتاج إلى تأويل وليس فيها إشكال، وأن معناها واضح.

وبيان ذلك: أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: ليسوا تاركين شركهم وكفرهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وحتى يبعث فيهم الرسول، وتنزل إليهم الكتب؛ وذلك لأنه لا يستطيع أحد أن يهتدي بغير صراط الله وطريقه.

فالآية تنفي أن يكونوا منفكين عن الضلال إلى الهدى إلا ببينة، ولكن الآية لم

---

(١) أي: هَمَلًا، لا يُؤمر ولا يُنهى.

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٩).

تقل: إن أهل الكتاب والمشركين إذا جاءتهم البينة سوف ينفكون جميعًا عن الضلال ويهتدون حتمًا، ولكن سيكون منهم مَن يهتدي ومنهم مَن لا يهتدي.

وهذا معنى سهل واضح، ومعه لا يبقى في السورة إشكال؛ لأن الآية الأولى تقرر أن أهل الكتاب والمشركين لا يمكن أن يهتدوا من ضلالهم إلا ببينة من عند الله تبارك وتعالى، ولذلك بعث الله إليهم الرسول وأنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي يختلفون فيه.

وأما: هل نفعتهم هذه البينة وآمنوا بها، أو أنهم استكبروا وأصروا على كفرهم؟ فهذا موضوع آخر لم تتعرض له الآية.

وهذا الكلام وإن لم أجده منصوصًا عند معظم المفسرين، إلا أنه يبدو مقصود كثير منهم، وكثير ممن يقرأ القرآن يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى، ولا يجد في السورة إشكالًا.

ثم الذين كفروا قسَّمهم الله تعالى في هذه الآية إلى فئتين: «أهل الكتاب» و«المشركين».

أما أهل الكتاب، فهم: اليهودُ والنصارى، وأما المجوس، ففي دخولهم في أهل الكتاب خلاف، ولكن الأقرب أنهم لا يدخلون؛ وذلك لقول الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام:١٥٦]. وإنما أُلحق المجوس بأهل الكتاب في بعض الأحكام كالجزية مثلًا، ولذلك لا تُنْكَح نساؤهم كنساء أهل الكتاب.

فالمقصود هنا -والله أعلم- اليهود والنصارى، واليهود كانوا موجودين في المدينة، والنصارى كانوا في نجران.

وأما المشرِكون، فهم الوثنيون من أهل مكة وغيرِها.

وقد قدَّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب على المشركين؛ لأن أهل الكتاب بُعِث فيهم رسلٌ، وأنزلت كتب، فالعَتَبُ عليهم في الضلال أشد، ولهذا عاتبهم الله تعالى ووبَّخهم لما جاء المشركون إليهم يسألونهم: نحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى. فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١].

والجاهل ربما وقع في الخطأ بغير قصد، أما العالم فالحجة عليه قائمة، فإذا أخطأ كانت المؤاخذة عليه أكثر؛ ولهذا بدأ الله تعالى بهم في هذه السورة.

وعلى اعتبار أن السورة مدنية، فقد كان الخطاب فيها عتابًا لأهل الكتاب قبل غيرهم، ولذلك ناسب أن يقدِّمهم؛ لأنهم المقصود الأول من الخطاب.

وهنا وصمهم الله تعالى بالكفر؛ لتكذيبهم رسالة النبي ﷺ مع معرفتهم به.

و﴿ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ هي الحجة الواضحة، وجمعها: «بينات»، وقد وصف الله القرآن بأنه «بينات» فقال: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

فالقرآن «بيِّنة» في إعجازه اللغوي، وفي إعجازه العلمي، وفي إعجازه التشريعي، وفي إعجازه التاريخي، وفي أخباره وقصصه وآياته.

وكذلك الرسول ﷺ نفسه هو «بينة» في الحجج التي جاء بها، وفي الوحي، وفي أنه رجل أُمِّيٌّ، ومع ذلك ألهمه الله تعالى البلاغة والإعجاز، وهو «بينة» بما جعل الله تعالى على يديه من الآيات التي آمن بها مَن آمن من الناس، سواءً الآيات التي حصلت في عصره ورآها الناس، أو الآيات الباقية والتي منها القرآن وما يخبر به ﷺ من أحوال الزمان.

* فـ «البيِّنة» هنا معنى مشترك، يدخل فيه القرآن ويدخل فيه النبي ﷺ؛ ولهذا قال في الآية الثانية: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة:٢]: وهذا هو تفسير

«البينة»، فسَّرها بالنبي محمد ﷺ، وما يتلوه من الصحف.

و«الصحف» جمع: صحيفة، والمقصود بها الورق، وهي مطهَّرة تطهيرًا حسيًّا ومعنويًّا.

أما التطهير الحسِّي: فلأن لها قداسة وحرمة وأحكام، بحيث لا يمس القرآن إلا طاهر: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩].

وأما القداسة والطهارة المعنوية: فلأنها ليس فيها شك ولا ريب: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]، ولا خطأ ولا ظلم، بل هي حق محض.

ولأجل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، ذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة إلى أنه لا يجوز أن يمس المصحف إلا متوضئ، وقد جاء في حديث عَمرو بن حَزْم في وصية النبي ﷺ: «**لا يمسُّ القرآنَ إلَّا طَاهِرٌ**»[1].

* ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة:٣]:

أي: جعل الله تعالى في تلك الصحف كتبًا قيمة.

والكتب القيمة هي: الآيات والسور، وأحكام الحلال والحرام؛ لأن الكتب جمع كتاب، وهو المكتوب.

وكلمة ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾، يفهم منها أنها ذات قيمة، يقال: هذا شيء قيم. أي: غالي القيمة، لكن المقصود بـ ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ أي: مستقيمة، معتدلة، ليس فيها عوج ولا خلل.

---

(١) أخرجه الدارمي (١٦٢١، ١٦٢٨، ١٦٣٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، والنسائي (٨/ ٥٧، ٦٠)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والدارقطني (١/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ٥٥٢). واختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل، إلا أنه تلقاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرة تغني عن إسناده، كما قال ابن عبد البر، وينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٣٩٩-٤٠١).

وكان يمكن أن يقال في تفسير الآية: إن قوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسم جنس فيشمل الرُّسلَ كلَّهم، ومنهم محمد ﷺ، ويدخل في ذلك الحجج التي جاء بها الأنبياء السابقون والكتب التي بُعثوا بها.

ولكن القول بأن المقصود هو الرسول محمد ﷺ أقوى، من جهة ملاحظة سبب النزول.

* ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤]:

هذه الآية هي التي وقع فيها مع الآية الأولى إشكالٌ عند بعض المفسرين، فهنا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يذكر المشركين، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: بعد أن قامت عليهم الحجة، وهي رسالة الرسول ﷺ والقرآن الذي معه، فمعناه أن المقصود بتفرق أهل الكتاب هنا هو تفرقهم بين الإيمان والكفر؛ فمنهم مَن آمن بالنبي ﷺ ومنهم مَن كفر، فتفرقوا على هذا، وهذا المعنى يذكره جمهور المفسرين[1].

ويوجد معنى آخر، وهو أن المقصود بتفرُّقِهم: إعراضهم عن النبي ﷺ، وتفرُّقهم في كيفية الرد، فبعضهم قال: دَعِيٌّ. وقيل: شاعر. وقيل: ساحر. وقيل: مجنون. لكن لا يدخل في ذلك الذين آمنوا منهم؛ لأنهم لا يُوصفون بأنهم من أهل الكتاب بعد أن دخلوا في دين الإسلام، فعلى هذا المعنى الثاني يكون المقصود بتفرُّقِهم: إعراضَهم عن النبي ﷺ، وعدم إيمانهم به.

وثَمَّ معنى ثالث جيد وغير مشتهر، وهو: أن المقصود بتفرق أهل الكتاب: اختلافهم على أنبيائهم قبل النبي ﷺ؛ كما في حديث: «إنما هلك الذين كانوا من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٧٩).

قبلكم بتفرقهم واختلافهم على أنبيائهم»[1].

واختلافهم على أنبيائهم إنما حدث بعد ما جاءتهم البينة، أي: من بعد ما قامت عليهم حجج أنبيائهم، ومن ذلك اختلافُهم بعد بعثة النبي ﷺ.

فيكون الاختلاف المذموم هنا اختلافًا آخر، وهذا يبعد الإشكال الذي نقلناه عن الواحدي والرازي وغيرهما بين الآية الأولى والآية الرابعة، ويبين أن الآية الأولى في معنى والآية الرابعة في معنى آخر؛ فالآية الأولى تتكلم عن الذين آمنوا بالنبي ﷺ، وأن انفكاكَهم وإيمانَهم كان من بعد ما جاءتهم البينة، أما هذه الآية، فهي تتكلم عن الكافرين الباقين على كفرهم أنهم اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات.

وهذا ينسجم مع آية آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وفي هذه السورة تكرار كلمة (البينة)، فقد يكون ذلك؛ لأنها موجودة في كتب أهل الكتاب، فناسب أن تذكر لأن الجدل والحديث معهم، أو يكون ذلك أن القوم أهل علم واطلاع ومعرفة، فالمقام معهم ليس مقام وعظ مجرد، وإنما هو مقام حجة.

والبينة هي الحجة التي تُفحِم المخاصمين والمعاندين.

وفيه تحذير بالإيماء والإشارة للمؤمنين من الاختلاف والتفرق، وبخاصة الاختلاف والتفرق على الكتاب، وفيه ذمٌّ للعلم الذي يكون سببًا في الاختلاف؛ فإن كثيرًا من العلم الذي ينتظر أن يكون سببًا في سماحة المتعلِّمين ولطفهم مع الخلق وإيثارهم لهم، يكون سببًا في نشوء صراعات وخلافات وتحزُّبات، تفسد معها الأخلاق وتشتد المنافسة وتقسو القلوب.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٦٧، ٨١٤٤)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٤)، والبيهقي (١/ ٣٨٨)، (٤/ ٢٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وغالب طلبة العلم اليوم أكثر ولعًا بالخلاف فيما بينهم، وأكثر تحاسدًا وتنافسًا، حتى إنهم إذا كانوا في مؤسسة أو مدرسة أو جامعة وقع بينهم من التعاند والتغاير، ما لا يحسن ولا يحمد.

فسبحان الله! ما أكثر النصوص والآيات والأحاديث التي فيها النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكنها بمَعْزل عن واقعنا، وليس المقصود الاختلاف العلمي، فهذا طبيعي، بل هو محمود في كثير من الحالات، وإنما المقصود اختلاف التناحر والاقتتال والاحتراب، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

فأي ثمرة وأي قيمة لعلم لا يكون سببًا في صفاء قلبك، وسلامة نفسك، وعفاف لسانك، وحسن ظنك بالناس، ومحبتك الخير لهم؟!

وأنا أتعمد أحيانًا أن أثني خيرًا على بعض مَن يستحقون الثناء، وأعرف أنهم ليسوا بحاجة إلى ثنائي؛ لكن أقصد أن أتربَّى على مراعاة الإيجابيات واعتبارها، وعدم الاعتياد على لحظ الأخطاء والمخالفات أولًا، وكأنها أول ما يطرق خيالك أو يخطر ببالك عند ذكر مَن ليس من أصحابك وجلسائك وخاصتك.

ومع وجود النقص والعيب، فإن الثناء على الناس بما هم عليه من خير هو فضل ومروءة، كما قيل:

مَنْ ذَا الَّذِي ما سَاء قطْ ... ومَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ

سَامِحْ أَخَاكَ إِذَا خَلَـطْ ... مِنهُ الإِصَابَةَ بالغَلَـطْ

وتَجَافَ عن تَـعْنِـيـفِـهِ ... إِنْ زَاغَ يَومًا أو قَسَطْ

وقيل:

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرضَى سَجايَاهُ كلُّها ... كَفَى المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وقِسْ على نفسك، فإنك إذا عابك أحد بخطأ موجود فيك، تقول: لماذا عابوني بهذا الخطأ الذي يظنونه وتجاهلوا الصواب الكثير الذي عندي؟ فكذلك الآخرون يقع مثل هذا في نفوسهم.

فأَوْلَى النَّاس بمعنى العدل هم مَن جاءتهم البينة.

* ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥]:

في هذا مزيد عتبٍ عليهم على تفرقهم وضلالهم، مع أنهم لم يؤمروا إلا بما بُعث به الرسل جميعًا، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين.

و«العبادة» كما فسَّرها ابن تيمية وغيره: «اسم جامع لكل ما يحِبُّه اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[1]، وهو فعل القربات والطاعات المحضة بنية التقرب إلى الله.

وقوله: ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ حال من فاعل «يعبدوا»، أي: فلا يعبدون مع الله تعالى غيره.

و﴿ حُنَفَآءَ ﴾: حال ثانية، والحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وهذا قول أكثر أهل اللغة[2]. لكن أرى أن من الأجود أن نقول: إن الحنيف هو المعتدل عن الشرك إلى التوحيد، فالحنيفية هي الاعتدال، وأصل الحنف يكون في الرِّجْل، يقال: فلان أحنف، ومنه الأحنف بن قيس الذي كانت أمه ترقِّصه وهو صغير وتقول:

واللهِ لولا حَنَفٌ في رِجْلِهِ وقِلَّةٌ أَخَافُهَا من نَسْلِهِ

مَا كَان في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِه

---

(١) ينظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩)، و«الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٥٥).

(٢) ينظر: «اللسان» (٩/ ٥٦)، و«تاج العروس» (٢٣/ ١٧٠).

ومعنى الحنف في الرِّجْل هو: اعوجاجها عن المعهود، لكن إذا كانت مائلة نحو الأخرى كانت مستقيمة، وفي نفس الوقت سُمِّي هذا حَنَفًا.

فالحنيف هو: المستقيم على التوحيد، وإن قلنا المائل عن الشرك إلى التوحيد، فالأمر واسع.

وقيل: معنى الحنيف: هو المختون[1]، وقيل: الحاج[2]، والمقصود، والله أعلم: أنه أمرَهُم أوَّلًا بالإخلاص في أعمالهم، ثم أمرهم بأن يكونوا حنفاء، أي: على ملة الأنبياء.

﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي: ذلك دين الملة القيمة، أو دين الأمة القيمة، فالقيمة وصف لشيء محذوف تقديره: الأمة، أو الملة، وهذه الأمة هي التي جعلها الله تعالى شاهدة على الناس: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:٦]:

هنا أعاد وصف أهل الكتاب بالكفر، والفرق بين وصفهم بذلك في هذه الآية وبين وصفهم بذلك في الآية الأولى: أن الآية الأولى وصفتهم بذلك قبل أن تأتيهم البينة، أما الآن فانتقل الأمر إلى وصف أولئك الذين أصرُّوا على الكفر من أهل الكتاب والمشركين، ولذلك ناسب أن يتوعدهم الله تعالى هنا لإصرارهم.

وجمع أهل الكتاب مع المشركين هو غاية التأنيب والتوبيخ، فقد كانوا يرون لأنفسهم فضلًا ومكانة ويعيِّرون أهل الشرك ويزدرونهم، فلما حصحص الحق كفروا مثلهم، فأُلحقوا بهم وحُشروا معهم، فلم ينفعهم ما عندهم من العلم بالكتاب.

---

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ١١١).

(٢) ينظر: «الكليات» للعكبري (١/ ٥٥٣)، و«المحيط» لابن سيده (١/ ٢٣٢).

وقوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي إنهم موعودون بنار جهنم في الآخرة، وهذا لا يمنع أن يأتيَهم شيء من العذاب في قبورهم أو في دنياهم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ هم شر البرية على الإطلاق، أو شر البرية في زمانهم، وقد يأتي هناك مَن هو شر منهم.

و﴿الْبَرِيَّةِ﴾ هي المبرية، أي: المخلوقة، وهم البشر، ومن ذلك اسم الله «الباري»، وأصلها البريئة بالهمز، ولكنه خُفِّفَ، أو من البراء وهو التراب، فيكون المقصود شر البشر وشر الناس.

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]:

وقد بدأ بذكر الأشرار؛ لأن السورة تتحدَّث عن أهل الكتاب الذين كفر غالبهم بالنبي ﷺ، أما الذين أسلموا منهم فهم قليلون، فلما كان السياق من أهل الكتاب والمشركين الكافرين بالله وبرسوله، ناسب أن يبدأ بالوعيد، بخلاف «سورة الزلزلة» مثلًا؛ فإن الوعظ فيها كان عامًّا، فبدأ الله تعالى فيها بالخير، فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأيضًا: فإن الله تعالى جمع ما يتعلق بالكفار في آية واحدة، في حين أنه ذكر جزاء المؤمنين في آيتين، وهذا فيه ثناء ومدح لهم وترضية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، وهذا العموم يدخل فيه الذين آمنوا من أهل الكتاب، الذين انفكُّوا عن كفرهم بمبعث النبي ﷺ، ويدخل فيه الذين آمنوا من المشركين، ومن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢].

وقد يحتج بهذه الآية مَن يقول: إن صالحي البشر أفضل من الملائكة- وذلك

إذا اعتبرنا أن البريَّة هي المبروءة، أي: المخلوقة- أما إذا قلنا: إن البرية هم البشر، فسيكون المقصود أنهم أفضل الناس.

* ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: على ما عملوا في الدنيا وما صبروا ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، و«العَدْنُ» هو: الإقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان، أي: أقام فيه، فهذه الجنات جنات خلود[١].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وهنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى التأبيد للكفار، وذكر التأبيد للمؤمنين؛ وذلك لأن المقام مقام رحمة، ورحمته سبحانه وتعالى تغلب غضبه.

ومن هذه الآية وأمثالها أخذ بعضُ أهلِ العلم القول بفناء النار، كما في بعض كتب ابن القيم وابن تيمية رحمهما الله، وذكره رشيد رضا وانتصر له في «التفسير»، وذكره شارح «الطحاوية» كأحد قولي أهل السنة في فناء النار[٢].

ولعل مسألة فناء النار من المسائل التي يصلح أن نضرب فيها المثل لقضية الجدل من بعد ما جاءت البينة، فبحث هذه المسألة بحثًا علميًّا عاديًّا لا تثريب فيه؛ لكن أن تتحول إلى صراع وخصومات وجدل وسؤالات تشغل ذهن الإنسان، وتثار في كل مناسبة وفي غير مناسبة، ويقع بسببها تضليل وتجهيل وتبديع، وأحيانًا مباهلة؛ فهذا من التفرُّق بعد البينة، ومن الجدل الذي نهانا الله عنه، وهو غالبًا أمارة على علم يكون الجهل خيرًا منه؛ لأنه لم يرشد مسيرة الإنسان إلى البحث عما هو أفضل وأحسن له في

---

(١) ينظر: «الفائق» للزمخشري (١/ ٤١٧)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ٢٨٤)، و«المخصص» لابن سيده (٢/ ١٧٦)، و«اللسان» (١٣/ ٢٧٩).

(٢) تقدم ذلك في «سورة النبأ» عند قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

دينه أو دنياه، ولو أن الإنسان اشتغل بحرث أو بيع أو شراء فيما أحل الله، لكان خيرًا من بعض الخصومات والمجادلات التي لا طائل من ورائها، سوى شغل الأذهان وفوات المصالح الدينية والدنيوية!

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ غاية ما يبحث عنه المؤمن أن يرضى الله تعالى عنه، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، أي: بسبب ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى من الفضل والنعيم، وهذا دليل على احتِفاء ربِّنا تبارك وتعالى بهم، حتى إنه يرضى عنهم ثم يرضيهم جل وتعالى بما أعطاهم من الفضل والنعيم.

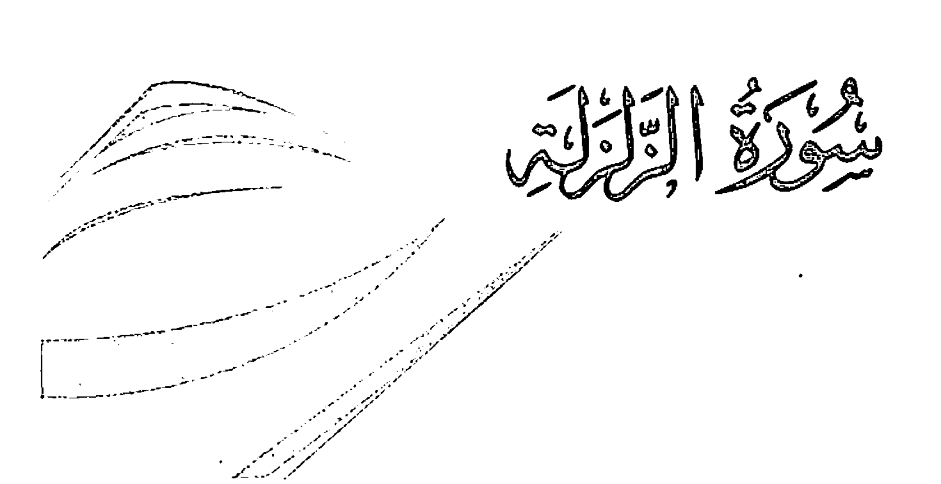
وقد جاء هذا المعنى في الحديث الصحيح لما قال الله تعالى: «**تُريدون شيئًا أزيدكُم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَم تُدْخِلْنا الجنة وتُنْجِنَا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَر إلى ربهم عز وجل**»[1]. فيعطيهم الله سبحانه وتعالى النظر إلى وجهه الكريم، فلا يرون شيئًا أمتع ولا ألَذَّ ولا أعظمَ من النظر إلى وجهه في جنة عَدْنٍ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، فجعل مدار القضية على أمر يتعلق بعمل القلب الذي هو أصل عمل الجوارح؛ لأن الخشية من عمل القلب، وهي أثر الإيمان، ونتاجها العمل الصالح ومجانبة السيئات؛ ولذا وصفهم بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات.

○ ○ ○

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب الرومي ﷺ.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ



سورة الزلزلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 1-8].

* تسمية السورة:

١ - الذي في مصحف المدينة وغيره، وكثير من كتب التفسير: «سورة الزلزلة»[١]، وهو اسم رُوعِيَ فيه المعنى، دون اللفظ؛ فإن الآية ليس فيها «الزلزلة»، وإنما فيها «الزلزال».

٢- ولذلك سُميت في بعض المصاحف وكتب التفسير: «سورة الزلزال»[٢].

٣- «سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»، وهو الوارد عن بعض الصحابة ﷺ، وثبتت تسميتها في «صحيح البخاري»، وغيره: «سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾»[٣].

* عدد آياتها: ثمان آيات كما في غالب المصاحف، وفي بعضها: تسع؛ وذلك

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٢)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٥١٩)، و«الفواتح الإلهية» (٢/ ٥٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٥)، و«جامع الترمذي» كتاب التفسير (٥/ ٣٠٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٠٧٩)، و«تهذيب الآثار» (٢٦٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

باحتساب قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦]. آيتين وليست آية واحدة[1].

* والسورة مكية على قول ابن عباس رضي الله عنهما[2] ومجاهد وجماعة، واختاره كثير من المفسرين؛ كابن كثير، والطاهر بن عاشور، والنيسابوري، وغيرهم[3].

* وأما فضل هذه السورة: فلم يصح فيه شيء، وأما ما ورد من كونها تعدل نصف القرآن، فلا يثبت[4].

وكذلك ورد أن: «مَن قرأها فله من الأجر مثل أجر داود». ولا يصح[5].

وورد في «سنن أبي داود» أن النبي ﷺ قرأها في الركعة الأولى والثانية من صلاة الفجر[6]، وفيه نظر.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٠).

(٢) ونُقل عنه أنها مدنية.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩)، والمصادر الآتية.

(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٦٢)، والترمذي (٢٨٩٣، ٢٨٩٤)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٩٨)، والحاكم (١/ ٥٦٦) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم، وينظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٩٣)، و«زاد المعاد» (١/ ٣١٧-٣١٨)، و«المنار المنيف» (ص ١١٤)، و«فتح الباري» (٩/ ٦١-٦٢)، و«نتائج الأفكار» (٣/ ٢٦٨-٢٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٣٤٢).

(٥) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٣٦)، وقال: «منكر».

(٦) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والبيهقي (٢/ ٣٩٠) من حديث رجل من جهينة رضي الله عنه. وينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٧/ ٥٦)، و«نتائج الأفكار» (١/ ٤٣٥).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وزرٌ...**». ثم سُئل ﷺ عن الـحُمُر، أي: عن زكاتها، فقال: «**ما أُنزل عليَّ في الحُمُر شيءٌ، إلا هذه الآية الفاذة الجامعة:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[1].

وقيل: مدنية. وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره[2].

والذين قالوا: إنها مدنية. لاحظوا سبب النزول؛ فقد جاء عن مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يتقالُّ الشيء أن يتصدَّق به، وكان الآخر لا يبالي أن يعمل الذنوب الصغيرة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، لكن هذا لا يثبت في حديث صحيح[3].

وموضوع السورة قريب الشبه بموضوع سورة القارعة، وهو الحديث عن بعض حوادث الدار الآخرة، وهذا يقوِّي القول بأنها مكية.

وهو موضوع مهم؛ لأن وازع السلطة والرقابة ليس كافيًا ولا ضامنًا، فلا بد من التعويل على وازع الإيمان في النفوس، حتى ينكف الناس عن المعاصي[4]، ويقبلوا على الطاعات؛ رجاء ثواب الله تعالى والدار الآخرة، وهذا من مقاصد الخطاب الإسلامي التي ينبغي أن تؤصل وتنشر.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٦٠)، و«صحيح مسلم» (٩٨٧).

(٢) ينظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٢)، و«أسباب النـزول» للواحدي (ص ٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٨١).

(٤) أي: يعدل الناس عن المعاصي.

* وقد بدأها الله سبحانه وتعالى بالشرط المستقبلي: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]:

و«الزلزال» هو: الحركة الشديدة المعروفة، لكنه هنا زلزال فريد في قوته وشدته ووقته.

ويشهد لهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فهي زلزلة لا تخطر على البال؛ ولهذا قال: ﴿زِلْزَالَهَا﴾. يعني: زلزالها المتفرد، الذي لا يشابهه شيء، ولا يدانيه، ولا يقاس إليه.

واختلف العلماء في ميقات هذا الزلزال:

فقال بعضهم: يكون عند النفخة الأولى التي يموت بها كل شيء. وقالوا: إنه قد يكون بسبب النفخ.

وقال بعضهم: إنه عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس[1].

وعزَّزوا ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أتبعه بقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢].

ولا مانع أن يكون المراد في الآية النفختين معًا؛ فزلزال يكون مع النفخة الأولى حينها يهلك الخلائق جميعًا ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، ثم يكون الزلزال الثاني عند النفخة الثانية، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبين النفختين أربعون سنة، كما ورد[2]، وذلك شيء يسير بالنسبة ليوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن وقع زلزالان بينهما أربعون سنة، يعتبر ما بينهما قليلًا، وكأنهما زلزال واحد.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٧-١٤٨)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٢٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥).

※ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢]:

وهنا ذكرت ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مرة أخرى؛ لأن تكرارها يزيد من الحضور الذهني للمتكلَّم عنه وهو الأرض، وإخراج الأرض لأثقالها خطوة ثانية بعد الزلزلة، أي: أخرجت ما في جوفها كما تضع الحاملُ حملَها.

وفي موضع آخر قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣-٤]، أي: أخرجت ما في جوفها، وهنا قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، **فما هذه الأثقال؟**

اختلف المفسرون فيها، والأقرب أنها: كل ما في جوف الأرض من معادن وغير ذلك ويدخل فيه البشر الذين قد استودعوا باطن الأرض، فيخرجون منها إلى ظهرها.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها، أمثالَ الأُسطوان من الذهب والفضة، فيجيءُ القاتِلُ فيقول: في هذا قَتلْتُ. ويجيءُ القاطِع فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمي. ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي. ثم يدعُونَه فلا يأخذونَ منه شيئًا**»[1].

※ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:٣]:

والمقصود: كل إنسان، وقال بعضهم: المقصود: الكافر[2]؛ لأن المؤمن يكون آمنًا مطمئنًا، والقول الأول هو الأقرب؛ لأن المؤمن يصيبه شيء من الفزع، وكلام الرسل والأنبياء في عرصات القيامة: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، «**نفسي نفسي**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٠-٧٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٨).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٩٤).

فالأمر فيه هول وفزع، ولهذا عبَّر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ولم يقل: (وقال الناس). ولعل فيه إشارة إلى أن كل إنسان مشغول بنفسه ونجاتها؛ لأنه كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج:٢]. وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٦]، فكل واحد مشغول بنفسه.

وعبَّر بالإنسان؛ لأنه لو قال: (وقال الناس). لربما فهم منه أن الحديث جماعي فيما بينهم، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل كل إنسان مشغول بفزع نفسه يتساءل: ﴿مَا لَهَا﴾، أي: ما الذي حصل لها؟! في حيرة وانبهار!

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي: ما للأرض؟ وما الذي يجعلها تميد وتضطرب؟

* ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]:

يلاحظ أن في الآيات الثلاث تسلسلًا؛ فالآية الأولى فيها الزلزلة، وفي الثانية إخراج الأثقال، وهو تابع من توابع الزلزلة، وفي الثالثة كلام الإنسان؛ فبعدما حصلت الزلزلة والرجفة وخرجت الأثقال ومن ضمنها الإنسان، خرج وردت إليه الروح وأصبح ناطقًا عاقلًا، فبدأ يتساءل: ﴿مَا لَهَا﴾؛ فحينها يأتيه الجواب: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

قال بعض المفسرين: أي تُخبر بما عمل الناس عليها من خير أو شر، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**أَتدْرونَ ما أخبارُها؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارَها: أن تَشهدَ على كلِّ عبدٍ وأمةٍ بما عملَ على ظهرها، أن تقول: عَمِلْتَ عليَّ كذا وكذا، يومَ كذا وكذا**». قال: «**فهذه أخبارها**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والترمذي (٢٤٢٩، ٣٣٥٣)، وابن حبان (٧٣٦٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٦، ٥٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحديث قال عنه الترمذي: حسن غريب صحيح، وقال مرة: حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وهو ضعيف[1].

لكن لا مانع أن نقول: إن من أخبارها أن تشهد على الإنسان بما عمل عليها، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩].

وقال بعضهم: إن المقصودَ بها ما يحصل من الزلزلة وما يتبعها، فيكون مجازًا، وهذا لا بأس به، فهو من أخبارها، وليس هذا من التأويل المردود، فإنه معروف في اللغة، كما أن العرب يتكلمون ويخاطبون الديار:

عُوجوا فحيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَـةَ الدَّارِ ماذا تُحيُّونَ مِنْ نُؤْيٍ وأحجارِ

فَاستعْجَمتْ دارُ نعمٍ لا تُكلِّمُنا والدَّارُ لو كلَّمَتْنا ذاتُ أَخْبـارِ

فهم يستنطقون البيوت والديار والآثار، ويقرءون ما تحدث وما تقول، وهو جار على لغتهم، فقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يشمل أن تخبر بما أذن الله تعالى أن تخبر عن الناس، ويجعل الله تعالى فيها هذه القابلية وهذه القدرة، ويشمل أيضًا ما يقع للأرض من الأحوال والحوادث والأخبار التي تقع وتحدث، فيراها الناس وكأن الأرض تتحدَّث أو تخبر عنها، وذكر هذا الطبري وغيره[2].

* ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥]:

الباء سببية، أي: بسبب أن ربك أوحى لها، و«الوحي» هو الخبر الخفي غالبًا.

فقوله هنا: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: وحي أمر كوني قدري، والوحي على نوعين:

---

(١) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٨٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٩-٣٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١١).

١- وحي شرعي، وهو الذي تنزل به الملائكة على الرسل والأنبياء عليهم السلام؛ فالقرآن الكريم وحي من الله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، على قلب محمد ﷺ.

٢- وحي تسخيري إلهامي، أو وحي تكويني، يخلق الله به، فهو مثل الأمر؛ فالأمر أمران: أمر قدري يخلق الله به ويرزق، وأمر شرعي، مثل إيجاب شيء أو تحريم شيء.

فمعنى قوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أمرها أمرًا تسخيريًا تكوينيًا، لا تملك إلا أن تنفذه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨]. والوحي إلى النحل إنما هو وحي تسخير وتكوين وإلهام، لا وحي تكليف.

فإن قيل: لماذا قال في النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾، في حين قال هنا: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾، ولم يقل: (أوحى إليها)؟

فالجواب:

١- هذا هو المناسب لفواصل الآيات، فهو أنسب مما لو قال: (أوحى إليها).

٢- أن قوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴾فيه تضمين، والتضمين هو أن يضمن الفعل «أوحى» معنى الفعل «أذن»، أي: أن ربك أذن لها، أو معنى (قال لها)، كما في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت:١١-١٢]، فالوحي يكون خلقًا، ويكون تكوينًا، ويكون تسخيرًا لما شاء الله تعالى من أمر السموات والأرض.

ولرُؤبة بن العجَّاج:

وَحَى لها القَرارَ فاستقرَّتِ وشدَّها بالراسياتِ الثُّبَّتِ

* ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦]:

صدور الناس أشتاتًا يحتمل أكثر من وجه:

١- صدورهم متفرقين: بين مؤمن وكافر، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، أصحاب الجنة وأصحاب النار، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣].

وقريب منه أن يُحشر الناس كلٌّ مع نظيره، كما في قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢]، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]. أي: حُشر الإنسان مع نظيره؛ فالأخيار مع الأخيار، والفجار مع الفجار، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمؤمنون مع المؤمنين، وأهل الضلالة مع أهل الضلالة، وهكذا كل فئة تُحشر مع فئتها، ولعل من هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء:٧١].

٢- ويحتمل أن يكون المعنى: يصدُرون مجموعاتٍ على غير انتظام ولا اتفاق ولا انضباط فيما بينهم، فهذا من معاني التشتت.

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ بضم الياء، ولم يذكر مَن الذي يريهم؛ للعلم به، فهو ربُّهم تبارك وتعالى، ولكن هل سيرون حقيقة هذه الأعمال؟

المشهور: يرون جزاءها، وقد يرونها في موازينهم، وقد يرونها في صحائف أعمالهم، ولا غرابة أن يرى الناس حقيقة أعمالهم في الدار الآخرة، فنحن نرى اليوم أن الإنسان بوسائله العادية البسيطة يحفظ الصوت والصورة، كما تفعل أجهزة التصوير التي تستخدم للتجسس أو للإثبات أو التوثيق.

في يوم القيامة تشهد على الإنسان جوارحه وحواسه وجلده بما عمل، فلا غرابة أن يرى صورة عمله؛ والمتقدمون يقولون: تصور لهم أعمالهم، وتحول إلى أشياء مرئية، والأولى أن تظل الآية على شمولها، ومن ذلك أن يروا أثر العمل، وأن يروا حساب العمل، وأن يروا العمل مكتوبًا في صحائفهم، وأن يروا العمل ذاته موثقًا مشهودًا.

* ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨]:

هذا دليل على أن مرد الأمر إلى العمل، وأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وأن الأعمال السيئة سبب لدخول النار، وفي الآية تذكير بأهمية العمل وخطره وأنه معدود على المرء حَقُرَ أم عَظُمَ، فللقلب أعمال وللجوارح أعمال وللسان أعمال؛ ولذلك قال بعض السلف: «مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه، قلَّ كلامه فيما لا ينفعه»[1].

وقد يقع من عمل الإنسان ما هو داخل في دائرة المباح، الذي لا يُوصف بأنه خير أو شر، إلا بموجب القصد والنية، فإن قصد به خيرًا أُجر عليه، وإن قصد به شرًّا أثم، وما لم يقصد بها هذا ولا ذاك، فهو من العفو الذي لا يحاسب عليه، ولذا لم يذكره في الآية.

ومع أن هذه الآية تعظِّم من شأن الأعمال، فإن كثيرًا من المسلمين يتساهلون فيها، وبعضهم يترك عمل الفرائض مدَّعيًا أن التقوى في القلب وحَسْب، أو يقصر الأعمال الخيرة في فعل العبادات دون السلوك والأخلاق!!

والله يحب عمل الدنيا النافع، ويثيب عليه، وقد يعاتب على تركه؛ لأنه يترتب عليه فوات مصالحه الخاصة، أو مَن يعول من زوجة أو أهل أو ولد أو نحو ذلك، أو

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٩٥)، وابن المبارك (٣٨٣)، والدارمي (٣١٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٧) من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

يذل نفسه بالسؤال أو بالسرقة، وبهذا الفكر والإهمال لأهمية العمل تتحول الأمة في مجموعها إلى أمة متخلِّفة ضعيفة، مستهلِكة غير منتجة.

ومن الخلل البيِّن أن بعض الناس لما يقرؤون مثل هذه الآية ينقدح في أذهانهم أن الأعمال التي توزن هنا، هي العبادات المحضة من صلاة أو صدقة أو نسك، وهذا جهل مفرط بالدين؛ لأن دينك ما ترك شيئًا إلا انتظمه؛ مصالح الأفراد أو الأسر أو الجماعات والأمم، والإخلال بشيء من ذلك مظنة المحاسبة والمؤاخذة، والإنسان إذا أخل بأمر يخصه في عبادته كان الحساب عليه فقط، لكن إذا أخل بأمر يتعلق بمصلحة الأمة، مثل أن يكون قصَّر في وظيفته أو خان أمانته، أو لم يقم بواجبه؛ كان ضرر ذلك على كل مَن تحت يده، وينبغي أن نحرِّر هذا المعنى ونصحِّحه، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، وقال هنا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

و«الذرة» فيها أقوال خمسة، ذكرها ابن الجوزي وغيره، وأشهرها: أن الذَّرة واحدة الذَّرِّ، وهو النمل الصغير. أو هي ذرة الهباء التي يراها الإنسان في الهواء تحت ضوء الشمس من كوة أو غيرها[1].

والعلماء المعاصرون يعنون بالذرة شيئًا آخر، وهو ذلك الجزء المتناهي في الصغر الذي تتكون منه المادة.

والسياق يدل على أن المعنى: مَن يعمل أقل مقدار من الخير يرَهُ، أو أقل مقدار من شرٍّ يرَهُ، وهذا لا يُستثنى فيه شيء، فكل ما يتصور من الصغر فهو مقصود في هذه الآية،

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤٠٦/١)، و«البحر المحيط» (٦٤١/٣)، و«الدر المنثور» (٥٩٥/١٥)، و«روح المعاني» (٤٣٧/١٥).

والله تعالى أعلم، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، ولا هباءة ولا ما هو دونها ولا ذرة صغيرة، ولا حتى جزءًا من الذرة والله سبحانه وتعالى لا يظلم شيئًا، ولا يظلم أحدًا.

والمثقال هنا قدر من الوزن.

وها هنا مسألة: هل ينفع الكافر ما يعمله من خير؟

والجواب: أنه يُجازى عليه في الدنيا؛ لأن الله لا يظلم أحدًا شيئًا، فيُجازي الكافر في الدنيا بمقدار ما عمل من الخير والطاعات.

وأما المؤمن فما عمل من خير -وإن كان شيئًا يسيرًا- قد يُجازى عليه في الدنيا ويُدَّخر له في الآخرة ما هو أعظم، وما عمل من شر -وإن كان قليلًا- فقد يُعجَّل له عقوبته في الدنيا بما يُخفِّف عنه عقوبته في الآخرة، وقد تُؤخَّر عقوبته إلى يوم القيامة، وقد يغفر الله له ذنبه، وأصحاب الكبائر تحت مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كما في قصة الرجل الذي قال الله تعالى فيه: **«اعرِضُوا عليه صِغَارَ ذُنوبِه، وارفَعُوا عنه كِبَارهَا، فتُعرضُ عليه صغَارُ ذنوبِه، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مشفِقٌ من كِبَارِ ذنوبِهِ أَنْ تعرَضَ عليهِ، فيقال له: فإِنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ! قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا»**[1].

وفي الآية حث للإنسان على أمرين:

١ - أَلَّا يستهين بخير يعمله كائنًا ما كان هذا الخير، ولو كان زهيدًا، كما قال ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ.

«لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ»[1]. وقال: «الكَلِمةُ الطيبة صَدَقةٌ»[2]. وقال: «وأَمْرٌ بالمعْروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكَرِ صدقةٌ»[3]. وقال: «ولا يزالُ لِسَانُك رطبًا بذكرِ الله»[4]. والخيرات كثيرة كلٌّ مستطيع أن يأخذ منها بنصيب.

ومن ذلك: عملُ القلب، مثل: العفو عن المؤمنين والمؤمنات، ومسامحتهم إن أخطؤوا وظلموا، والتذكر والتفكر.

وهكذا في الأعمال الصالحة المتعدِّية نفعها للناس، سواءً أكانت أعمالًا تعبُّدية شرعية؛ كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم أعمالًا دنيوية؛ كالبِرِّ والجود والإحسان والصِّلة ونفع الناس في دنياهم ومعاشهم، والتسلية عن همومهم... إلى غير ذلك من المقاصد التي يحبها الله ويرضاها.

٢- أَلَّا يستهين بمعصية ولو قلَّت؛ فإن المحقِّرات من الذنوب تجتمع على الرجل العظيم حتى تهلِكَه؛ فلا يستهين بكلمة غيبة، أو نميمة، أو نظرة حرام، أو سخرية، أو غفلة، أو تأخر في صلاة، أو كلمة سيئة في حق الوالد، أو تقصير في واجب، أو غِشٍّ يسير، أو تجاوز، فهذه أشياء تجتمع على الإنسان حتى تهلكه أو تكاد، وقد تحبِطُ عمله أو توبِقهُ.

فحريٌّ بمَن يقرأ هذه الآية أن يقف عندها؛ ولهذا ورد أن صَعْصَعة بن معاوية ﷺ، عم الأَحنف جاء إلى النبي ﷺ، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: «حسبي لا أبالي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٠) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٩٨)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٥)، والحاكم (١/ ٤٩٥) من حديث عبد الله بن بسر ﷺ.

أن لا أسمع غيرها»[1].

وقرأ الحسن البصري هذه الآية عند أعرابي، فلما قال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. قال الرجل: انتهت الموعظة[2].

○ ○ ○

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٩٤)، والطبراني (٧٤١١)، والحاكم (٣/ ٦١٣).

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٨٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٥).


سورة العاديات

سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات:١-١١].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة العَاديات» في معظم المصاحف وكتب التفسير، وبعضهم يضيف الواو، فيسميها: «سورة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾»[1]. وهذا بالنظر إلى حكاية الآية وسياقها.

* عدد آياتها: (١١) آية باتفاقهم[2].

* واختلف هل هي مكية أم مدنية؟ فذهب بعضهم إلى أنها مكية، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، وعطاء، والحسن، وعكرمة[3].

وذهب آخرون إلى أنها مدنية، منهم ابن عباس، وأنس رضي الله عنهما، وقتادة، ورجَّحه الطاهر ابن عاشور[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٣)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٠)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤١)

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«زاد المسير» (٩/ ٢٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٩٦).

(٤) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٤٩)، و«الإتقان» للسيوطي (١/ ٤٦، ٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٧).

واعتمد في الترجيح على سبب النزول، وحاصله أن النبيَّ ﷺ بعث سريةً فأبطأت عليه شهرًا لا يأتيه خبرها، فاغتم لذلك ﷺ، ثم نزلت هذه السورة[1].

وهذا ضعيف، شأنه شأن معظم أسباب النزول، فإنه يغلب عليها الضعف، ولم يصح في فضل هذه السورة حديث فيما أعلم، وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» آثارًا لا تصح ولا تثبت[2].

اشتملت السورة على ثلاثة أقسام:

الأول: يشمل خمس آيات، وهي قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات:١-٥]، وهي مقدمات تعتبر قَسَمًا أقسم الله تعالى به، وهو الثلث الأول من السورة.

الثاني: الحقيقة التي أقسم الله عليها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٦-٨].

الثالث: وعظ وتذكير، وهو بقية السورة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:٩-١١]:

* ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]:

«العاديات» مأخوذة من العَدْو، وهو الركض السريع، ولا يخص الحيوانات فحسب، بل هو شامل للإنسان.

فـ«العاديات» هنا هي الحيوانات العادية، أقسم الله بها حال عدوها، ويحتمل أن

---

(١) أخرجه البزار (٢٢٩١- كشف)، والدارقطني في «الثاني من الأفراد» (٥)، والواحدي (ص ٤٦٣)، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٦٧٣)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين» (٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧)، و«الدر المنثور» (٨/ ٥٩٩-٦٠٠)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٣٨).

تكون هي الخيل بخاصة، وهذا قول أكثر المفسرين؛ وخصُّوا الخيل لقوله: ﴿ضَبْحًا﴾، لأن الضَّبْح -وهو الحمحمة- هو صوت الخيل إذا أسرعت وركضت، فيصير لها صوت قوي في داخلها لا يبين، هكذا: (أح أح أح)، فهذا الصوت يسمى بالضَّبْح، وقد نُقل عن ابن عباس ﷺ وغيره أنه لا يضبح إلا الثعلب والكلب والفرس[1].

وقيل: هي الإبل، وهو مروي عن علي بن أبي طالب ﷺ، فيكون هذا على سبيل الاستعارة والنقل، فالإبل لا تضبح كما تضبح الخيل.

وقد روى الشَّعْبيُّ وغيره أن رجلًا سأل علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عند زمزم، فقال له: ما «العاديات ضبحًا؟»، فقال له عليٌّ: هي: الإبل. فكأن الرجل استغرب، فقال له علي: هل سألتَ أحدًا قبلي؟ قال: نعم. قال: مَن؟ قال: سألت ابن عباس. قال: فما قال لك؟ قال: قال: إنها الخيل. قال: عليَّ به. فجاؤوا بابن عباس- وكان هذا في خلافة علي ﷺ - فقال له علي: يا ابنَ عباس، أقلتَ في «العاديات ضبحًا»: إنها الخيل؟ أتفتي فيما لا علم لك بها، والله لقد غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وما كان معنا إلا فَرَسان، وما كانت إلا الإبل، فالعاديات هي الإبل، وقد أقسم الله بها وبغارتها[2].

وابن عباس ﷺ ما قال: إنها كانت في بدر أو في غيرها، وكأن عليًّا ﷺ يرى أن القَسَم هو بركائب المسلمين في بدر وغارتها، وظاهره أنه يرى أن السورة مدنية.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٤، ١٥٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٩)، و«نظم الدرر» (٨/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٨).

(٢) ينظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص ٣٦٤، ٣٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«المستدرك» للحاكم (٢/ ١١٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧)، و«تخريج الكشاف» (٤/ ٢٦٧).

﴿ضَبْحًا﴾: الضبح أو الضبع هو الصوت مع مد العنق، و﴿ضَبْحًا﴾، مفعول مطلق، أي: تضبح ضبحًا.

* ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ [العاديات:٢]:

أورى: أوقد أو شبَّ، فالذي يُوري هو الذي يقدح.

والمقصود: الخيل إذا جرت؛ لأنها تقدح النار إذا ضربت حوافرها في الصخر أو الحجارة التي في الأرض لسرعتها، فإنه يقع من جراء ذلك نوع من الشرر أو القدح، وهذا قول جمهور المفسرين[1].

وهذا يقوِّي القول بأن المقصود بها الخيل؛ لأن الإبل لا يقع لها ذلك بخفافها، إلا إذا قلنا بنوع من التكلف: إن الإبل إذا أسرعت تضرب الحجارة بعضها ببعض، ويقع من جراء ذلك قدح للنار أيضًا.

وقيل: «الموريات» هي نيران المجاهدين إذا أوقدوها؛ لأنهم غالبًا إذا هموا بالهجوم يوقدون النيران؛ حتى يظن أنهم كثير، ولو لم يكونوا كذلك.

وبعضهم قال: إن «الموريات» هي مكر الرجال، وتحريكهم لعقولهم في استنباط الحيل! أو هي ألسنتهم إذا كشفت الحجج وأبانت عنها.

وقيل: هي نيران الحجيج إذا أوقدوها بعرفة أو مزدلفة. وهذا على القول بأن «العاديات» هي الإبل إذا مضت بالحُجَّاج.

والأقرب أن المقصود: الخيل؛ لأنها إذا ضربت بحوافرها في الأرض الصلبة أورت النار؛ ولذلك يقول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غَيرَ أن سُيوفَهم ... بِهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتَائِب

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٠).

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضاعَفَ نسجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الْحُبَاحِبِ(١)

* ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات:٣]:

أي: المغيرات التي تُغِير على العدو في الصباح؛ لأنهم أكثر ما يُغيرون في الصباح؛ لأن الأمور في النهار مكشوفة، والنور يفضح.

وفي الحديث: «إنا إذا نَزَلْنَا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ الْمُنْذَرينَ»(٢). وهكذا في القرآن: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧].

وإذا كان المقصود بـ «العاديات»: الإبل، فتكون الغارة هنا هي الدفع من عرفة إلى مزدلفة، ثم الدفع من مزدلفة إلى منى والعرب كانوا يقولون في الجاهلية -كما في «الصحيح»-: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ؛ كَيْمَا نُغِيرُ»(٣).

وليست الغارة مقصورة على الحرب، بل دفع الإبل مجموعةً إلى مكانٍ ما يسمى غارة، ولو لم يغيروا على عدو، فهم كانوا يذهبون إلى منى بعد الإشراق، فيقولون: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ» -وهو جبل بمزدلفة- «كَيْمَا نُغِيرُ»، فلا ينصرفون إلا إذا سطع عليه نور الصباح.

فهذه ثلاث أشياء أقسم الله تعالى بها، وهي: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣].

---

(١) ينظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٥).

والفلول: جمع فل، وهو تشقق حد السيف، وقراع الكتائب: مجالدة الجيوش، وتقد: تشق، والسلوقي: درع منسوبة إلى سلوق؛ مدينة بالروم، والمضاعف نسجه: الذي نُسِج حلقتين حلقتين، والصفاح: حجارة عريضة، والْحُباحب: ذُباب يطير بالليل في أذنابه كشرر النار، وقيل: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١، ٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٨٤).

* ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ [العاديات:٤]:

«الإثارة» معروفة، وهي: تحريك الشيء الساكن، و«النقع» هو: الغبار، كما قال حسان ﷺ:

عِدِمنَا خيلَنـا إنْ لـمْ تـروْهَا تُثيرُ النقعَ موعِـدُهـا كـداءُ

وقال بَشَّار بن بُرْد:

كَأنَّ مثارَ النقعِ فَوقَ رؤوسِنـا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهُ

فـ «النقع» إذا جاء معه كلمة «أثار» فالغالب أن المقصود به الغبار، وضمير الهاء في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، يجوز أن يكون عائدًا إلى العَدْو المذكور في أول السورة، أو يعود إلى المكان الذي يُثار فيه الغبار.

* ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات:٥]:

يحتمل أن يكون الضمير كسابقه عائدًا للعَدْو، ويحتمل أن يكون عائدًا للمكان، أي: صرن في وسط هذا الجمع من الأعداء الذين استهدفتهم الغارة. وإذا قلنا: إن «العاديات» هي الإبل. فقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: مزدلفة، و«جمع» اسم من أسمائها، ومنه قولهم: ليلة جمع. أي: مزدلفة. فيكون المعنى: دخلت الإبل بمزدلفة حتى صارت في وسط هذا المشعر.

ومن الملاحظ أن السياق كان في البداية أسماء ثم صار أفعالًا، أقسم الله تعالى بـ«العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. ثم انتقل السياق وتغير، بخلاف سور أخرى مثل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، ومثل ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ والسياق هنا أبلغ مما لو ساق مجموعة من الأسماء المتسلسلة، كما قال الشاعر العربي، الذي يدعي أنه لقي الغول:

بأني قد لقيتُ الغولَ تهوي بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحَانِ

فأضرِبُها بلا دهْشٍ فخرَّت   صـريـعًـا لليـدَيْـنِ ولـلـجِـرَانِ[1]

فغاير بين الفعل الماضي والمضارع ثم الماضي.

فالتنويع يحدث عند الإنسان نوعًا من عدم الاسترسال، ويغيِّر النمط الذي سمعه.

* ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦]:

وهذا هو المقسم عليه، **فمَن هو الإنسان؟**

أكثر المفسرين على أنه الكافر أو الفاجر[2]. وهذا محتمل.

ويمكن أن يكون المقصود: جنس الإنسان من حيث هو؛ فأصله وطبعه كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، فكل الناس حملوا الأمانة، والغالب في الإنسان أنه ظلوم جهول، إلا مَن حفظه الله تعالى ورحمه.

وقد ورد من حديث أبي أمامة ﷺ مرفوعًا وموقوفًا: «**الكَنُود: الذي يضرِب عبدَه، ويمنعُ رِفدَه، ويأكلُ وحدَه**»[3].

ولا يصح، وهذه صفات سيئة في الإنسان، وهي بعض صفات الكنود، وقد وصف بصفات أخرى، فقال بعضهم: إن «الكَنُود» هو: الكفور الذي يجحد النعمة، ويكفر.

---

(١) ينظر: «ديوان تأبط شرًّا» (ص ٢٢٤-٢٢٥)، و«الكشاف» (٣/ ٦٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٢٧)، و«البحر المحيط» (٩/ ١٦).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٣).

(٣) أخرجه مرفوعًا: ابن جرير (٢٤/ ٥٨٦)، وابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٧)- والطبراني (٧٧٧٨، ٧٩٥٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٧١).
وأخرجه موقوفًا: ابن معين في «تاريخه» (٥٤٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٦٠)، والطبري (٢٤/ ٥٨٧). وهو ضعيف موقوفًا وأشد ضعفًا مرفوعًا، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٣٣).

ومنهم مَن قال: «الكنود» هو: الجحود الذي لا يعترف بالفضل والإحسان، وإنما يذكر السيئ.

ومنهم مَن قال: «الكنود» هو: الحقود، أو الحسود.

وبعضهم نظم هذا في أبيات فقال:

يا أيُّها الظَّالِـمُ في فِعْـلِـه والظُّلمُ مردودٌ على مَنْ ظَـلَـمْ
إلى مَتى أنتَ وحتَّى متَى تَشْكُو المُصيبَاتِ وتَنْسَى النِّعَمْ

أقسم تعالى على هذا الوصف، وكأن في ذلك إشارة إلى ما شرعه الله تعالى لعباده وأوجبه عليهم، من الجهاد بالنفس والمال، فالذي يحول بين الإنسان وبين طاعة الله تعالى هو حظ النفس، وما يكون في الإنسان من الجحود والكنود والنكران والأثرة وحب المال والنفس.

* ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾أي: الإنسان، وبعضهم يُرجع الضمير إلى الله؛ لأنه أقرب مذكور، وهذا ضعيف. والراجح الأول.

وهل الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود؟

هذا فيه إشكال، والذين قالوا: إن مرجع الضمير إلى الله، أرادوا الخروج من هذا الإشكال.

ولعل شهادته تكون بأنه يدرك ذلك من نفسه حال الهدوء والمراجعة والملاحظة والنظر في حال النفس، فإن الإنسان تمر به أحوال شتى، فربما غلب عليه الغضب أو الهوى أو الشهوة، ثم يفيق، ويشهد على نفسه بالخطأ، وتجد في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]؛ ولذا كان من أعظم ما يربِّي

النفس اعتياد المرء على مراقبتها ولحظ تصرفاتها ودوافعها وانفعالاتها وذلك ينفع أكثر مما تنفع نصائح الآخرين؛ لأنك قد ترى أنهم ظلموك أو جاروا عليك؛ ولذا قال سبحانه: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة:١٤-١٥].

ويحتمل أن يكون المعنى: يشهد بعضهم على بعض، كما يشهدون في مصالح الدنيا والحقوق وغيرها، فكذلك يشهد بعضهم على بعض في الآخرة وفي الدنيا، وهو اجتهاد في فهم الآية يخضع للأخذ والرد.

ونلاحظ أن الإنسان يدرك من عيوب غيره ما لا يدركه من عيوب نفسه، فهذا من الشهادة على الآخرين، فيشهد على فلان بأنه جحود، أو كذَّاب، أو بخيل، وفي الحديث الصحيح: «**هذا أَثْنَيْتُمْ عليه خيرًا؛ فوجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أَثْنَيْتُمْ عليه شرًّا؛ فوجَبَتْ له النارُ، أنتُمْ شهداءُ الله في الأرضِ**»[1].

وهي شهادة على نفسه من وجه آخر؛ فكونه يبصر القَذَاة في عيون الآخرين، ولا يبصر الجِذْع في عينه، دليل على أنه يشكو المصيبات وينسى النعم، ويرى السيئات ويجحد الحسنات.

ويحتمل أن المعنى أنه يشهد على نفسه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، فتشهد على الإنسان جوارحه بكل ما عمل.

وهناك معنًى خامس، وهو أنه يشهد بلسان الحال، وإن لم يشهد بلسان المقال، يعني: قد لا يعترف الإنسان بأنه كنود وجحود، لكن حاله تشهد بذلك، وأنت إذا قرأت في كتب الأدب، كـ «العِقْد الفريد»، أو كتب ابن قتيبة، كـ «عيون الأخبار» والكتب الجوامع؛ وجدتهم كثيرًا ما يذمون جنس الإنسان. ويقولون الناس صاروا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

شوكًا لا ورق فيه، ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المُتَنَبِّي:

ولما صار ودُّ الناس خِبًّا جَزَيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصِرتُ أَشكُّ فيمَنْ أصطفِيهِ لعِلْمِي أنَّهُ بَعضُ الأَنَامِ[1]

وقال المعتصم بن صُمادح:

وزهَّدني في الناسِ معرفتي بهم وطولُ اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خِلًّا تسرُّني مباديه إلا ساءني في العواقبِ
ولا صرتُ أرجوه لكشفِ ملمَّةٍ من الدهرِ إلا صار إحدى المصائبِ[2]

ولعل جميع هذه المعاني صحيحة.

ويحتمل أن تكون ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «مع»، كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]. يعني: مع حبه، فيكون المعنى: وإنه مع ذلك لشهيد، يعني: شهيد على هذه الحقيقة.

* ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]:

أكثر المفسرين على أن المقصود بالخير هو المال، وقد يكون المقصود جنس الخير ويشمل المال وغيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، والغالب أن المال محبوب، وأن الناس يعدُّونه خيرًا، وأنه سبيل إلى الخير.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: أنه يحب المال حبًّا شديدًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٣)، وشرحه المنسوب لأبي البقاء العكبري (٤/ ١٤٤).

(٢) ينظر: «البرق الشامي» (٣/ ٨١)، و«المطرب» (ص ١٧٣)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٥١)، و«المغرب في حلي المغرب» (٢/ ١٩٧).

وبعضهم يقولون: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ يعني: لبخيل بسبب حب المال، فتكون اللام هنا سببية، والشديد تأتي بمعنى البخيل، كما قال الشاعر:

أرى الموتَ يَعتامُ الكرامَ ويَصْطَفِي   عَقيلةَ مالِ البَاخِلِ المتَشدِّدِ

المتشدِّد: الممسك. والمعنى متقارب.

وهذا مقسم عليه في السورة؛ فالله أقسم على أن الإنسان كنود، وأنه على هذا شهيد، وأنه لحب المال لشديد.

* ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩]:

هنا بدأ الوعظ والتخويف والزجر والتهديد، والمعنى: أفلا يعلم هذا الإنسان إذا بُعثر ما في القبور؟

و«البعثرة»: كلمة تدل على شيء غير منظم، يقال: أشياء مبعثرة: مرمية على غير انتظام، فما أثير وأخرج وفرق ورمي على غير انتظام يقال له: مبعثر.

ولم يقل: (مَن في القبور)، مع أن المقصود هو الإنسان، للإشارة إلى أنه يبعث كل ما في القبور، حتى الحيوانات تحشر.

ولأن الإنسان حينما يبعثر من قبره ليس عاقلًا ولا مكلَّفًا ولم تعد إليه روحه، فكان كما لو كان غير عاقل، وعومل معاملة غير العاقل، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى أن الناس يوم القيامة يكونون كما قال عنهم ربهم: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

* ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]:

أي: أُبرز وأُظهر وبُيِّن ومُيِّز، كما قال لَبِيد:

وكُلُّ امْرِئٍ يومًا سَيعلمُ سَعْيَهُ   إذا كُشِّفَتْ عِندَ الإلهِ الحُصَائِلُ

وهذا يعني إظهار الصحف التي تتطاير يوم القيامة، وفيها كل شيء، أو يعني أن يظهر الإنسان يوم القيامة على حقيقته، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩].

* ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]:

وربهم سبحانه وتعالى خبير بهم في كل حال وفي كل حين، ولكن يومئذ: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، ولا يجادل أحد في علمه سبحانه وتعالى كما كان يجادل في الدنيا؛ فالخبرة تظهر ظهورًا ضروريًّا لا يجادل فيه أحد.

الترابط الموضوعي في السورة:

لما أقسم الله سبحانه وتعالى بـ «العاديات وضبحها»، ثم بـ «النار التي تُورى وتُقدح»، ثم بـ «الغارة التي تشنها هذه الخيل أو الإبل»، نلاحظ تسلسلًا متسقًا:

فالآية الأولى تتعلق باحتدامٍ واندفاع من داخل النفس، وذلك هو الضبح.

ثم في الآية الثانية: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾. تأخذ الخيل في سرعة شديدة حتى إذا ضربت بحوافرها الحجارة الصلبة أورت النار قدحًا وهو أمر عَرَضي، لكنه مشهد واقع لتلك الخيل المغيرة.

ثم في الآية الثالثة: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾. والغارة مقصودة يقينًا، وهي الغاية.

وهكذا لو تأملت لوجدت أن الأشياء كلها -والله أعلم- تمر بهذه الدرجات الثلاث، تبدأ من داخل النفس حركة شعور وإرادة ورغبة وهمة؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**أحبُّ الأسماء إلى الله عز وجل: عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها: حارثٌ وهمَّامٌ**»[1]؛ وهي تتطلب نقل ذلك إلى الواقع بعمل دؤوب وجهد متواصل ويمكن تشبيه هذا بـ«الموريات قدحًا»، وهذه هي **الدرجة الثانية** التي هي الانطلاق

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤)، وأبو داود (٤٩٥٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٠٤، ١٠٤٠).

والسير والمواصلة والوسيلة.

ثم الثالثة: هي ثمرة العمل والجهد الذي كان همًّا بادئ الأمر، فمَن هَمَّ بتجارة، أو بزواج، أو ببناء، أو بوظيفة، أو بتخصُّص؛ فإنه يكون في أول الأمر همًّا يختلج في داخل النفس، ثم ينتقل إلى جهد وعمل ميسر، وينتهي إلى الهدف المقصود.

وبدأ الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بالأسماء، فقال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، ثم انتقل إلى الفعل، فقال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ لأن المقصود الأعظم والأسمى هو الفعل الذي يراد من الإنسان أن يصل إليه.

وخذ على سبيل المثال: الحرب، حيث يقول الشاعر:

أرى خَللَ الرَّمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشِكُ أن يكونَ لها ضِرامُ

فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذْكَى ... وإنَّ الْحَربَ أوَّلُها كَلامُ

إذا لم يُطْفِها عُقَلاءُ قومٍ ... يكونُ وقودُها جُثَثٌ وهَامُ

ولماذا شرَّف الله الخيل؟ ولماذا أقسم الله بها؟ هل ذلك لكونها حيوانًا فقط؟

الجواب: لا، وإنما يكون شرف الخيل بشرف مالكها، وهو الإنسان.

فالله تعالى أقسم بالخيل بالنظر إلى أن الإنسان هو سائقها وسائسها ومالكها، وفضلها من فضل مستعملها؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة لرجل أَجْرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وزرٌ**»[1].

ومن هنا كان القَسَم بها في هذه السورة.

والإنسان نفسه عبارة عن جسد وروح، وشرف الإنسان ليس ببدنه أو بقوته، أو بجماله أو بكبريائه، أو بطوله أو بعرضه، أو بوزنه أو بشعره، وجسم الإنسان عبارة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن مركوب، والراكب هو الروح والعقل والنفس، فإذا كانت النفس شريفة بتقوى الله تعالى وطاعته، وبالعلم النافع وبالعمل الصالح وبالهمم الكبار، كان شرف الجسم تبعًا لذلك، وإذا صار مدار أمره على الدنيا من المال والشهوة والمنظر الجميل؛ فإنه يفقد بذلك معناه وقيمته.

وفي السورة معنًى آخرُ يتعلق بالزمن؛ فقد بدأ الله تعالى بـ «العاديات»، وهذا يصدق على «العاديات» في كل ساعة من ليل أو نهار، ثم انتقل إلى معنًى أخص وهو «الموريات»، وهذا إنما يكون في الليل، ثم انتقل إلى معنًى أخص منه وهي «المغيرات»، وهذا غالبًا يكون في الصباح، ولذلك قيده في الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ [العاديات:٣].

وفي ذلك إشارة إلى شرف الوقت وأهميته، وأن مدار الجزاء الموعود في آخر السورة هو على استثمار هذا الوقت الذي يتناقص، فيكون عندك واسعًا في أول الأمر، ثم يضيق عليك شيئًا فشيئًا.

والتسلسل الزمني في: «العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. يتناسب مع المقسم عليه؛ فإن الله تعالى أَقْسَم على ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦]، وقلنا: إن الكنود هو: الجحود، فهذا يتعلق بالأرض السبخة اليابسة التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، وهذا من معاني الكنود.

الثاني: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات:٧]، فتنتقل من مقام الجحود إلى مقام الاعتراف، فهو يعترف على نفسه، سواءً اعترف بلسانه على نفسه أو اعترف على غيره، وهذا يتضمن الاعتراف على نفسه، أو أن المقصود الاعتراف في الدار الآخرة.

الثالث: ثم انتقل بعد ذلك إلى مقام البخل والإمساك، والعمل، وحب الخير الذي من معانيه: حب المال، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨].

ويقابل ذلك ثلاثة أشياء، ذكرها تعالى في السورة نفسها؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]، يقابله قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩]. فهذا الإنسان الكنود الجحود هو كالأرض السبخة، ويوم القيامة تقع البعثرة، فتحفر القبور، ويخرج من فيها من الناس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، هذا الاعتراف يقابله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]، وقد يكون هذا من معاني قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، وسبق احتمال أن المقصود شهادته في الدار الآخرة على نفسه، فقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:١٠]. هو باعتراف جوارحه أو بشهادة غيره عليه أو بشهادة الكرام الكاتبين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، وكما في الحديث: «أَوَ لَيْسَ كَفَى بِي شهيدًا، وبالملائكةِ الكرامِ الكاتِبِينَ؟!»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]. هذا قد يناسب قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، فهو الآن يحب ما يعتقد أنه خير، وهو المال، ولا ينفقه، وقد يكون هذا المال شرًّا له، فإذا قيل له: أنفق. تمنَّع ورفض، وقال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد:٦]، وهذا في الناس كثير، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]، فهو خبير بما أنفقوا، وبما لم ينفقوا، بل هو خبير بما عرفوا من عيوبهم وأخطائهم، وما تجاوزوا، وهكذا يتبين خيط دقيق بين الأشياء التي أقسم الله تعالى بها وبين الأشياء التي أقسم الله تعالى عليها، وهي المعاني الثلاثة، وبين الآيات الثلاث التي فيها الوعظ والتذكير بالدار الآخرة،

---

(١) أخرجه البزار (٧٤٧٦)، وأبو يعلى (٣٩٧٥)، وابن جرير (٢٠/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم -كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٧٠)- والحاكم (٤/ ٦٠١)، والثعلبي (٨/ ٢٩١) من حديث أنس ﷺ.

فالإنسان يخرج من القبر بعد أن كان فيه، ثم يخرج منه ما كان في صدره، أو قلبه.

وفي ختام السورة إشعار بأن الجحود والإنكار لن يجديهم شيئًا، فالله عليم خبير لا تخفى عليه خافية.

وهذه السورة وغيرها تجعل الإنسان دائمًا في حالة رقابة للنفس، وهذه من المقامات العظيمة التي قد يغفلها الكثير من الناس، وقد رأيتُ من المربِّين والدعاة مَن قد يلاحظ الآخرين أكثر مما يلاحظ نفسه؛ لأن الآخرين بمرأى عينه وسمعه وبصره، فهو نَقَّاد دقيق الملاحظة، لكنه عن نقد نفسه في غفلة.

والمشكلة أن في الإنسان خِلَّتين؛ إحداهما شرٌّ من الأخرى: غفلته عن عيوبه؛ لأنه مشغول بالآخرين.

قَبِيحٌ مِنَ الإنسانِ ينْسَى عيوبَهُ ويذكُرُ عَيْبًا في أَخِيهِ قَدِ اخْتَفَى

كثرة النقد للآخرين مما يولِّد لديه احتقارًا وازدراءً لهم، وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس**»[1]. فبَطَرُ الحقِّ هو: جحده، بحيث لا يرى في نفسه عيبًا.

وقد يُبتلى بالكِبر طالب العلم أو الداعية أو الواعظ أو غيرهم، فيكون كبيرًا في عين نفسه، ويرى من نفسه ما لا يراه الناس، ولذلك يقول الشاعر:

تَواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لنَاظرٍ على صَفَحاتِ الماءِ وَهوَ رفيعُ

ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلُو بِنَفْسِه إلى طَبَقَاتِ الجوِّ وَهو وَضِيعُ

فالإنسان المتكبِّر مثل الدخان في سرعته وخفته، والإنسان المتواضع مثل النجم، يُرَى في الماء وهو في مكانه، فهما أمران متلازمان: الكبر الذي هو بطر الحق وجحده، ورؤية الإنسان نفسه بمنظار الكمال.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).


سورة القارعة

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

[القارعة:١-١١].

* تسمية السورة:

لا يعرف لهذه السورة اسم إلا: «سورة القارعة»، وهذا ما ورد في جميع المصاحف وكتب التفسير وغيرها، ولم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أو الأئمة تسميتها بغير هذا الاسم[1].

* عدد آياتها: إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي، وعشر آيات في مصحف مكة والمدينة، وثمان آيات في مصحف البصرة والشام[2]؛ وذلك بحسب تقسيم الوقفات، فـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢] بعضهم يعدها آيتين وبعضهم يعدها آية واحدة... وهكذا.

* وهي مكية بإجماع العلماء، وممن حكى ذلك: ابن الجوزي، والقرطبي، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٦)، و«زاد المسير» (٩/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

وقد ورد في فضلها حديث ضعيف، أن النبيَّ ﷺ دخل على أبي بكر وعمر، فرأوا في وجهه ولحيته الشيب، فحزنوا وقالوا: شِبْتَ يا رسول الله! فقال ﷺ: «شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها، وآلُ حامِيم، والمرسلاتُ، والقارعةُ».

وفي الحديث اضطراب، وفي معظم رواياته لم يرد ذكر «القارعة»[1].

* ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١]:

مأخوذة من القرع وهو الطرق أو الضرب بشدة، وسُمِّيت: «القارعة»؛ لأنها تقرع الآذان بجلجلتها وزلزلتها، وتقرع القلوب بمخاوفها ووجلها وتساؤلاتها؛ وتقرع العقول بالحيرة، حتى تدع الحليم حيرانًا: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

و«القارعة» هي الحادثة العظيمة الجليلة، ومثل هذا في المعنى: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد:٣١]، والمقصود بهذه الآية ما يصيبهم في الدنيا من نكبة أو عذاب.

وجمهور المفسرين على أن القارعة هي القيامة، فتكون اسمًا من أسمائها.

ويرى بعضهم أن القارعة هي النفخة الأولى.

وذهب آخرون إلى أنها النار، والأرجح الأول، أن القارعة هي القيامة، وهذا أحد أسمائها، ولها أسماء أخرى، مثل:

«الحاقة»، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣].

(١) تقدم تخريجه في أول «سورة التكوير».

«**الطامة**»، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات:٣٤].

«**الصاخة**»، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣].

«**التغابن**»، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

«**يوم الدين**»، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

«**الغاشية**»، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

«**الساعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨].

«**يوم التناد**»، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢].

«**الجاثية**»، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨].

«**الواقعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١].

«**الزلزلة**»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]... إلى غير ذلك من الأسماء الكثيرة، والقرآن الكريم مليء بها.

* ولما ذكر الله القارعة قال: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:٢]، ومن بلاغة القرآن استخدام أسلوب الاستفهام؛ لأن كثيرًا من الحقائق والمعاني الكبيرة تمر على الناس دون أن يتفطَّنوا لها، والأسئلة في القرآن الكريم على نوعين:

الأول: أن يرد ذكر السؤال ومعه الجواب، ويكون المقصود لفت النظر للجواب.

والثاني: أن يرد ذكر السؤال وليس معه جواب، وحينئذ يكون المقصود إعمال الذهن وتحريك الفكر بحثًا عن الجواب.

فهنا ليس المقصود السؤال عن اللفظ اللغوي؛ لأن كل واحد يعرف أن «القارعة» هي الشيء الذي يقرع، بل السؤال عما جاء في السورة نفسها، فهو استفهام تعظيم وتهويل لا ينتظر له جواب.

* ثم كرر السؤال بصيغة أخرى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:٣]:

أي: ما أعلمك؟ وكأن المعنى يشير إلى أن القارعة فوق مستوى إدراك الإنسان وعقله وفهمه، والآيات التي فيها استخدام هذا اللفظ في القرآن كثيرة، منها:

موضعان في سورة القارعة: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:٣]، وفي آخر السورة قال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾ [القارعة:١٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٧]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:٣]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر:٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق:٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [الهمزة:٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطففين:٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطففين:١٩].

ففيه الإشارة إلى أن البشر لا يستطيعون أن يستقلوا بمعرفتها ولا أن يدركوها بمحض عقولهم، وأن المصدر الذي يمكن أن يعلِّمهم بها هو القرآن، والله تعالى وحده هو الذي يعلم حقيقة هذه الأشياء ويطلع عباده منها على ما يشاء، ولهذا خوفنا الله تعالى من النار ورغبنا في الجنة، ومع ذلك أخبر النبي ﷺ أن في الجنة: «ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشَرٍ»[1].

لو حركت خيالك للتعرف على نعيم الجنة ما استطعت، ولو حركت خيالك للتعرف على عذاب النار ما استطعت، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

في الدنيا إلا الأسماء»[1].

فالعقل محدود بحاجز الزمان، ولا يعرف الكثير من الماضي أو المستقبل.

وبحاجز المكان؛ فلا يعرف ما وراء المكان الذي هو فيه بحواسه مجردة.

وبحاجز الإمكان؛ فهو ينفع في مجاله وميدانه ويتوقف حين يوضع أمام قضايا عينية لا تعرف نواميسها.

* ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة:٤]:

قد يظن أن هذا الجواب للاستفهام السابق، والذي يظهر أن هذا ليس جوابًا؛ لأن السؤال كان عن ما هية القارعة، أي: حقيقتها.

أما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ فهو وصف لبعض حوادث ذلك اليوم، ومع هذا لم يحدِّد زمن ذلك اليوم الموعود؛ لأن الساعة من الأمور التي لا يَعلم ميقاتها إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فلا مجال للسؤال عن تحديد اليوم هنا؛ ولذا انتقل إلى وصف مشهد من مشاهده، كأنها يشهده الإنسان، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٤-٥]، ذكر الله تعالى في هذه السورة تغييرين، أحدهما يتعلق بالإنسان، والآخر بالجبال.

فعلى رغم ثقلها وصلابتها إلا أنها ستكون كالعهن المنفوش، وأما الناس

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦) (٢٦٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٦) (٦). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

فسيكونون ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

والفراش: هي الحشرات التي تتطاير حول النار، وكثيرًا ما تقع فيها، كما في الحديث الصحيح: «**إنما مَثَلي ومثلُ النَّاس كمَثَل رجل استوقدَ نارًا، فلما أضاءتْ ما حولَهُ جعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تقعُ في النار يقعنَ فيها، فجعل ينزعُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وهم يَقْتَحِمُونَ فيها**»(1). وكثيرًا ما يضرب بها المثل بالجهل والطيش وسوء المعرفة بالعواقب.

فالناس يكونون كالفراش المبثوث، وفي سورة القمر وصفهم بوصف آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:7].

وهناك فرق بين «الفراش» و«الجراد»، فالناس قد شُبِّهوا بالفراش في تفرقه، فكل واحد يهيم على وجهه على غير هدى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:34-36].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:11]، ليس له مكان يختفي فيه، ولا يوجد مكان يلجأ إليه، فهذا ما يتعلق بالفراش.

وشُبِّهوا بـ«الجراد» في خروجهم من الأَجْداث- أي: القبور- في كثرة واضطراب يكاد يركب بعضه بعضًا، وما بالك بموقف يحشر فيه الناس كلهم أولهم وآخرهم من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى آخر الناس، على صعيد واحد، فهاهنا الاضطراب والتداخل.

* ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:5]:

هنا ثنَّى الله تعالى بالجبال التي ذكر أنها تصبح كالعهن المنفوش، وهو الصوف،

---

(1) أخرجه البخاري (6483)، ومسلم (2284) من حديث أبي هريرة ﷺ.

كما عند جمهور المفسرين[1].

والمنفوش: هو المتفش المتطاير الخفيف، فهذه الجبال القوية المتينة تضعف حتى تصبح كالصوف المتفش المتطاير.

وفي «سورة النبأ» بيان لاختلاف الأخبار عن الجبال في يوم القيامة وتوجيهها.

فإذا كانت الجبال يقع لها مثل هذا، فما بالك بالإنسان وما يقع له من الروع والخوف والقلق؟ وفي هذا يقول أبو العلاء المَعَرِّي لما رثى والده:

فيا ليتَ شِعرِي هل يخِفُّ وقارُه   إذا صارَ أحدٌ في القيامةِ كالعِهْنِ

وهل يَرِدُّ الحوضَ الروِيَّ مُبادرًا   مع الناسِ أم يأبى الزِّحام فيستأني

* ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦-٩]:

وهذه الآيات هي مقصود السورة؛ فالنهاية إما جنة أو نار، والميزان هو الحكم العدل.

لقد بدأ الله سبحانه بـ «من ثقلت موازينهم» تقديمًا لجانب الرضا والرحمة منه؛ لأن الناس في حال رعب وخوف، وفي السورة وصف لهذا المشهد، حيث ذكرت حال الناس والجبال، والصوت المرعب، فهو تعالى أسرع بالرحمة والرضا، ولذلك قدم من ثقلت موازينه من أهل الجنة؛ لأن رحمته تسبق غضبه.

والجمع هنا قد يدل على وجود أكثر من ميزان، وقد يكون الميزان واحدًا وإنما تعدد بحسب الأعمال، وقد يكون الأمر شيئًا آخر مما يعلمه ربنا ولا نعلمه، لكننا

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٢٥٨)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٤)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٢).

نؤمن بأن عند الله تعالى موازين، وهذا في القرآن واضح، كما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧].

بل السياق يوحي بأن لكل مكلَّف (موازين) تطيش أو تثقل، نحن أمام موازين عدل توزن بها الأعمال، فمَن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومَن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، أما كيفية الوزن، فأنت لا تعرف ما هو أهم من هذا وهو حقيقة يوم القيامة، ولا تستطيع أن تتخيل ما يجري فيه، إلا أن الله تعالى قرَّبه إليك بهذه المعاني التي تطيقها لغتك ويدركها عقلك، فلا تُدخِل نفسك فيما هو خارج عن حدود عقلك ولا يدركه فكرك، وعليك أن تؤمن بالله وبكتابه دون الحاجة إلى تخييل أو تأويل.

وجمهور أهل السنة يؤمنون بالموازين ويثبتونها، سواءً كانت ميزانًا واحدًا أو موازين، وبعضهم يقولون: توزن الأعمال ويوزن الأشخاص وتوزن السِّجِّلات والصحائف، وهذا كله لا حرج فيه.

لكن ليس مطلوبًا أن نخوض في جدل حول هذه القضايا، بل المهم هو النظر فيما تثقل به الموازين، وربما يطيل بعضهم الجدل حول الموازين وتكون موازينه مملوءة بالغيبة والنميمة، والقيل والقال، والغل والحسد، والحقد والكذب، والشحناء..، ففقه اللسان لا يغني عن فقه القلب.

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي: في عيشة ذات رضا، يعني: اندمج فيها الرضا، فأصبحت العيشة نفسها راضية، فضلًا عن صاحبها الذي يتمتع بهذه العيشة الراضية المرضية، فهو في عيش ناعم منعم.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ يعني: من الكفار أو من المسلمين المسرفين على

أنفسهم بالذنوب والمعاصي الذين كانت سيئاتهم أكثر من حسناتهم، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

والحق ثقيل، كما قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[1]، فإذا أردت أن يثقل ميزانك فعليك بعمل الصالحات والاجتهاد في الطاعات، واستجماع الإرادة والعزيمة، ومدافعة للنفس، أما الباطل فخفيف، لا يحتاج إلى عناء واجتهاد ذي بال.

وهذه الآية تحتمل ثلاثة معانٍ:

١ - أن المقصود بـ «الأم»: جهنم؛ وسمَّاها أمًّا له لأنه يأوي إليها، فهي مثل الأم، وهو معروف عند العرب، يقول أُمَيَّة بن أبي الصَّلت:

الأرضُ معْقِلُنا وكانَتْ أمَّنا فيها مقابِرُنا وفِيها نولَدُ[2]

فشبَّه الأرض بالأم؛ لأنه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، ويقول أبو القاسم الشَّابي من المعاصرين:

وقالتْ لِيَ الأرضُ لَمَّا سألتُ أَيا أُمُّ هل تكرَهِينَ البَشَرْ؟![3]

٢- أن المقصود بـ «الأم»: الرأس، وهذا معروف أيضًا، يقولون: أم رأسه. يعني: رأسه. كأنه يقول: أمُّ رأسِهِ تهوي في النار. فعلى هذا يكون التقدير: فأم رأسه

---

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ١٣٧)، (٢/ ٨٤)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣٠)، و«الآداب الشرعية» (١/ ٤١).

وهو مروي من قول ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما وغيرهما. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٢٩٠، ٨٥٠، ١٣٣٠)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣٤)، (٤/ ٣٦٥)، (٨/ ١٤٥)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٤٢٨).

(٢) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ١٧٣)، (٥/ ٢٣٣).

(٣) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص٩١).

هاوية. كأنه يقول: رأسُه تَهوِي وتتردَّى في جهنمَ.

٣- يعني: أمه ثاكلة حزينة، أو في مقام الحزينة، وكأنه مثلٌ يضرب، ولذلك يقول سعد الغنوي في رثاء أخيه:

هَوَتْ أُمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غاديًا وماذا يؤدي الليلُ حين يؤوبُ

(هَوَتْ أُمُّهُ): يعني: على سبيل التوجع له، كما يقولون: فلان ثكلته أمه. وهذا لا يراد به حقيقة معناه.

والأول أرجح أن ﴿هَاوِيَةٌ﴾ صفة لجهنم، يعني: فأمه نارٌ هاوية، وليست اسمًا لها؛ لأنها منونة في القرآن، ولو كانت اسمًا لكانت ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث، فالمقصود أنها هنا وصف للنار وليست اسمًا لها.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة:١٠-١١]:

أي: الهاوية، والهاء في: ﴿مَا هِيَهۡ﴾ هاء السكت، وهي تنطق وقفًا ووصلًا عند جمهور القراء، أي: هي نار حامية، وكل نار فهي حامية.

و﴿حَامِيَةُۢ﴾ هنا توكيد لفظي، كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧]، وكأن المعنى: أن هذه النار مستعدة لهم أصلًا، والناس تعودوا في نار الدنيا أن يجمعوا حطبًا؛ حتى يوقدوا النار، فتشتعل مرة وتنطفئ مرة أخرى، أما نار الآخرة فشيء آخر، فلا تقاس بنار الدنيا، وقد أُوقد عليها -كما في بعض الآثار- ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام[1]، وفُضِّلَت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا[2]، كلهن مثل حرِّها، فكأن النيران الأخرى لا تعد شيئًا بالقياس

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٩١٠، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ٥٤٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٣).

إلى نار الآخرة.

أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجيرنا من النار، وأن يجعلَنا من أهل الجنة دارِ القرار، وندعو بما كان يدعو به عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهمَّ إن لم أكن أهلًا أن أبلُغَ رحمتك، فإن رحمتك أهلٌ أن تبلُغَني؛ رحمتُك وسِعَت كلَّ شيءٍ، وأنا شيءٌ، فلتسعْنِي رحمتُك، يا أرحمَ الراحمين»[1].

○ ○ ○

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٨).


سُورَةُ التَّكَاثُرِ

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:١-٨].

* تسمية السورة:

١- اسمها المشهور: «سورة التكاثر»، وهذا المُثْبت في معظم المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

٢- وتسمَّى السورة عادة باسم الكلمة الأولى منها، فيكون من أسمائها: «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾»، وهذا ذكره البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، وساق فيه حديثًا سيأتي قريبًا.

والبعض يضيف قوله: ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فيسميها: «سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»[2].

٣- وكان بعض الصحابة ﷺ يسمونها: «سورة المَقْبَرة»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٦)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٢٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

* عدد آياتها: ثمان آيات بلا خلاف[1].

* **وجمهور المفسرين على أنها مكية[2]، بل حكى ابن عطية في «المحرر الوجيز» الإجماع على ذلك[3].**

والصحيح أن في ذلك خلافًا، وإنما هو قول الجمهور، والقول الآخر أنها مدنية، وقد يعزِّز هذا حديث أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«لو أن لابن آدم واديًا من ذهبٍ، أَحبَّ أن يكونَ له واديان، ولن يملأَ فاهُ إلَّا الترابُ»[4].**

قال البخاري رحمه الله: وقال لنا أبو الوليد -أي: الطيالسي-: حدَّثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: كنا نرى هذا من القرآن - يعني: قول النبي ﷺ: **«لو أن لابن آدم واديًا من ذهبٍ أحبَّ أن يكونَ له وادِيان»- حتى نزلت:** ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١][5].

وهذا يدل بظاهره على أن السورة مدنية؛ لأن أبي بن كعب وأنس بن مالك رضي الله عنهما من الأنصار[6].

لكن في الاستدلال بالحديث نظر؛ لأمور:

١- سنده ليس على شرط الصحيح؛ لأن البخاري لم يقل: «حدثنا أبو الوليد».

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥١٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٤٠).

(٦) ورجح ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٤٤٢)، والسيوطي في «الإتقان» (١/ ٤٦) كونها مدنية.

بل قال: «وقال لنا أبو الوليد». وفي الغالب أنه لا يقول هذا إلا لشيء في الإسناد[1].

٢- أن قول أُبَيٍّ بن كعب: «كنا نرى»، لا يلزم أنه يتكلم عن نفسه، بل يحتمل أنه يتكلم عن جماعة الصحابة ﷺ، وعلى هذا الاحتمال فلا يكون الكلام خاصًّا بأُبَيٍّ، وإنما بالمسلمين، ولا يلزم أن يكون بالمدينة.

٣- قوله: «كنا نرى هذا من القرآن». الغالب أن المقصود أنهم كانوا يظنونه من القرآن، والذي يغلب على ظني -والله أعلم-: أنه لا يعني أنهم كانوا يعتقدونه ويحسبونه من المصحف؛ لأن بلاغة القرآن وتميزه عن سائر الكلام لا يخفى، وحديث: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب، أحب أن يكون له واديان**»، فليس له إعجاز الأسلوب القرآني، وإن كان كلامًا فصيحًا قويًّا، فلعلهم كانوا يظنونه من الأحاديث القدسية؛ لأن النبي ﷺ ربما يقول لهم في أوله أحيانًا: «قال الله تعالى». والحديث القدسي يشترك مع القرآن الكريم في كونه منسوبًا إلى الله تعالى، لكن القرآن مُعْجِز متعبَّد بتلاوته متحدًّى به، بخلاف الحديث القدسي، فليس مُعْجِزًا ولا متعبَّدًا بتلاوته ولا متحدًّى به، ولا يُقرأ به في الصلاة، مثل قول الله تبارك وتعالى: «**إني حَرمتُ الظلمَ على نفسِي وجعلتُه بينكُم محرَّمًا فلا تَظَالموا**»[2]. ومثل قوله تعالى: «**إنَّا أنزلنا المالَ إلا لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ**»[3]. فهذه أحاديث قدسية ينسبها النبي ﷺ إلى ربه، وقد يكون ألقاها جبريل ﵇ إليه، لكن ليس في لفظها إعجاز ولا تحدٍّ.

فقد يكون الصحابة ﷺ ظنُّوا هذا الحديث من هذا الباب، وإلا فهم أهل البلاغة والفهم والإدراك وجودة اللغة، وكانوا يميِّزون بين القرآن الفصيح البليغ

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٠٦) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٩).

الـمُعْجِز الذي هو تنزيل من حكيم حميد، وبين ما كان دون ذلك مما لا تتوافر فيه هذه الشروط.

وقد يكون حصل ذلك لبعض المؤمنين في أول عهدهم بالإسلام قبل أن يتمكَّنوا من إدراك جوانب البلاغة والعظمة في القرآن الكريم، فوقع عندهم شيء من عدم التمييز بينه وبين سائر الكلام.

كما استدل القائلون بأنها مدنية بما ورد عن مقاتل وغيره أن سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ نزلت في مفاخرةٍ بين بعض قبائل المدينة أو اليهود، فهذه القبيلة فاخرت تلك القبيلة، وقالوا: نحن أكثر منكم، ومنا السادة، ومنا، ومنا، ومنا...، فلما انتهوا من الأحياء، قالت إحدى القبائل: هلم نذهب إلى القبور حتى نتفاخر بالأموات؛ فسيدنا فلان الذي مات منذ كذا وكذا، فصاروا يتفاخرون بهم، فذهبوا إلى المقابر يتفاخرون بالموتى(1).

ولو صح هذا الوجه في سبب النزول لكان دليلًا على أن السورة مدنية.

لكن ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن قبائل من العرب من بني عبد مناف وبني سهم وغيرهما من القبائل المكية، تفاخروا حتى وصلوا إلى القبور فتفاخروا بها(2).

والأقرب أن السورة خطاب مَكِّيٌّ؛ لأنه وعيد للكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين لهوا بأموالهم وبأولادهم، ومثل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 168)، و«فتح القدير» (5/ 694).

(2) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص 305)، و«التحرير والتنوير» (30/ 517، 518)، و«اللباب» لابن عادل (20/ 476)، و«الدر المنثور» (15/ 615)، و«فتح القدير» (5/ 693).

أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ﴾ [المدثر:١١-١٦].

في حين أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في الغالب خطاب عطف ولطف وحماية، وتناسب بين الخوف والرجاء، وغالبًا يُذكر الوعد والوعيد، ولم يكن المسلمون في مطلع العهد المدني أهل مال وثراء وجاه، ومَن كان كذلك لم يكن هذا يلهيه عن آخرته.

فالراجح هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن السورة نزلت بمكة قبل الهجرة.

* ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]:

أي: شغلكم، وجعلكم تلهون به عما هو خير منه وأبقى، أي: شغلكم عن الأمور المهمة.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هو تفاعل من الكثرة، ولها ثلاثة معانٍ:

١- الاستكثار من شيء وطلب الزيادة منه، كإنسان عنده مال فيطلب المزيد، فهذا نوع من طلب الكثرة، وإنسان عنده أولاد، وهو يريد المزيد.

وطلب الزيادة يلهي غالبًا عن ذكر الله.

٢- مسابقة الآخرين ومغالبتهم، فيما يتنافس الناس فيه من جاه أو علم أو مال أو ولد، وقد لا يكون له رغبة في الشيء ذاته بقدر الرغبة في الغلبة والسبق، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠]، فالتفاخر يكون مع الآخرين؛ لأن الإنسان لا يتفاخر مع نفسه، إنما يتفاخر مع الآخرين.

وهذا هو الموضع الثاني الذي ذُكر فيه لفظ (التكاثر) في القرآن، وهو التنافس مع الآخرين.

٣- المفاخرة بالكلام دون الفعل وهو مقصور على المفاخرة بما مضى من أفعالهم أو أفعال آبائهم.

والآية عتاب ولوم على التكاثر في أمر الدنيا والغفلة عن الآخرة، وأن العبرة بالكيف لا بالكم، أما الاهتمام بالكم فهو التكاثر.

وغالب الناس مشغوفون بالكم أكثر من الكيف، فتجد الإنسان حريصًا على جمع المال ورصده، لا يبالي أمن الحلال أم من الحرام؟ وقد يكون بخيلًا، فلا يرى عليه أثر النعمة والغنى، فيعيش عيشة الفقراء محرومًا من طيب اللباس والطعام والسكن، وما هو إلا وبال عليه، كما قال علي رضي الله عنه: «عجبتُ للبخيل؛ يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيشُ في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء!»[(١)].

ومثله: التكاثر في عديد الأولاد، دون اهتمام بالتعليم والتربية والأدب، وكأنه في زمن الجاهلية، يريد أولادًا يخوِّف بهم أعداءه أو يحمي بهم ذِماره[(٢)]، وقد يعجز عن الإنفاق عليهم، أو منحهم العاطفة والحب، أو مساعدتهم على النجاح والتفوق.

وفي العبادات، صارت عناية الناس بالمبنى دون المعنى، وبشكل العبادة دون حقيقتها وروحها، ويتحدَّثون: فلان كم صلَّى، وكم صام، وكم ختم المصحف، وكم حفظ من فنون العلم ونصوصه دون أن يتساءلوا عن أثر ذلك على سلوكه وخلقه وسمته.

وغالب ثقافة الناس عددية: كم عدد المسلمين، كم أتباع هذه الجماعة أو

---

(١) ينظر: «نثر الدر في المحاظرات» (١/ ٢٢٢)، و«الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص ٣٩)، و«الشكوى والعتاب» للثعالبي (ص ١٥٨)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ٤٢٢)، و«الصواعق المحرقة» لابن حجر الهيتمي (٢/ ٣٨٠)، و«أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (ص ٣٦٢).

(٢) أي: أهله وكل ما يلزم المرء حفظه وحمايته والدفاع عنه.

الحزب، وكم عدد قراء هذا الكتاب، أو مشاهدي هذا المقطع، أو متابعي هذه القناة أو البرنامج، أو مشتري هذه المطبوعة، أو متصفحي هذا الموقع...؟ أما السؤال عن التأثير والتغير فقلما نعيره الأهمية اللازمة.

وفي غزوة حُنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فحاقت بهم الهزيمة وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ...﴾ [التوبة:٢٥].

إن مطلق التكاثر لا يذم، بل التكاثر المذموم هو التكاثر الملهي، كما تنصُّ الآية.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]. فإذا كان هذا عنده أعمال، وهذا عنده أعمال، وأعمالهم متكافئة طمأنينة وإتقانًا وإخلاص نية وعلى وفق السنة، فإنهم يتفاضلون بعد ذلك بالكثرة، أي: بما استغرق من أوقاتهم وجهدهم من تلك الأعمال.

وسواءً حملناه على طلب المزيد، كما هو المعنى الأول، أو على منافسة الآخرين، كما قد يقع في الجهاد أحيانًا؛ فقد تجد قومًا يكون لهم بلاء، فالآخرون يريدون أن يكون لهم بلاء أعظم، أو هؤلاء لهم دعوة، فالآخرون يحاولون أن يحقِّقوا نجاحًا في الدعوة يسبقون به هؤلاء، أو كان نوعًا من التكاثر بالقول الذي لا يقصد به الاغترار بالعمل، وإنما يقصد به المنافسة في الخير، أو إثبات الحق، فليس مذمومًا بإطلاق، وإنما المذموم منه ما كان ملهيًا عن طاعة الله تعالى، ولهذا يقول النبي ﷺ: «**سبق درهمٌ مائةَ ألفِ درهم**»[1]. وذلك لأن الدرهم هو كل ما يقدر عليه وتوفر فيه الصدق والإخلاص وتجرد من المن والأذى.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩١٦)، والنسائي (٥/ ٥٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر:٢]:

﴿ حَتَّىٰ ﴾ حرف غاية عند أهل اللغة، يعني: ألهاكم إلى غاية معينة.

والمعنى: أي: استغرقتم في ملذات الدنيا، فلم تفيقوا إلا وأنتم في القبور؛ فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ يعني: حتى مُتم ودفنتم في المقابر.

وعبَّر عن ذلك بالزيارة؛ لأنهم سوف يرتحلون منها إلى الدار الآخرة، فهي إقامة مؤقتة، وقد جاء في «الصحيح» أن النبي ﷺ زار أعرابيًّا مريضًا، وكان فيه حمًّى شديدة، فقال له النبي ﷺ: «**لا بأسَ طهورٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى**». فقال الأعرابي: كلا، بل حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور. فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذًا**»[1].

فالمقصود: أن قوله: (تزيره القبور)، يعني: توصله إلى الموت.

وكيف ماتوا فعلًا وهم مخاطبون أحياء يسمعون الخطاب، ويردون الجواب، ويتقلبون في الأرض، ويتكاثرون بالأموال والأولاد، ويسعون سعيًا كادحًا حثيثًا؟

الجواب: أن هذا باعتبار ما سيكون، ويقول العلماء: هذا لتحقق الوقوع، وقد يعبر بالفعل الماضي لتحقق الوقوع، وهذا أمر مقطوع به، ولا أحد يشك في أنه سوف يزور المقابر.

وعبَّر هنا بالفعل الماضي ﴿زُرْتُمُ ﴾ ولم يقل (تزوروا)؛ لتحقق الوقوع، فهو أمر مقطوع به، متعلق بالتكاثر، والمعنى: إن حبكم للتكاثر والتهاءكم به حملكم على التفاخر بالأموات فكأنكم ذهبتم إلى القبور لتستنطقوا منها مآثر آبائكم.

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ﴾ إشارة إلى أنهم حُرِموا من المحاسبة والمراجعة والنظر والتأمل في أحوالهم؛ ولذلك يموتون ولديهم حاجات وأمنيات معلَّقة، وكانوا يتوهمون أنهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يحققونها، وكانوا يعوِّلون على شيء اسمه: «المستقبل»، وهذا المستقبل لما صار حاضرًا، تجدَّدت له الآمال والطموحات والأطماع، حتى زار المقابر دون أن يشعر.

فصاحب المال زار القبر ولم يتمكَّن من كتابة الوصية!!

وصاحب الذنب زار القبر ولم يتمكَّن من التوبة!!

فالكثير يموتون، وتموت بموتهم آمالهم وأحلامهم وفي الآية حث على استثمار الحياة والتحذير من التسويف وطول الأمل.

والله سبحانه وتعالى لم يذكر ما هو الشيء الذي لهوا عنه، أما الذي لهوا فيه فهو ظاهر، ولم يذكره لظهوره ولهوانه، وأما الذي لهوا عنه، فلم يذكره لعظمته؛ فالإنسان ربما لهى بأمورٍ دنيئةٍ خسيسةٍ حقيرة عن أمور عظيمة، وعن جنة عرضها السماوات والأرض، وعن رضا الله تبارك وتعالى، وعن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وعن أجمل لذات الحياة ومتعها.

ربما يُشْغَلُ كثيرون بلذة الجسد الحسية والمتاع الجنسي، ويقعون في حبائله بالحلال أو بالتأويل أو بالحرام، ويرونه غاية اللذة، فيلهيهم عن كسب المعارف والعلوم، وما فيه من المتعة والبهجة، وعن العبادة وما فيها من الطمأنينة وقرة العين، وربما شغلهم عن تذوق حلاوة الأخلاق والعقل والروح لدى المرأة.

* ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤]:

الآية مكررة مرتين، و﴿ كَلَّا ﴾ حرف زجر ووعيد وتهديد، في غالب سياقات القرآن.

ولا يوجد في القرآن تكرار من غير معنًى مضاف، وقد صنَّف بعض أهل العلم كتبًا في أسرار التكرار في القرآن العظيم، سواءً تكرار القصص، أو المعاني، أو الألفاظ،

وهو ما يسمى بالتكرار اللفظي، أو التوكيد اللفظي[1].

وقوله: ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد التراخي، والتكرار لا يعني مرتين فقط، بل هو إلى ما لا نهاية؛ فالعرب عادة يستخدمون المرتين تعبيرًا عن مطلق العدد، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[الملك:٤]، أي: مرة بعد مرة؛ لأن مثل هذا يقصد به مطلق العدد، وعلى هذا فقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، تكرار يقصد به مطلق العدد، فهو تحذير وإنذار وتوبيخ وتقريع مستمر مرة بعد مرة، وهو حجة بالغة عليهم أن الله أمهلهم ومدّ لهم وحذّرهم المرة تلو الأخرى.

ويحتمل أن التحذير الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: في الدنيا، وذلك بما سوف ترون من المصائب وذهاب القوة وورود المرض، والهزيمة والخذلان، وظهور الحجج والآيات، ونصر الله تعالى لأوليائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ورفعةِ شأن هذا الدين..، سوف تعلمون هذا في الدنيا، ثم تعلمون إذا صرتم إلى الموت، وعند الموت يؤمن الكافر، ويبر الفاجر، ولات ساعة مندم.

والدنيا فيها من العبر الشيء الكثير، والذين يرحلون عنها سوف يجدون شيئًا آخر مختلفًا عما كانوا يعيشونه في الدنيا ويتمتعون به.

أما الثاني فهو وعيد يتعلّق بالبرزخ، ولذلك كان بعض الصحابة -كعلي وابن عباس ﷺ- يرون أن في هذه الآية دليلًا على إثبات عذاب القبر[2]؛ لأن قوله: ﴿ ثُمَّ

---

(١) ينظر: «متشابه القرآن» للكسائي، و«أسرار التكرار»، أو «البرهان في توجيه متشابه القرآن» للكرماني، و«هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب» لأبي الحسن السخاوي.

(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٣٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٢)، و«التذكرة» للقرطبي (١/ ١٦٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٦)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٩).

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ دليل على ما سوف يرونه ويعلمونه بعد الدنيا، وذلك حينما يكونون في قبورهم. وقد تكون الأولى للدنيا، والثانية للآخرة مطلقًا، وليس للقبر فقط، وإنما للقبر وللنشر وللحساب وللجزاء وللنار إذا دخلوها.

ويحتمل معنى ثالثًا أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ للمؤمنين، وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ للكفار.

وهذا معنًى لا بأس به، وإن لم يكن في قوة المعنى الأول والثاني؛ فالمؤمنون سوف يعلمون، وسيرون فضل الله تعالى ورحمته وآياته في الأنفس وفي الآفاق، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، والكفار سوف يعلمون وعيد الله تعالى وصدق ما أخبر به الرسل.

ولم يبيِّن ماذا سوف يعلمون؛ ليكون التهديد غامضًا مبهمًا ضخمًا؛ لأن كل شيء يحتمل أن يكون مرادًا هنا، فقد يكون المراد: سوف تعلمون العذاب، أو الوعيد، أو النار، أو السخط، أو الروع والخوف والرعب الذي يداخلكم وقت حلول الوعيد.

ومن معاني الإبهام وعدم تحديد المعلوم: الإشارة إلى أن السبب في لهوهم وانشغالهم بالتكاثر هو نقص علمهم أو عدم علمهم، فعدم العلم هو سبب اللهو، وسبب التكاثر، ولو عرفوا المعرفة الصحيحة لعقلوا.

وفي ذلك إشادة بالعلم، وأنه أول درجات الاستقامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

* ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]:

لم يذكر جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، فإن ﴿لَوْ﴾ أداة شرط، وفي العادة أنه يُذكر جوابُها، كما يقال: لو جاء صالح لأوسعنا له في المجلس. ونقول: لو شرب الإنسان هذا الماء لرَوِيَ. ونقول: لو حضر الدرس فلان لأفاد. فـ﴿لَوْ﴾ لابد لها من جواب.

فالله سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ فأين الجواب؟ وماذا يحصل لو تعلمون علم اليقين؟

الجواب: المستقر في أذهاننا أن قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] هو الجواب؛ لأن فيها اللام؛ والعادة أن جواب ﴿لَوْ﴾ يكون مصحوبًا باللام، ولو تأملت لوجدت أن التركيب لا يستقيم على هذا المفهوم، وإنما الصواب أن قول الله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ شرط ليس له جواب، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣٩] فإنه ليس لها جواب؛ لأن الجواب مفهوم من سياق الشرط.

فالجواب مستبطن في الشرط نفسه، وهو مفهوم ظاهر؛ فإنه لما ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر بالطريقة المذمومة، ولما قصَّرتم في الواجبات، ولما ارتكبتم المحرمات، وعصيتم الله تعالى، فسوف تعلمون العاقبة.

وهذا من عظمة ترك الجواب، ولذلك نلاحظ أن في السورة محذوفات كثيرة من أجل لفت الأنظار وتحريك الفكر، وهذا من أقوى صور الإيجاز والبلاغة والتأثير، ومَنْ عنده معرفة باللغة العربية، وحِسٌّ بلاغي، يجد من ذلك أشياء كثيرة تأخذ بلُبِّه وتهزه هزًّا!

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ إشارة إلى أن عندهم معلومات كثيرة مما يظنونه علمًا وليس بعلم، وهذه مشكلة، فهناك ألوان من العلوم مضلة، وقد تَحْجِب عن الله تعالى، أو تكون غير مطابقة للواقع، أو تكون مما يختلط فيها الحق بالباطل، أو تكون علومًا ظاهرية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]، حتى من العلوم الشرعية؛ فقد ينشغل الإنسان وينهَمُك في علم المسائل والأحكام والأقوال والمذاهب والترجيح، ويكون العلم في لسانه لم يصل إلى قلبه، والمقصود بالعلم: علم اليقين الذي يلامس القلب؛ فيتحول إلى حقيقة عملية في حياة الإنسان.

والعلم الحقيقي اليقيني يطلق على ثلاثة أشياء:

١- المحسوس، فأنت ترى أمامك الإناء، وهو محسوس يقينًا، ولا يجادل في هذا إلا أهل الأوهام، ومن اليقين طلوع الشمس وغروبها، والأشياء التي يراها الإنسان بعينه أو يحسها بحواسه.

٢- المعقول من مصادر العلم اليقيني، وبعض الناس عنده وحشة من العقل، وكأنه استقر في أذهان البعض أن العقل نقيض للشرع، وهذا خطأ، فالله سبحانه وتعالى أحالنا على العقول في القرآن الكريم كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.. بل حتى في أمر الدين والوحي والرسالة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ:٤٦]. ولا يحيلنا اللهُ على شيء يحتَمِل الحقَّ والباطلَ والخطأَ والصوابَ.

إن الوهم في العقول يأتي مما يظنه الناس معقولًا وليس بمعقول، مما يكون تلبيسًا أو تدليسًا أو وهمًا أو تضليلًا وقد يتكلم الناس عنه، ويظنونه من المعقولات، ويقول بعضهم: هذا يُدرك بالعقل، وهذا شيء معقول، وهذا مستحيل عقلًا، مع أنه في واقع الأمر ليس كذلك؛ لأنه جعل تصوره الشخصي للأشياء هو معيار العقل.

٣- النقل المصدَّق أو الوحي من القرآن وصحيح السنة المستفيض.

* ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]:

هذا خبر جديد، فقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جملة مستأنفة، وهذه صيغة قَسَم على الأغلب، فاللام لام القسم، وهي مؤكدة، ومثلها النون في آخر الفعل.

* ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]:

أقسم تعالى للمخاطبين بأنهم سوف يرون الجحيم، ثم يرونها عين اليقين،

والفرق بين «عين اليقين» و«علم اليقين» هو: أن علم اليقين علم في القلب والصدر، أما عين اليقين، فشيء محسوس مشاهد؛ ولهذا قال: ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

وفي السورة وجوه من الإنذار:

١ - حرف الردع ﴿ كَلَّا ﴾، وقد تكرر في السورة ثلاث مرات، وغالبًا أن أقصى ما ينتهي إليه التهديد هو أن يكون ثلاث مرات، وقد أنذر الله تعالى في هذه السورة ثلاث مرات، فقال: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾.

٢- كلمة: ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على أن الإنذار الثاني، أبلغ وأقوى من الإنذار الأول.

٣- حذف جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ وهو يفيد الإثارة والتخويف.

٤- لام القسم في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾.

٥- نون التوكيد في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾.

٦- تكرار القسم مرة أخرى في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾.

٧- التحذير بقوله: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾. إشارة إلى أن ما تخبرون عنه الآن خبرًا سوف ترونه رؤية، وسيصبح عين اليقين بعد أن كان علم اليقين.

* ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨]:

والنعيم هو ما ينعم به الإنسان من خارج جسده، كما يقول بعض المفسِّرين؛ فالصحة -مثلًا- لا تسمَّى نعيمًا، وإنما النعيم هو المال والجاه والرزق، والمأكل، والمشرب، والملبس، والأشياء المحيطة بالإنسان، أما الأشياء التي في ذات الإنسان، فهي تسمى نعمة.

وهذا ذكره الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التحرير والتنوير»[1]، وهو محتمل، وأغلب المفسرين لا يفرقون بين هذا وهذا، فيعدون النعيم والنعمة مترادفين في المعنى، فالناس جميعًا يسألون عن النعيم، سواء كان نعيمًا في ذواتهم من الصحة والعافية والشباب وحسن الهيئة وجمال الصورة، أو كان في خارجهم من الغنى والمال والجاه وغير ذلك.

وهل السؤال خاص بالكفار، أو عام للناس كلهم؟

الصحيح أنه عام للناس كلهم، وقيل: خاص بالكفار؛ لأن السورة خطاب للكافرين[2].

وقد جاء في حديث ضعيف، أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرج لم يخرجه إلَّا الجوع، وأن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرج لم يخرجه إلَّا الجوع، وأن النبي ﷺ خرج عليهما، وأنهما أخبراه أنه لم يخرجهما إلا الجوع، فقال: انطلقوا بنا إلى منزل رجل من الأنصار يقال له: أبو الهيثم ابن التَّيِّهان، فإذا هو ليس في المنزل ذهب يستسقي، قال: فرحَّبت المرأة برسول الله ﷺ وبصاحبيه، وبسطت لهم شيئًا فجلسوا عليه، فسألها النبي ﷺ: **«أين انطلق أبو الهيثم؟»**. قالت: ذهب يستعذب لنا. فلم يلبث أن جاء بقربة فيها ماء فعلقها، وأراد أن يذبح لهم شاة، فكأن النبي ﷺ كره ذاك لهم، قال: فذبح لهم عناقًا، ثم انطلق فجاء بكبائش من النخل، فأكلوا من ذلك اللحم والبسر والرطب وشربوا من الماء، فقال أحدهما إما أبو بكر وإما عمر: هذا من النعيم الذي نسأل عنه. فقال النبي ﷺ: «المؤمن

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٤-١٧٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٩٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٥٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٤).

لا يُثَرَّب على شيء أصابه في الدنيا، إنما يُثَرَّبُ على الكافر»[1].

وأصل القصة في «صحيح مسلم» وفيها: «خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «**ما أخرجكُما من بيوتِكُما هذه السَّاعة؟**». قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيدِه لأخرجنَي الذي أخرجكما، قوموا**». فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**أين فلان؟**». قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني! قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب. فقال: كلوا من هذه. وأخذ المُدْيَة، فقال له النبيُّ ﷺ: «**إياك والحلوب**». يعني: إذا كنت ولابد ستذبح، فلا تذبح الحلوب، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**والذي نفسي بيدِه، لتُسألُنَّ عن هذا النعيمِ يوم القيامة، أخرجكُم من بيوتِكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكُم هذا النعيمُ**»[2]. وهذا الرجل هو: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وقيل: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنهما[3].

يُسأل الكفار إذًا سؤال توبيخ وتقريع وتقرير على عدم شكرهم لله عز وجل، وعقوبة لهم على سوء استخدامهم وتصرفهم في تلك النعم، وعدم شكرهم لمسديها ومُوليها.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٦٧٢).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

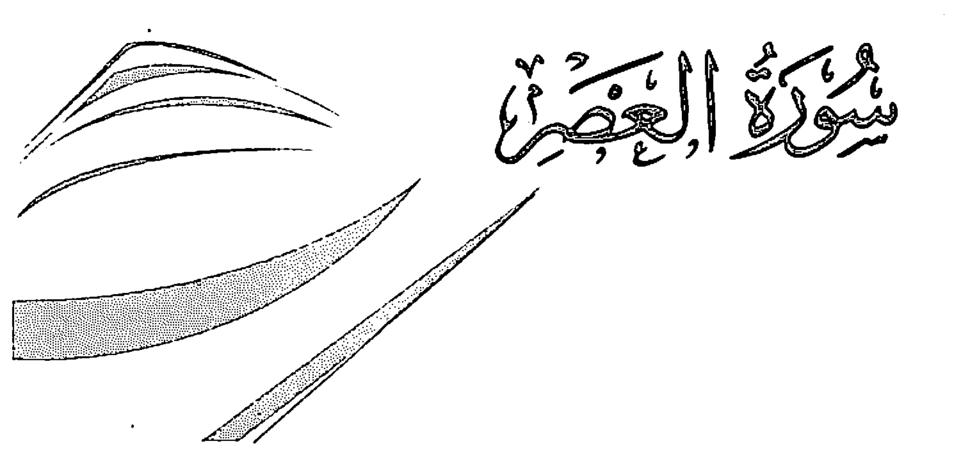
(٣) ينظر: «التمهيد» (٢٤/ ٣٤١)، و«الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة» للخطيب (٤/ ٢٨٤)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن شكوال (٢/ ٦٣٠)، و«شرح النووي» (١٣/ ٢١٣).

ويُسأل المؤمنون سؤال تشريف وتكريم ورفعة لهم عند الله تعالى يوم القيامة.

ولعل مَن قال: إن السؤال خاص بالكافرين، أراد سؤال التوبيخ والتقريع، ولا مانع أن يُسأل المؤمن عن مدى شكره لنعمة الله تعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمدُه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمده عليها**»[1].

○ ○ ○

(١) أخرجه مسلم» (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.


سورة العصر

سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر:١-٣].

* تسمية السورة:

اسمها: «سورة العصر»، وهو المثبت في معظم التفاسير، وفي «صحيح البخاري»: «سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾» بإثبات الواو على الحكاية[1].

وفي حديث أبي مَدِينة الدَّارمي قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ اذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر»[2].

وصحَّح إسناده غير واحد، وأشار البيهقي إلى الاختلاف في إسناده، وقال الذهبي: «حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون»[3].

* وهذه السورة هي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم وهي: «العصر»

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٢٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (٨٦٣٩).

(٣) ينظر: «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥٣٩-٥٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٤٨).

و«الكوثر» و«النصر»، وهي ثلاث آيات من كتاب الله تعالى[1].

* وهي مكية عند أكثر المفسرين، ورُوي عن قتادة ومجاهد أنها مدنية[2].

واختيار الصحابة ﷺ هذه السورة لقراءتها عند لقياهم، لم يكن على سبيل التبرُّك؛ فإن القرآن كله فيه البركة والخير، وبكل حرف عشر حسنات، ولا مراعاة لفضيلة السورة فحسب، وإلا لاختاروا الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن[3]، وإنما اختاروا سورة العصر لمعانٍ تضمنتها هذه السورة، فهي شاملة لمعاني الكمال العلمي والعملي في النفس وفي الغير، ومؤسسة للعلاقة الإيجابية الفعالة بين المؤمنين بما تضمنته من التواصي بالحق والصبر المبني على الإيمان والعمل الصالح.

قال الإمام الشافعي: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم، أو لوسعتهم»[4].

* ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١]:

القسم دليل على عظمة وأهمية الـمُقْسَم عليه.

أكَّد الـمُقْسَم عليه بالقَسَم، و بـ «إن»، وهي حرف توكيد، وباللام وهي حرف توكيد أيضًا، فما هو العصر؟

في تأويل ذلك أقوال:

١ - هو الدَّهر أو الزمن، ونسبه ابن القيم للجمهور[5].

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٧).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٣-٥٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٨١٢).

(٤) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٣)، (٨/ ٤٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٨).

(٥) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٥٤).

٢- وقت العصر، الذي هو آخر النهار.

٣- فترة من الزمن.

٤- صلاة العصر.

ولعل هذه المعاني كلها داخلة في المعنى؛ لأن اللفظ عام ولم يأت ما يخصِّص بعضها.

وقد كان الناس ينسبون ما يصيبهم إلى الزمن، كما في الحديث القدسي في «الصحيحين»: «**يؤذيني ابنُ آدم! يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّب الليلَ والنهارَ**». وفي لفظ عند مسلم: «**لا تَسبُّوا الدهرَ**»[1].

ويريدون بذلك أن ينفصلوا من التبعة ومن المسؤولية فيما يقعون فيه من أخطاء.

والأمر كما قال الشافعي:

نعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِينَا ... وما لزمانِنا عيبٌ سِوانا

وقد نَهْجُو الزمانَ بغيرِ جرم ... ولو نطقَ الزمانُ بِنا هَجانا[2]

والقَسَم به يبرز أن ظرف الزمان محايد، والعبرة بما يصنعه الناس فيه، ولذا فالتعبير بفساد الزمان ليس جيدًا، إلا باعتبار أن المقصود أهل الزمان، وحتى على هذا فهو نوع من عيب الناس على سبيل التعميم وفي باطنه استثناء النفس.

فأقسم الله بالعصر تشريفًا وتعظيمًا لشأنه، فهو ظرف لأعمال الإنسان، وهذه مناسبة القسم به، وقد ذكر الله سبحانه الزمان والمكان، فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾، فذكر ما في السماوات وما في

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٦).

(٢) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١٠٠).

الأرض، وهو المكان، وفي الآية بعدها قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٢-١٣]، فالليل والنهار زمان، والمكان والزمان ظرفان للحوادث، ولا يمكن أن ينفك الإنسان في دنياه عن هذين الظرفين.

وعلى أن المقصود بالعصر آخر النهار، فما وجه مناسبته للقَسَم على أن الإنسان في خُسر؟

ثَمَّة مناسبة لطيفة، وهي أنه عادة الناس في السعي إلى مكاسبهم أنها تكون من الصباح، كما قال النبي ﷺ في الحديث: **«كلُّ النَّاسِ يغدو، فبائعٌ نفسه فمعتقُها أو موبِقُها»**[1]. فالغدو يكون أول النهار، ومنهم مَن يغدو إلى خير وبر، ومنهم مَن يغدو إلى إثم وقطيعة رحم وشر.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ إشارة إلى نهاية المطاف، ووقت الحصاد، حيث يكون الناس في نهاية أعمالهم، فالموظف يرجع إلى بيته، والطالب يرجع إلى أسرته، والعامل يرجع إلى أهله.

وبعضهم استخرج معنى لطيفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣]، حيث أقسم سبحانه بالضحى على أن النبي ﷺ محفوظ بحفظ الله، وأن الله ما تركه ولا قلاه ولا أبغضه، فكان القسم هنا بالضحى الذي هو بداية العمل والنشاط والانطلاق.

وأقسم بالعصر على الخسارة لأولئك الذين تجافوا عن سواء السبيل، وحاربوا رسول الله وآذوا أتباعه.

ويحتمل أن يكون العصر هو الزمان أو الوقت الذي تعيشه الآن، ومن قول بعضهم: «المعاصرة»، أي: العيش في العصر، ومنه سميت العصور السياسية والأدبية،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﵁.

ويكون في القسم بهذا الجزء من الزمن تنبيه على أهمية فهم العصر وما يجري فيه والقيام بأمر الشريعة وفق مقتضيات الواقع المعاش، وليس التنظير المحض.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إنما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم كما بين صلاةِ العصر ومغرِب الشمس، ومثلُكم ومثلُ اليهودِ والنصارى، كمثلِ رجلٍ استعمل عمّالًا، فقال: مَن يعملُ لي إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ؟ فعملت اليهود، فقال: مَن يعملُ لي من نصفِ النهار إلى العصرِ على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصرِ إلى المغربِ بقيراطين قيراطين. قالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء. قال: هل ظلمتُكم من حقِّكم؟ قالوا: لا. قال: فذاك فضلي أُوتيهِ من شِئْتُ**»[1].

وعلى أن المقصود بالعصر صلاة العصر، يكون تعالى أقسم بها، وهي ذات علاقة بما قبلها؛ لأنها تقع في آخر النهار، وهي صلاة فاضلة، بل هي الصلاة الوسطى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن تركَ صلاةَ العصرِ، فقد حَبِط عملُه**»[2]. وحبوط العمل: خسارته، وقال: «**الذي تفوته صلاةُ العصر، كأنما وُتِر أهلَه ومالَه**»[3].

وأشد الخسارة: أن يخسر الإنسان نفسه وأهله وماله، والنبي ﷺ جعل مَن فاتته صلاة العصر كأنما وُتر أهله وماله، وهذا يدل على أهمية صلاة العصر، والمحافظة عليها مع الجماعة، وأدائها في وقتها.

* ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر:٢]:

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ جنس، و«ال» لاستغراق جنس الإنسان، وقال بعضهم: هو هنا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُريدة بن الـحُصيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري» (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أبو جهل، وقيل: أبو لهب(١).

والصواب أن المقصود جنس الإنسان؛ ولذلك قال الله تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فدل على أن المقصود الجنس، وليس شخصًا بعينه؛ فإن الشخص لا يُستثنى منه.

الغالب على الناس إذًا هو الخسار؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، ويقول: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

وعبَّر بأن الإنسان في خُسر، ولم يقل: (إن الإنسان لخاسر). وبين اللفظين فرق ظاهر؛ فحرف الجر «في» يدل على الظرفية، وكأن الخسر في الآية وعاء أو ظرف؛ والإنسان مغموس فيه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾.

أما قولك: (إن الإنسان لخاسر). لا يعدو أن يكون وصفًا مجردًا، والظرفية أدل على المقصود من جهة الإشارة إلى أن الخسارة محيطة بالإنسان من كل وجه؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة:٨١].

والتنكير في كلمة ﴿خُسۡرٍ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى تنوع الخسارة، بمعنى أن الخاسرين درجات، وهذا واضح من السياق، فإن الله سبحانه وتعالى لم يستثن من الـخُسر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن مَن نقص شيئًا من الإيمان، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر؛ تكون خسارته جزئية، بخلاف مَن ترك هذه الصفات كلها، فإن خسارته تكون مُطبِقة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٤).

فالتنكير دليل على تنوع الخسر ودرجاته، وأنه ليس بمنزلة واحدة، بل منه خسر تام مطبق، ومنه دون ذلك.

وبعضهم قال: إن التنكير هنا للتهويل، ولتعظيم الخسر، وأن الإنسان خسر كل شيء، وليس كالذين خسروا بعض الشيء، مثل مَن نزلت مراتبهم في الجنة، فما فاتهم شيء عظيم بالقياس إلى ما أدركه السابقون، وإن كانوا بالقياس إلى مَن دونهم على خير كثير.

والتعبير بالخسارة صيغة قرآنية دارجة، يعبِّر الله بها عن أهل النار، مثل قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [هود:٢١]، وقوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾.

وعندما نقول: خسر التاجر. معناه: أنه ضاع عليه رأس المال، أو جزء من رأس المال، ورأس المال بالنسبة للمكلَّف هو الوقت، هو العصر، هو العمر؛ ولذا قال بعض السلف: «تعلمتُ معنى هذه الآية من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا مَن يذوب رأس ماله!»[1].

والوقتُ أنفَسُ ما عُنِيتَ بحفظِهِ ... وأَراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضِيعُ

والأخسرون أعظم خُسرًا، كما في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ [النمل:٥]، وكيف يكونون أكثر خسارة؟

يكون ذلك باستئصال رأس المال كله.

والوقت الذي يضيع بغير خير خسارة؛ لأنه كان ممكنًا أن يُملأ بطاعة، والوقت الذي يضيع عليك بمعصية أكثر خسارة؛ لأنه محسوب وكان جديرًا أن يُعمر بطاعة أو بمباح لا إثم فيه، فهو خسارة مركَّبة أو خسارة مضاعفة.

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٨).

* ﴿إِلا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]:

لم يذكر تعالى سبب الخسارة، وذكر سبب الربح، مع أن السورة بدأت الكلام عن الخسر؟

الجواب: لأن طريق الربح واحد، لكن طرق الخسارة كثيرة لا تنتهي، منها: الفعل، ومنها: الترك، بخلاف الربح: فالمنهج فيه واضح منضبط محصور، وهو المذكور في هذه الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

يقول ابن القيم: «جعل الله تعالى في هذه الآية نهاية الكمال العلمي والعملي، والكمال اللازم والمتعدِّي»[1].

فالكمال العلمي للإنسان بالإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمقصود صدق تصورات الإنسان، فيؤمن بالله تعالى وملائكته والقدر والآخرة.

والكمال العملي: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: من الصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام والأخلاق الفاضلة وغيرها.

والكمال اللازم أي: الكمال الشخصي في الإنسان، والكمال المتعدِّي هو ما يفيض من الإنسان إلى الآخرين بالنفع أو التواصي أو التعليم أو الأمر أو النهي.

وفي هذه السورة الكريمة أربع دوائر متداخلة:

١- دائرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ، وهي الدائرة الأوسع، ولو اقتصرنا على لفظ الإيمان لدخل فيه العمل الصالح وما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فأداء الزكاة من الإيمان،

(١) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦-٥٧).

وأداء الصلوات وبر الوالدين والحج والصوم من الإيمان.

ولهذا إذا ذكر الإيمان مجرَّدًا، ولم يذكر معه غيره يدخل في الإسلام.

٢- دائرة أضيق، وهي: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولو لم يذكر إلا العمل الصالح لدخل فيه الإيمان، ولكن من باب التخصيص والتنصيص، ولهذا رُوي عن النبي ﷺ: **«الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ»**[1].

٣- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، والتواصي بالحق من الإيمان ومن الأعمال الصالحة، لكن ذكَرَه إشادة بأهله وبيانًا لمزيتهم عن غيرهم.

٤- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، والصبر من الإيمان ومن العمل الصالح ومن الحق الذي يتواصى به، وقد ذكره على سبيل التخصيص فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فكأنه ذكره أربع مرات.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا وبمَن آمنوا، وقد صرح بذلك في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ...﴾ [النساء:١٣٦]، وفي قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

الواو هنا واو الجماعة، فالله تكلم عن جماعة، وهذا غالب ما تجده في القرآن الكريم، وهو يدل على أهمية الاجتماع والتآلف، وأن الله سبحانه وتعالى يحب اجتماع المؤمنين ويكره فرقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣١٩)، وأحمد (١٢٣٨١)، وأبو يعلى (٢٩٢٣)، والعقيلي (٣/ ٢٥٠)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١١١)، وابن عدي (٥/ ٢٠٧) من حديث أنس ﷺ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٩٠٦).

فأين هدي القرآن؟ وأين هي تعاليمه من واقع الناس اليوم؟!

لقد قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «**تطاوَعا ولا تختَلِفا**»[1]. وهو دليل على وجود اختلاف بينهما في الرأي، لكنه أرشدهما إلى الحلول العملية، وهي أن يكونوا ميسِّرين سهلين لينين بأيدي إخوانهم، وألَّا يصنعوا مواقف متناقضة أو مزدوجة، أو تكون سهامُ بعضهم مصوَّبة إلى بعض، أو جهود بعضهم تدمر بعضًا، وأن يتوجهوا إلى الهم الواحد، ويجتهدوا في التعليم والدعوة والإصلاح دون أن يفترضوا أنه لا يمكن أن يقوموا بعمل ناجح إلا أن يكون عملهم متقاطعًا مع جهود الآخرين.

أليس بمقدور المسلم اليوم أن يوجِّه همَّه نحو الأمر المثمر الفعال، وأن يشتغل في أي خير: دعوة، إغاثة، أو علم، أو دنيا، وفق الشروط التي يراها، وليس لأحد عليه سبيل، ولا يمنع هذا من النصيحة، ولا من النقد باللغة الراقية المناسبة، وفق الضوابط الشرعية، إنما الخطر في الانشقاق الذي دمَّر الطاقات، وقضى على الجهود، واستغرق الأوقات.

ثَمَّ مشكلة أخرى، وهي قضية التجمعات الإسلامية، وهي أفضل من التفرُّق، فالاجتماع والتقارب والتفاهم وحسن التعامل والمودة بين المسلمين أمر مطلوب، والاجتماع على الخير والبر والطاعة والتقوى من الأصول الثابتة.

لكن ينبغي ألَّا يتحول الاجتماع إلى تعصب لجماعة أو حزب، فنكون قد خرجنا من ورطة إلى أخرى.

خرجنا من ورطة الفردية والذاتية والأنانية للشخص، ودخلنا في ورطة الأنانية والذاتية والفردية للمجموعة، وعندما يجتمع الناس على خير يلزمهم تعاهد دائم ألَّا يكون الولاء الديني فيما بينهم يعني نبذ مَن سواهم، وإنما لُحْمة الولاء لهذه الأمة أشمل وأبقى، وينبغي أن تكون هي الأصل، وإنما هم أشبه بشركة أو جامعة التقت

---

(١) أخرجه البخاري» (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

على عمل خاص تتعاون عليه، دون أن تقيم حدودًا أو سدودًا مع الآخرين.

إن كثيرًا من الأعمال الصالحة شُرعت جماعة، كالصلاة، والصوم، والحج.

والعجب ممن يجمعهم كل ذلك من الأصول العلمية والأركان العملية، ثم يتجاهلون الأصل العظيم المحكم الذي هو حسن الخلق، فيهجر بعضهم بعضًا بسبب اختلاف في موقف أو مسألة علمية أو سياسية أو تأويل أو لنقل بسبب خطأ صدر من بعضهم بغير قصد أو بقصد.

والنبي ﷺ يقول: «**لا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ**»[1]. فهم يلتقون في المسجد، ورِجْل هذا إلى رِجْل الآخر، فإذا سلَّم لم يلتفت إليه بوجهه، بل يغمض عينيه لئلا يراه، أو لا يبالغ في الالتفات لما يجده في قلبه! فانظر كيف عمل الشيطان في الإغراء بالفرقة والخلاف والتناقض، وأضعف ذلك أثر ما نمارسه من عبادات وأعمال جماعية في نفوسنا، وصار الإنسان يمارس العبادة ويمارس نقيضها في الوقت نفسه!

ذكر أبو بكر بن العربي أن شيخه أبا بكر الطُّرْطُوشي زار المغرب، فصلَّى في مسجد للمالكية، فرفع الطُّرْطُوشي يديه عند الركوع وعند الرفع منه، فرآه رئيس البحر فانزعج من ذلك وأمر بقتله!

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوانحي، وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشي فقيه الوقت! فقال لي: لماذا يرفع يديه؟ قال ابن العربي: فما زلتُ أبيِّن له أن هذه سنة النبي ﷺ حتى سكن غضبه[2].

---

(١) أخرجه البخاري» (٦٠٧٥)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨١)، و«الاعتصام» (١/ ٢٧٤).

وأول ما يُوصي الإنسان نفسه، وأصل الوصية تكون للناس، لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ دل على أن المقصود التواصي بين العديد من الناس، وهو ترسيخ لقضية الاجتماع على الخير والبر والتقوى.

وعبَّر في الآية بـ (تواصوا)؛ لأن فيها معنى الاستمرار، بخلاف (أوصوا)، فقد يكون مرة ثم ينتهي.

كذلك التواصي فيه معنى التفاعل بين الطرفين، أي: أنا أوصيك وأنت توصيني، فلا تجد في الإسلام فئة فقط هي التي توصي الناس، والبقية يكون دورهم هو مجرد الاستماع، وإنما كل مسلم يوصي أخاه بالحق، فهي عملية تبادلية بين جميع المؤمنين، وقد قيل: لا أحد أقل من أن يفيد، ولا أحد أكبر من أن يستفيد، فلا يقال: هذا العالم جاوز القنطرة فلا ينصح. ولا أحد يقول: هذا حقير لا يوجد عنده شيء.

وهذا يشمل التواصي، ويشمل التواصي بالتواصي، فعندما نقول: يا إخوان، علينا أن يُوصي بعضُنا بعضًا، فنحن نوصي بعضنا بالوصية، تقول: أوصيك أن توصي الآخرين بالصبر، والنبي ﷺ يقول: «**استَوصُوا بالنساءِ خيرًا**»[1]. يعني: ليوصي بعضُكم بعضًا بالنساء خيرًا.

والحق يُعرف بأدلة الشريعة، وهي مسألة مهمة، وهي: أن علينا أن نتواصى بالحق الذي هو «الشرع»، فإذا كانت القضية مجرد اجتهادات وآراء فلا يشملها الأمر؛ لأن الرأي يخطئ ويصيب.

ولا حظر أن يتناقش المختلفون ويتحاوروا حول الرأي الأصوب والأَسَدِّ؛ لكن دون تعصب أو توهُّم أن الرأي دين لا يسع أحدًا مخالفته.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ والصبر من الحق، وهو رأس الفضائل؛ ولذلك قال علي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﷺ: «الصبر مطية لا تكبو»[1]. ولو تأملت وصايا الله تعالى لعباده بالصبر لوجدت شيئًا كثيرًا مذهِلًا، والحقيقة أنه لا دين ولا دنيا إلا بالصبر، حتى قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[2].

فالإيمان يحتاج إلى صبر، بل الإيمان نصفه الصبر.

ومثله العمل الصالح، وقد يستقيم المرء شهرًا أو سنة، لكن إذا لم يكن عنده صبر، فإنه ينقطع.

وهكذا التواصي بالحق، قد نتواصى بالحق مرة أو مرتين، لكن إذا لم يكن عندنا صبر، فإننا نتوقف أو نمل.

والإنسان قد يصبر سنة أو سنتين، لكن إذا لم يكن عنده صبر على الصبر فإنه ينقطع.

والصبر يكون في الصحبة: بين الزوجين، أو في التجارة، أو في طلب العلم، أو في الدعوة، أو في الجهاد؛ لأنه ما من عمل إلا والإنسان يقوم به مع غيره، والإنسان محتاج فيه إلى غيره.

ولا يمكن أن توجد صحبة بين اثنين إلا بصبر وتسامح؛ ولهذا لما ذهب موسى مع الخضر عليهما السلام قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وهما اثنان، وهذا نبي

---

(١) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص ٨٥)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٣٥٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٩٨١)، و«سراج الملوك» (ص ٧٩)، شرح نهج البلاغة» (١/ ٣١٩)، و«(١١/ ٢٠٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٨)، و«عدة الصابرين» (١/ ٩، ٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) -معلقًا- في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

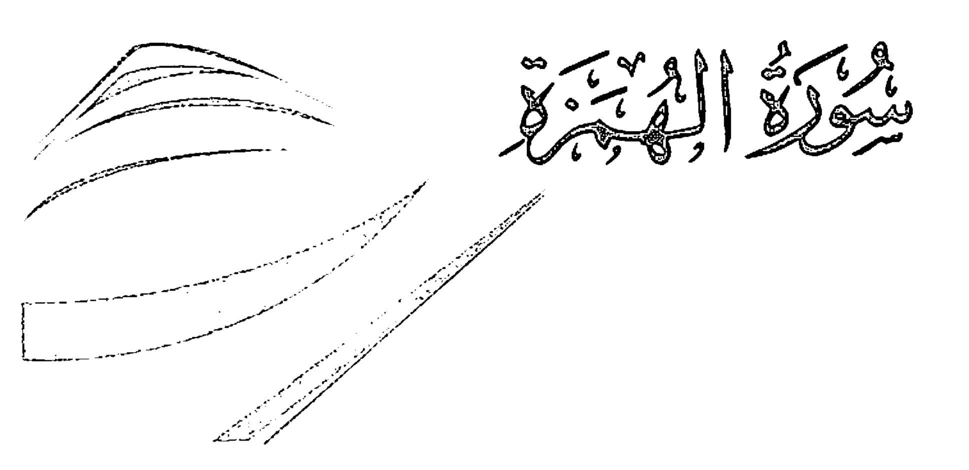
وهذا نبي، قال: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف:٦٧-٦٨].

إن الذين يذهبون إلى طلب العلم كثير، والذين يتعبدون الله كثير، والذين يتجهون إلى الخير كثير، ولكن الذين يصلون إلى الغاية، ويقطعون المشوار إلى نهايته قليل.

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا فَقَدْ صارُوا أَقَلَّ مِنَ القليلِ

وهؤلاء هم الصابرون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه!!

○ ○ ○


سورة الهمزة

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

* تسمية السورة:

١- أشهر أسمائها: «سورة الهمزة»[1].

٢- وسماها البخاري وغيره: «سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾»[2]، وهذا تسمية للسورة بأول آياتها.

٣- وقد ذكر الفيروز آبادي في كتابه: «بصائر ذوي التمييز» أن من أسماء هذه السورة: «الحُطَمة»، لورود اسم الحُطَمة فيها[3].

* عدد آياتها: تسع آيات بالاتفاق[4].

* وهي مكية باتفاق العلماء[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٩)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٣) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٤٣)، و«إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

وذكر بعض المفسرين أنها نزلت في جماعة من صناديد كفار مكة، الذين كانوا ينالون من المسلمين ويهمزونهم ويلمزونهم، ويسبونهم ويعيبونهم، وينسبون إليهم الأباطيل التي يحاولون بها تشويه صورتهم.

وممن قيل أن السورة نزلت فيه: الوليد بن المغيرة، والأخنس بن شَرِيق، وأُمَيَّة ابن خلف، وأُبيّ بن خلف، وجَمِيل بن مَعْمر الجُمَحي، والعاص بن وائل السَّهْمي، والأسود بن عبد يَغُوث، وغيرهم.

ومن المفسرين مَن قال: إنها لم تنزل في أحد بعينه[1].

والملاحظ أن القرآن لا يذكر أسماء الذين نزلت فيهم الآيات، **وهذا فيه دروس وفوائد، منها:**

١- أن المقصود الفعل وليس الشخص؛ فالأشخاص يذهبون وينسون، لكن العبرة بالأفعال الطيبة التي يُراد من الناس أن ينتهجوها، والأفعال السيئة التي يُراد أن يجتنبوها.

٢- في الإبهام فسح مجال للتوبة، بخلاف ما لو ذُكر اسمه مذمومًا في آية تُتلى، فربما عزَّ عليه الرجوع، وقد تأخذه العزة بالإثم، ومن هؤلاء الذين قيل أن السورة نزلت فيهم: جَمِيل بن مَعْمر، وقد أسلم وحسن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ غزوة حُنين[2].

وفي المثل: «للعدو الهارب ابنِ جسرًا». والنبي ﷺ كان يبني لهم جسورًا، وقد علَّمه ربُّه هذا، والشرع لا يأمر بتعيير الناس بأخطائهم ولا تيئيسهم من التوبة، والمؤمن المشفق على العصاة حريص على أن ينهضوا من عثرتهم، وعلى أن يستقيموا،

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «الإصابة» (١/ ٥٠٠).

ولذا فهو يجتهد في هدايتهم، لا كما يفعل بعضهم من استحداث شروط تعجيزية أمام توبة التائبين، مثل أن يقوم على الملأ ويعدِّد أخطاءه السابقة، ويعلن الرجوع عنها، وفي هذا إطاحة بإنسانيته وتعويق له، وقد لا يجد شجاعة ليخطِّئ نفسه، وربما لا يرى ذلك من المصلحة، أو كان تدرَّج في طريق الهداية شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما وصل إليه.

ومن علامات التوفيق للداعية أن يفرح بما يراه من الناس من بوادر الخير، وكل خطوة يتقدَّم بها هؤلاء إلى الصراط المستقيم يبش لها ويتفاءل ويفرح، ولعل الخطوة تمهِّد لما بعدها، وليس الدين ملكية الأشخاص، وإنما هو دين الله، والناس فيه سواسية، لا فضل بينهم إلا بالتقوى.

٣- أن في ذكرهم بأسمائهم تعييرًا لذريتهم من بعدهم؛ ولهذا قال ﷺ عن أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»[١].

وقد يكون في هؤلاء المؤمن، والتقي، والصالح، والعالم، فيكون في ذكر اسم أبيه مذمومًا في القرآن تعييرٌ له وسبٌّ وإيذاء، وهذا أمر مشاهد؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتخلَّى عن قراباته، وقد ورد في السيرة أن عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ لما بلغه في غزوة الْمريْسِيع[٢] أن النبيَّ ﷺ كان يريد أن يقتل أباه، قال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بد فاعلًا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَيٍّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، وأدخل النار. فقال رسولُ الله ﷺ: «بل

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٩٧).

(٢) هي غزوة بني المصطلق، وهو ماء لخزاعة، وهو من قولهم: وسعت عين الرجل. إذا دمعت من فساد. ينظر: «الروض الأنف» (٤/ ١٣)، و«السيرة النبوية» (٤/ ٢٥٢).

نترفَّقُ بهِ ونحسِنُ صحبتَهُ ما بَقِي معنَا»[1].

ففي عدم ذكر أسماء مَن نزلت فيهم الآيات حفاظ على مشاعر أقاربهم وأسرهم ومَن له بهم علاقة.

وعند عامة الأصوليين: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»، والمدار على هذه الأوصاف المرذولة والتحذير منها ووعيد أهلها.

* ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]:

كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ التي افتتحت بها السورة تكررت في القرآن الكريم كثيرًا؛ ومن ذلك:

١- وردت في شأن اليهود، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩].

٢- وعلى لسان مَن يخالل الأشرار، فيصدونه عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨].

٣- وفي الذين ينقصون المكيال، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١].

٤- في الأفَّاك الأثيم، وهو الكذَّاب المفتري الذي يسمع آيات الله ثم يصر على كفره وضلاله مستكبرًا، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية:٧].

٥- في المكذِّبين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥].

٦- في القاسية قلوبهم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٦١)، و«كشف المشكل» لابن الجوزي (٢/ ٥٣٢)، و«أسد الغابة» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨)، و«الإصابة في معرفة الصحابة» (٤/ ١٥٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٥٩٩)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٦٦-١٦٩).

٧- وفي الظالمين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:٦٥].

٨- في الذين يغفلون عن صلاتهم ويقصّرون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥].

وفي هذه السورة وعيد لكل همزة لمزة غَيَّاب عَيَّاب.

في «الويل» معنى التهديد والوعيد، وبكل حال فالغالب على هذه المواضع أنها في شأن أولئك الذين يؤذون عباد الله، كما في الأفَّاك الأثيم، والمطفِّفين، وفي الـهُمزة اللُّمزة، والظالمين، الذين آذوا الناس وظلموهم.

وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ قد تكون دعاءً على الإنسان، وقد تكون خبرًا، وأيًّا ما كانت، فهي بيان عن سوء حال هذا الإنسان الذي جاءه الوعيد.

وكأن أصل الكلمة -والله أعلم- أن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو مصيبة يقول: (وي). ثم يقول: (لي)، وهذه كلمة توجعٍ، وتحزُّنٍ، وتخوفٍ، وقلقٍ، فلكثرة استعمالها صارت: (ويل)، اختصارًا من: (ويلي)، وقد تأتي معرفة بـ (ال) ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وثَمَّ فرق بين «ويح» و«ويل»، فـ«ويح» فيها الرحمة والترحم، أما «ويل» ففيها التوعُّد[١].

وقال بعض المفسرين: ﴿وَيْلٌ﴾: «واد في جهنم». وهذا لم يصح فيه شيء[٢].

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٤٦) (و ي ل)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص ٥٧٩)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» (ص ٥٦٤)، و«الفائق في غريب الحديث» (٤/ ٨٥)، و«تاج العروس» (و ي ح) (٧/ ٢٢٠).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة المطففين» عند قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

والتعميم في «كل» يدل على أن السورة لم تنـزل في شخص بعينه، بل هي لكل همّاز لـمّاز.

و﴿ هُمَزَةٍ ﴾: من الهمز، و﴿ لُّمَزَةٍ ﴾: من اللّمز، وهما على وزن «فُعلَة» والمقصود بالـهُمزة اللُّمزة: كثير الهمز واللّمز. ولهذا نظائر، كما يقال: فلان ضُحكة. أي: كثير الضحك، وفلان لُعَنَة أي: كثير اللعن، وهو يدل على أن الصفات المذكورة تلبَّست بالإنسان، وصارت جزءًا من شخصيته، بل لعلها أبرز معالم شخصيته، فلو قيل: ما الصفة المميزة له؟ لقلت: فلان همزة. أي: كثير الهمز في كل مجلس، وهكذا إن كان ضحّاكًا أو لعّانًا، فهي عادة أدمنها، وغرم بها، حتى صارت الغالب من فعله.

وهل الهمزة هو اللمزة، أم أن بينهما فرقًا؟

قال ابن قتيبة والزّجاج: لا فرق بينهما، فهما بمعنى واحد، وكأنه من باب مترادف الألفاظ وهو: العيّاب الطعّان الذي إذا لقيك أحسن إليك وضحك، وإذا انصرفت عنه سبك وعيّرك، كما قال القائل:

إذا لقيتُكَ عن كُرهٍ تُكاشِرُني وإن تغيبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ[1]

وقد يعيِّر بظاهر من القول تارة، أو بغمز أو همز تارة أخرى، وهذا معنى جيد؛ لأن المعاني في القرآن لا يلزم معها الانشغال بحقيقة الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ عن المعنى المراد، ولكن ثَمَّ أقوال تفرِّق بين اللفظين، وهي كثيرة أوصلها ابن الجوزي في «زاد المسير» إلى سبعة[2].

منها: أن «الهمز» في اللغة أصله الكسر، يقولون: همزت الخشبة، إذا وضعتها على

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«تذكرة الأريب» (ص ٣١٢)، و«تفسير الرازي» (١٦/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٣٦٧)، و«لسان العرب» (٥/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (١٥/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨).

كتفيك ثم كسرتها، ويوجد كلمة أخرى قريبة من الهمز إذا قلبنا الزاي سينًا، وهي: «الهمس»، الذي يكاد لا يسمع[1].

وهل بين «الهمز» و«الهمس» تقارب؟

بينهما تقارب في المخرج، وتقارب في المعنى[2]؛ لأن الهمس هو الصوت الخفي، فقد يكون المقصود بالهمز: تنقص الناس وازدراؤهم واحتقارهم من خلال حركات الجوارح الخفية التي ربما لا يكاد الناس يتفطنون لها، يغمز بطرف عينه مثلًا، أو بشدقيه، أو بوجهه، أو بحركة يده.

فهذا هو الهمز، وقد يدخل فيه مَن يحاكي الناس في حركاتهم، أو أصواتهم وأقوالهم، من أجل أن يُضْحِكَ الآخرين على سبيل التعيير، أو الازدراء.

ولو قلَّد صوت الآخر على سبيل الإعجاب بصوته واستحسانه، فليس فيه بأس، لأن بعض الصحابة حاكوا صوت النبي ﷺ في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١][3]، والعبرة هنا بدافع الفعل، فإذا قلَّد إنسان صوت قارئ أو متحدِّث أو محاضر أو خطيب؛ لأنه معجب بصوته، ولم يقصد ذمًّا، فهذا لا بأس به.

أما اللَّمز؛ فالغالب أن يكون باللسان، وقوعًا وولوغًا في أعراض الناس، تعييرًا وتعييبًا وازدراءً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وغيرهما[4].

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (هـ م ز) (٥/ ٣٢٦)، و«تاج العروس» (هـ م ز) (١٥/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (هـ م ز)، (هـ م س) (٦/ ٢٥٠)، و«تاج العروس» (هـ م س) (١٧/ ٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي (٩٥٧)، والبخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤)، والروياني (٨٧٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٥٧)، وابن حبان (٧٤٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٦).

والكلام في الناس بالجرح والتعديل أنواع:

١- ما لا يدخل في الوعيد، كأن يتكلم في الناس بحق واعتدال، ويكون أهلًا لذلك، والناس بحاجة إليه.

- أن يكون باعتدال؛ فلا يبخس الناس أشياءهم ولا يظلمهم، ولا يحط من أقدارهم.

- أن يكون أهلًا لذلك؛ فلا يهجم على الكلام في الناس مَن لم يتأهل للجرح، ولا يجرِّح أو يعدِّل في الناس مَن هو بحاجة إلى مَن يعدِّله.

ولذلك صنَّف علماء الجرح والتعديل فيمَن يُعتمد على قوله في الجرح والتعديل، فلا يُقبل الجرح ولا التعديل من كل أحد، بل لا بد أن يكون الجارح أو المعدِّل إمامًا مشهورًا معروفًا بالإمامة والحفظ والعلم، ومعرفة درجات العدالة.

- أن يكون ثَمَّة حاجة إلى ذلك؛ كحاجة علماء الحديث السابقين إلى معرفة صحيح حديث النبي ﷺ من ضعيفه، وكالحاجة إلى بيان أحوال مَن قد يلتبس أمره، فتكون الأمة بحاجة إلى بيان حاله، مع أن الذي عليه عامة أهل العلم وأهل السنة، أنه إذا أمكن بيان الحق من غير ذكر الشخص فهو أولى، وأما إذا احتيج إلى ذكر شخص بعينه فلا بأس بذلك.

وقد ابُتلي كثير من الناس اليوم بالتلذُّذ بالولوغ في أعراض الناس، والجراءة على ذلك يخشى أن تدفع بصاحبها إلى الوقوع فيما حذر الله تعالى منه.

٢- المكروه؛ وهو ما يكون فيه استرسال واستطراد، ونوع من الحظوظ النفسية، مع وجود الحاجة فيه.

٣- المحرم؛ وهو أن يكون من غير المتأهِّل، أو يكون فيه ظلم وعدوان، أو يكون على سبيل البغي على الناس، وهذا قلَّ مَن يسلم منه، حتى من أهل الصلاح.

وقد يتطور إلى ما يخشى على دين صاحبه، وهو ما يكون فيه همز ولمز للشريعة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

والاشتغال بالناس في الأصل مَذمَّة، ولو أن إنسانًا صرف عمره كله للعن فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأُبَيٍّ بن خلف، لم يكن رشيدًا مصيبًا في ذلك.

ويُروى أن الخوارج دخلوا على عمر بن عبد العزيز، فلم يدع لهم حجة إلا كسرها، فقالوا: لسنا نجيبك حتى تكفِّر أهل بيتك وتلعنهم وتتبرأ منهم. فقال لهم عمر: إن الله لم يجعلني لعانًا، ولكن إن أبقى أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحجَّة البيضاء. فأَبَوْا أن يقبلوا ذلك منه. فقال لهم عمر: إنه لا يسعكم في دينكم إلا الصدق، منذ كم دنتم الله بهذا الدين؟ قالوا: منذ كذا وكذا سنة. قال: فهل لعنتم فرعون وتبرأتم منه؟ قالوا: لا. قال: فكيف وسعكم تركه، ألَا يسعني ترك أهل بيتي، وقد كان فيهم المحسن والمسيء، والمصيب والمخطئ؟[1].

* ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ [الهمزة:٢]:

اختلف القراء فيها، فقراءة عاصم: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ ﴾ بالتخفيف، وقرأ حمزة والكِسائي وابن عامر بتشديد الميم في (جَمَّعَ)[2]، وهو أبلغ من (جَمَعَ)، وتدل على الجهد الذي بذله في تجميع المال، فهو قد أخذ وقتًا طويلًا في تجميعه، وبذل فيه كثيرًا من الأسباب والحيل.

---

(١) ينظر: «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص٩٤-٩٥).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٩٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص ١٤١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٥٧٥-٥٧٦).

وجاء المال نكرة هنا ﴿مَالًا﴾؛ لأن المال في ذاته ليس هو الذي ينفع الإنسان، وإنما الذي ينفعه عمله الصالح.

وأيضًا: جمع المال بحد ذاته ليس مذمة، وإنما المذمة ما وراء ذلك من سوء التصرف فيه.

وفيها معنى أنه لم يكن يهتم بنوع المال وسلامة مصدره، بقدر ما يهتم بجمعه، حتى لو كان من حرام أو غش أو سرقة.

ولقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أكثر من معنى:

١- أنه جعله عُدَّة، بمعنى أنه أَعَدَّه، وادَّخره لنوائب الدهر وصروف الزمان. ونسي أن هذا المال قد يخذله، وهو أحوج ما يكون إليه.

٢- أن معنى: «عدَّده»: أحصاه، ولكن عدَّده مرة بعد مرة، وهذا ينبئ عن الحرص والنهم الشديد والخوف على زواله، وليس المذموم هو الغنى أو كثرة المال، وإنما الحرص والانشغال به عن طاعة الله أو تصريفه في الحرام.

٣- ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: نوَّعه، يعني: عنده أنواع وألوان من الأموال أرصدة، وسبائك ذهب، وعقار، وماشية... إلخ.

إن كل ما كان سببًا في احتقار الناس وازدرائهم فهو معيب، حتى لو كان ذلك بعبادة أو بعلم أو بجاه أو بنسب أو بحسب أو بجمال أو بمال، على أن كسب المال ليس عيبًا بذاته.

ذَرِيني للغِنَى أسعَى فإني ... رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأحقرُهم وأهونُهم لدْيهِم ... وإن أمسَى لهُ نسبٌ وخيرُ
ويُهمِلُه النديُّ وتزدريهِ ... عقيلتُه ويهملُه الصغيرُ

إلى قوله:

قليلٌ ذنبـهُ والذنـبُ جـمٌّ ولكِـنْ للغِنَى ربٌّ غَـفـورُ[1]

فالغنى منه ما يكون سببًا في رفعة الإنسان في الدنيا، واحترام الناس له، ومنه ما يكون سببًا في رفعته في الآخرة، ووصوله إلى أعلى الدرجات.

* ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة:٣]:

أي: أخلده في الدنيا، وأتى بالفعل الماضي: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾، ولم يقل: (يخلِّده). على سبيل التهكُّم بهذا الإنسان الذي يحسب أن القضية مفروغ منها، فما دام عنده مال، فهو قد أخلده، والأمر قد حسم وانتهى، فيقال له: رويدك، وهَوِّن عليك! ليس الأمر كما تظن.

وكيف يحسب أن ماله أخلده؟ هذا له عدة احتمالات:

١- يحسب أن المال أطال عمره، ومن الناس مَن يظن أنه بالمال يتداوى من الأمراض، ويأكل أطيب الطعام، وأن المال يكون سببًا في طول عمره، والواقع أن الإنسان قد يموت بسبب ماله، وإن كان من المعلوم بالحساب والإحصاء أن معدل أعمار الأفراد في الدول المتقدِّمة أطول منه في الدول النامية، بسبب الخدمات الصحية، والغذائية، والوقائية، وهذه من الأسباب الشرعية، وليس سببًا خارقًا أو خارجًا عن القضاء والقدر، فالبلاد التي تشيع فيها الأمراض والمخاطر البيئية، وتكثر فيها حالات المصادرة والقهر والحرمان والأذى للناس؛ يكون الفرد فيها أقصر عمرًا.

لكن هل الأغنياء والمشاهير في البلاد المتقدِّمة أو غيرها هم أطول أعمارًا من غيرهم؟

---

(١) ينظر: «البخلاء» للجاحظ (٢/ ١٣٥-١٣٦)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (ص ١٣٠)، و«عيون الأخبار» (١/ ١٠٣)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٤٧٩)، و«العقد الفريد» (١/ ٢٦١)، و«الأمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (ص ٦١)، و«أخلاق الوزيرين» لأبي حيان التوحيدي (ص ٦٠).

١- إن من أكثر أسباب مرض الضغط والسكر والقلق والجلطات الدماغية، الانشغال بالمال والإفراط فيه.

٢- أنه نسي الموت بانهماكه بالدنيا وانشغاله بها، فعمله على مَن يعتقد الخلود، كما يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه مِنَ الموتِ»[1].

٣- أنه يظن أن المال أخلده في الذكر، والذكر عُمْر، كما قال الشاعر:

فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِك ذكرَها ... فالذِّكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِي

فهو بنى المباني الفخمة، وشَيَّد وأَسَّس، فلذلك يحسب أن هذا المال خلَّده ببقاء ذكره بعد الموت، ومن الناس مَن يكون له شيء من الذكر بالمال إذا أحسن استخدامه، ومع هذا فالناس سَرَعان ما ينسون، وإن ذكروا فذكرهم لا ينفع الميت إِلَّا أن يكون دعاء وثناء بخير.

٤- أن يكون المقصود خلود مَن بعده من الورثة والقرابة ونحوهم، فهو يظن أنه بنى لهم مجدًا لا يزول بهذا المال.

٥- أنه يحسب المال أخلد طريقته ومنهجه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم:٤٤]. هم يعرفون أنهم يموتون، ولكن يقولون: يرثنا قوم آخرون، يكونون مثلَنا، على طريقتنا ومنهجنا. وفي كتاب: «نهاية التاريخ» أن الحضارة الأمريكية ونظام الحكم الديمقراطي الليبرالي هو نهاية التاريخ والتطور البشري.

وفي الآية الكريمة تعريض لطيف بأن المجد ليس بالمال، ولهذا قال بعده:

---

(١) ينظر: «البديع في البديع» (ص ١٢٥)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص ٣٠٩)، و«التمثيل والمحاضرة» (ص ٤٠٤)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ٩٣٤)، و«دلائل الإعجاز» (ص ٦٠٤)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٠٥)، و«الكشكول» (٢/ ٢٢٩).

﴿ كَلَّا ﴾. وإنما سبب الخلود في الدنيا والآخرة هي الأعمال الصالحة، والفضائل المعنوية: فضيلة العلم، الخلق، الإحسان إلى الناس، التعبد، التواضع. فالفضائل المعنوية والعلوم والأخلاق، هي المجد الباقي لصاحبه في الدنيا والآخرة.

فبذلك يضمن الإنسان شيئًا من الخلود في الدنيا بالذكر الحسن، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤]. وكذلك الخلود في الجنة.

* ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴾ [الهمزة:٤]:

وهذا زجر وإنكار لهذا الحسبان ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ﴾، يعني: حسابه خطأ، ولا خلود له.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ ﴾: شديدة الحطم والتحطيم، وجاء في «صحيح مسلم» أن عائذَ بن عمرو صاحب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد وهو أمير بالكوفة، وكان بطَّاشًا ظلومًا، فقال له: أي بُنَيَّ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن شرَّ الرِّعاءِ الـحُطَمَةُ**». يعني: الذي يحطم رعيته حطمًا بقسوة وغلظة، لا يبالي بكبير ولا صغير ولا ضعيف ولا غيره، ثم قال: «فإياك أن تكون منهم»، فقال له: اجلس، فإنما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ. فقال: وهل كانت لهم نُخالة؟ إنما النُّخالة بعدهم وفي غيرهم[1].

وهذه من الأجوبة المفحمة المسكتة، يعني: أنت وأمثالك النخالة.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ ﴾ المراد بها: شديدة الحطم، تحطم الإنسان، وتأتي عليه كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ من النَّبْذ، وهو الرمي والإلقاء، كما تُنبذ النواة، أو كما تُنبذ الحصاة، وفيه إشعار بالإهمال والنسيان، كما لو كان نواة تخرج من التمرة، أو حصاة أو شيئًا حقيرًا مستكرهًا، فيُنبذ ويُلقى ويُهمل ويُنسى، فلا يتفطن له أحد،

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٨٣٠).

وسوف يُهمل ذكره، بخلاف ما كان يظن أن ماله أخلده.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ فيُنسى ولا يُذكر، ولا يخلد ولا يبقى، ولهذا قال الله تعالى مثلًا عن فرعون الذي يحسب أن ماله وسلطانه أخلده: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٤٠]، ولاحظ النبذ هنا! يعني: في احتقار وازدراء وتهوين.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: صفة لجهنم، وهو أحد أسماء النار، وهي على وزن: «فُعَلَة»، كـ(همزة) و(لمزة)؛ فالجزاء من جنس العمل، فهذا الإنسان همزة لمزة، توعَّده الله سبحانه أن يُنبذ في الـحُطَمة، جزاءً وفاقًا لما كان عليه في الدنيا من تحطيم الناس باحتقارهم والاستهزاء بهم والتكبر عليهم.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥]:

وهو سؤال تفخيم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢].

وفي الآية الكريمة إشارة إلى خيبة طموح الإنسان في الخلود: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[الهمزة:٣]؛ لأن الله قال له: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ومتى يُنبذ في الحطمة؟ في الآخرة، يعني: بعد الموت.. فهو سوف يموت ولا يخلَّد.. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠]، فآماله وطموحاته في الخلود والبقاء تبخرت وذهبت أدراج الرياح، فلا أهل ولا مال ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر:١٥].

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ ليست معروفة في لغة العرب، ولعل هذا من أسرار السؤال عنها كـ «القارعة» و«الحاقة» وغيرها؛ فالله تعالى يذكر هذه الأسماء التي هي أسماء عربية، لكن لم يعرفها العرب من قبل، أو كانوا يستخدمونها في معنى ثم غيَّر القرآن استخدامها ووظَّفها في غيره.

فلما قال: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾، قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾

[الهمزة:٥-٦]، فـ «الـحُطَمة» هي النار، أو إحدى دَرَكات النار، أو باب من أبوابها، والأقرب الأول، وهو أن الحطمة هي النار.

* ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة:٦]:

فنسبها الله تعالى إليه، وهي ليست نار شيخ من شيوخ العرب، أو نار قبيلة من قبائلهم توقدها تفاخرًا أو تعاظمًا أو تهديدًا، وهي ليست كنار الدنيا التي تُوقَدُ ثم مآلها إلى أن تخبو وتنطفئ، وإنما هي: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾، وهذا الوقد وصف يصح أن يطلق عليها مطلقًا، فكل وقت هي موقدة؛ فالنار كانت موقدة، وهي الآن موقدة، ويوم القيامة موقدة.

* ﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة:٧]:

﴿ ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾: هي القلوب، والمقصود أن النار تصل إلى قلوبهم، هذا القلب الرقيق الذي يتألم لأي شيء؛ فالنار تصل إليه بحرِّها وسمومها، فتؤلم هذه القلوب أشد الإيلام؛ وذلك لأن القلوب هي محل الكفر، ومحل الكبر، ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من كِبرٍ**». قال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ؛ الكبرُ بطَرُ الحقِّ، وغمْطُ الناسِ**»(١).

ومن ذلك الهمز واللمز وازدراء الناس وبطر الحق.

* ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة:٨]:

أي: مغلقة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف:١٨]، و«الوصيد» هو الباب، والنار لها سبعة أبواب، كما قال الله: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[الحجر:٤٤]، كما أن الجنة لها أبواب ثمانية، كما في الحديث:

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

«أدخله الله من أي أبوابِ الجنة الثمانيةِ شاءَ»[1].

وقرأ عاصم وجماعة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ بالهمز، والجمهور يقرؤونها بالواو[2]، والمعنى واحد.

وهذا دليل على أنهم يدخلون النار، كما ورد في مواضع كثيرة في القرآن، ويخرج الله منها مَن شاء، كما في حديث الـجَهَنَّميين وغيرهم[3]، ممن يأذن الله تعالى في خروجهم منها من أهل الإسلام، ولكن بالنسبة للكافرين الذين هم أهل النار، فإن وجود الأبواب يزيد في تعذيبهم؛ لأنه كلما رأى الباب همَّ بالخروج وتمنَّاه وتطلَّع إليه، وكان حاله حال السَّجِين الذي كلما سمع قعقعة الباب عاودته الآمال، وظن أن هذا إيذان بفرجه، فهؤلاء في نار جهنم ينظرون إلى الأبواب، ويتطلعون إلى خروجهم منها، ولكن هيهات!

* ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٩]:

قراءة الجمهور بفتحتين ﴿عَمَدٍ﴾ وقرأ حمزة والكِسائي: (عُمُد) بضم العين والميم[4]. وكلاهما جمع، وقد يكون جمعًا لعمود.

و﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾ وليست صفة لـ ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾، خلافًا لما يظنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وفي «صحيح مسلم» (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه نحوه.

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٨٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص ٧٦٦)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٣٩٣-٣٩٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٥٨٠-٥٨١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٥٩، ٦٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٩١).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (٦٩٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٧٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص ١٤١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٥٨١-٥٨٣).

بعضهم من أن النار ممددة في أعمدة، وقد تكون هذه العمد من نار، وقد تكون مما شاء الله تعالى، وهذا غيب لا يستطيع أحد أن يتكلم فيه، والكلام فيه رجم بالغيب، وإن ذكره بعض المفسرين[1].

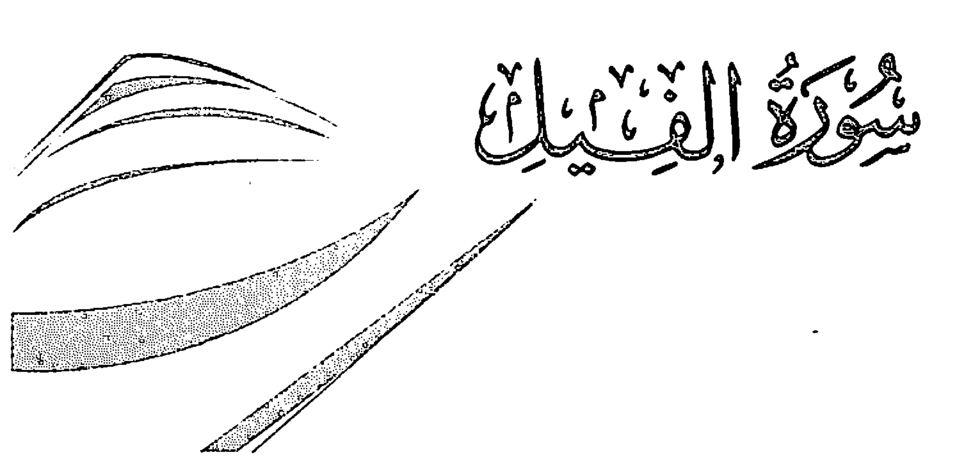
هذه العمد الطويلة قد تكون عمدًا في النار يوثقون بها كما يوثق السَّجين في الغُلِّ، ويقيدون بها، وقد تكون عمدًا ممددة على الأبواب مبالغة في إحكامها، وعدم خروجهم منها، وقد ورد في صفة النار حديث مشهور، وفيه: «**أُوقِدَ على النارِ ألفَ سنةٍ حتى احمرَّت**»[2]. والحديث في سنده ضعف، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٩١٠، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ٥٤٠١).

سُورَةُ الفِيلِ



سورة الفيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة الفيل»، كما في جميع المصاحف وكتب التفسير[١].

٢ - ويسميها بعضهم: «سورة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وهكذا في بعض الروايات عن أُبيٍّ بن كعب ﵁، وغيره[٢].

* عدد آياتها: خمس آيات بلا خلاف[٣].

* وهي مكية بإجماع أهل العلم، وهي والسورة التي تليها سورة قريش في مصحف أُبي بن كعب ﵁ سورة واحدة، حتى إنه ورد أنه لم يفصل بينهما بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٤].

وقد ورد أن عمر ﵁ قرأ بـ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ في الركعة الثانية

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٤٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٤) .

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٧٥)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (٢/ ٦٨٣)، و«التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٨٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٧).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«روح المعاني» (٣/ ٢٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٣، ٥٥٣).

من صلاة المغرب، وقد ذكر ذلك القرطبي وجماعة من أهل التفسير[1]، مما يدل على أنهما عنده كالسورة الواحدة وأن معناهما مترابط.

والقصة التي نزلت فيها السورة معروفة، وخلاصتها: أن أَبْرَهَة الحبشي الأَشْرم كان ملك اليمن من قِبَلِ النجاشي في الحبشة، حيث كانت اليمن تابعة للحبشة، الذين دخلوا اليمن بعد حادثة الأُخدود، والتي وقعت في نجران، وهي جغرافيًّا وتاريخيًّا من اليمن، والذين قُتلوا فيها كانوا من النصارى المؤمنين الموحِّدين، وحصل عليهم من التعذيب ما ذكره الله تعالى في «سورة البروج»، وبعدها غزا الأحباش اليمن، وحكموها ردحًا من الزمن، وكان مندوبهم في اليمن الذي يحكم باسمهم هو أَبْرَهة الأَشْرم، وكان قد بنى في صنعاء كنيسة سماها: «القُلَّيس»[2].

فأراد أَبْرَهة صرف قلوب الناس إليها بالتعبد والذكر، فَهَمَّ بغزو الكعبة؛ لئلا تنافس القُلّيس، أو لأن بعض العرب حاولوا هدم هذه الكنيسة أو تخريبها أو إهانتها، فجمع جيشًا كبيرًا، وجعل معهم أفيالًا، وقيل: فيلًا واحدًا؛ ولهذا سماهم: «أصحاب الفيل»، فغزا مكة، وجاء إليها؛ ليهدم الكعبة، ولما اقترب من مكة جاءه بعض وجوه العرب وعرضوا عليه الفدية والمال في مقابل أن يرجع عن مسيره، فأَبَى ورفض، وأخذ جيشه إبلًا لعبد المطلب، فجاءه عبد المطلب وكان رجلًا جميلًا حسن الصورة، فقال له: إنكم قد أخذتم بعض إبلي. فقال له: كنتَ عظيمًا في عيني، والآن سقطت منها؛ أتيتُ لهدم البيت الذي هو عزُّك وعزُّ آبائك وأجدادك، ولا تخاطبني فيه وتخاطبني من أجل إبل أخذناها! فقال: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه. ثم رجع من عنده، وأمسك عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وصرخ بأعلى صوته:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، والأثر أخرجه عبد الرزاق (٢٦٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٣)، والطحاوي (١/ ٣٤٨).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٦).

اللَّـهـمَّ إن العـبـدَ يمـ ـنعُ رحلهَ فامنـعْ رحالَك

لا يغلِبَـنَّ صـليـبُـهـم ومِـحَالُهم غدْوًا مِحَالَك[١]

إن كنتَ تاركَهم وكعـ ـبتَنا فأمـر مـا بـدالك[٢]

وخرجت قريش بنسائها وأطفالها خشية أن يغشاهم الجيش أو ينتهك أعراضهم أو يعتدي عليهم، وتركوا الكعبة أيامًا، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث عليهم طيرًا أبابيل، أي: جماعات معها حجارة، كل طير معه ثلاثة أحجار: واحد في فمه، واثنان في رجليه، ترمي هؤلاء القوم حتى أهلكتهم جميعًا.

قال ابن عباس ﷺ: رأيتُ عند أم هانئ نحو قَفِيز من هذه الحجارة مخططة كالجزع الظفاري[٣].

والجذع الظفاري: نوع من الخرز الصغار، دون حبات الحِمَّصِ وفوق العَدَسِ، فهي حجارة صغيرة مخططة، وهذا يدل على بقاء آثار أصحاب الفيل.

وورد أن بعض روثه كان موجودًا في مكة، وكأن العرب تركوه من باب الإبقاء على ما يدل على إهلاك هؤلاء القوم.

وورد عن عائشة ﷺ أنها رأت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس[٤].

---

(١) المحال: الكيد والقوة، والغدو: الغد.

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢١٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥١).

(٤) أخرجه ابن إسحاق (ص ١٦)، والواقدي -كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨٩)- وخليفة ابن خياط في «تاريخه» (ص ٥٣)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٤٨)، والبزار (٣٠٠)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٥٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢٥).

وهذا الأثر إن صح فهو يدل على أن هؤلاء الناس عُمِّروا، وهم من العرب الذين خانوا، وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغَالٍ؛ لأنه هو الذي دلَّهم على الطريق.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة؛ تذكيرًا وتثبيتًا للنبي ﷺ، بأن الله يدافع عنه وعن دينه، وإذا كان الله تعالى حمى الكعبة وهي حجارة، أفلا يحمي الله تعالى نبيه ﷺ وأولياءه ودينه ووحيه؟!

كما أن في ذلك عَلَمًا من أعلام نبوة النبي ﷺ؛ لأنه أخبر بهذه القصة ولم يكن النبي ﷺ شهدها، وكان بعض الذين شهدوا القصة أحياء، فكان من المعمَّرين: حَكِيم بن حِزام، ونَوْفَل بن عبد العُزَّى؛ فقد عمرا مائة وعشرين سنة، وهما ممن عاصروا الحادثة.

وقد ذُكرت قصة الفيل في القرآن مرة واحدة، وفي ذلك فوائد عظيمة، منها:

إقامة الحجة على العرب، متقدِّميهم ومتأخِّريهم؛ ولحماية النبي ﷺ، وتثبيت قلوب المؤمنين.

ولم يتكرر ذكرها؛ لئلا يداخل العرب شيء من الغرور والعجب والتعاظم بأن هذا بيتهم، وربما صرفهم هذا عن الخير.

وذُكرت حادثة الفيل في سُنَّة النبي ﷺ في الحُدَيْبِيَة، لما خرج النبي ﷺ إلى مكة خَلَأَتِ القصواء، يعني: بركت ناقته ﷺ، فقال الصحابة: خَلَأَتِ القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خَلَأَتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ -أي: ليس من عادتها- ولكن حبسَها حابِسُ الفِيل».

ولاحظ أن النبي ﷺ عبَّر هنا عن حبس الفيل، وليس عن الكعبة فقط، فالله حمى الكعبة وحمى مكة المكرمة، وفي هذا يظهر تعظيم النبي ﷺ للكعبة ولمكة، حتى وهو يقدمها باسم الله تبارك وتعالى لحج بيت الله الحرام، وللعمرة، ومعه المؤمنون،

ومع ذلك لما خلأت تراجع وقال: «**والذي نفسِي بيدِهِ، لا يسألونِي خُطَّةً يعظِّمونَ فيها حُرماتِ الله إلا أعطيتُهم إيَّاها**»[1].

وانظر إلى هذا الموقف النبوي وإلى مواقف بعض المسلمين عبر التاريخ الذين انتهكوا حرمة البيت، فالباطنية القرامطة الملحدون، وهم من المحسوبين على الإسلام، انتهكوا حرمة البيت، وقتلوا الحُجَّاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وهربوا به إلى مقر مملكتهم وحكومتهم في الأحساء، ومكث عندهم أكثر من خمس عشرة سنة!!

وأعجب من هذا، الحادثة الشهيرة التي انتهك فيها حرمة البيت الحرام عام (١٤٠٠هـ)[2].

إن المؤمن بحاجة إلى مراقبة النفس بشكل دائم، وألَّا يسمح لنفسه أن تصول وتندفع؛ تأسِّيًا بموقف النبي ﷺ، وكيف جاء بأصحابه ورُدَّ عن البيت، ولم يعط لنفسه أي تأويل، ولما عرضوا عليه الصلح -مع ما فيه من مذلة في ظاهر الأمر- قبله النبي ﷺ وأمضاه، هذا موقف.

والموقف الثاني: أن النبي ﷺ لما فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة خطب الناس وقال: «**إن الله حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنين، وإنها لم تحِلَّ لأحدٍ كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعةً مِن نهارٍ، وإنها لن تحلَّ لأحدٍ بعدي، فلا يُنفَّر صيدُها ولا يُختلَى شوكُها، ولا تَحِلُّ ساقطتُها إلا لمُنشِدٍ**»[3].

وحادثة الفيل وقعت في العام الذي وُلد فيه النبي ﷺ، بإجماع المؤرِّخين وعلماء السير، كما ذكره خليفة بن خَيَّاط، وأبو الخطاب بن دحية، وذكره ابن كثير وابن القيم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) ينظر: «طفولة قلب» للمؤلف (ص ١٨٩-١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري» (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وابن حجر وغيرهم، ونقل غير واحد الإجماع عليه، سواءً من المفسرين أو من أهل السيرة[1].

ولكن كانت ولادة النبي ﷺ بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا، وحادثة الفيل كانت في شهر الله المحرم، وهو يوافق شهر شباط أو فبراير من الشهور الأعجمية، وذلك سنة (٥٧٠) من ميلاد المسيح عليه السلام، وبعد ذلك اليوم بخمسين يومًا وُلِد النبي ﷺ.

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١]:

الاستفهام هنا تقريري، والمعنى: أنك قد رأيتَ، ولكنه غالبًا يأتي بصيغة النفي الذي ظاهره النفي وحقيقته الإثبات، ويفيد معنى التحدِّي، فلا المخاطب ولا غيره يستطيع أن ينفي هذه الحادثة، فهي في ثبوتها قضية يقينية لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكِّك فيها.

وهذا الاستفهام التقريري مثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦].

والرؤية هنا يحتمل أن تكون علمية، يعني: علمًا بالخبر، أي: علمتَ العلم اليقيني القطعي أن الله تعالى فعل بأصحاب الفيل ما فعل.

ويحتمل أن تكون الرؤية رؤية بصرية، يعني: بعينك، وهل رأى النبي ﷺ أصحاب الفيل وما جرى لهم بعينه؟ كلَّا.

---

(١) ينظر: «تاريخ خليفة» (ص٥٣)، و«العقد الفريد» (٥/ ٣)، و«شرف المصطفى» لأبي سعد الخركوشي (١/ ٤٤١)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٢-٢٣)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٥)، و«زاد المعاد» (١/ ٧٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٨٠).

فإما أن يحمل على مَن رأوا هذه الحادثة، وكان بعضهم أحياء كما ذكرنا، وهم مخاطبون بهذا القرآن ويسمعونه.

أو أن يكون ذلك إشارة إلى ما رأوا من الآثار، مثل أثر ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى في بيت أم هانئ رضي الله عنها بعض الحجارة، ومثل ما ذكر بعضهم أن آثار الأفيال كانت موجودة في أنحاء مكة، وإلى غير ذلك من الآثار التي بقيت ورآها الناس.

وتأمل أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، ولم يقل: (ماذا فعل ربك بأصحاب الفيل)، وفيه إشارة إلى استحضار الصورة في الذهن؛ لأن الكيفية عبارة عن صورة تفصيلية، فإذا قيل لك: «كيف فعل ربك»، تخيَّلت الكيفية وهذا الجيش وهذه الأفيال، ثم هذه الحجارة وهي تقصفهم قصفًا.

وفي قوله: ﴿كَيْفَ﴾، أراد أن يلفت نظر المستمع إلى أن يعتني بالكيفية في الأشياء، وهذا كثير في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]، فيتخيل الإنسان هذا الظل وهو يمتد حسب حركة الشمس.

فالكيفيات مهمة عندما يتخيلها الإنسان ويتصورها في كثير من الأشياء، وحينما يذكر الله تعالى الأشياء بالكمية، فإنه يذكر أشياء أخرى تتعلق بشكلها وأهميتها وصفتها؛ للفت الأنظار إلى الكيفية.

ففي قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، عبَّر بـ ﴿كَمْ﴾ وهذا من حيث كثرة أنواع النبات، لكن هذا غير خارج عما نقوله؛ فهو يلفت النظر إلى الصفة وهي تتعلق بالكيفية، فالزوج الكريم والبهيج هي صفات تتعلق بالكيفية.

فالكيفية مقصودة، وملاحظتها وتدبرها ضرورية، وعلى الإنسان أن يلاحظ في موضوع الكيفية شيئين:

١- ما يتعلق بالأشياء القَدَرِية المخلوقة من الله تبارك وتعالى، فإن مراعاة كيفيتها مما يقيم الحجة على الناس، وهو أبلغ في الاعتبار، فإذا فكَّر الإنسان: كيف يسمع؟ كيف يبصر؟ كيف يأكل؟ كيف يفكِّر ويعقل؟... إلخ، فإن التأمل في هذه الكيفية يحدث للإنسان يقظة القلب والإيمان، والتدبر شيء ضخم هائل، وجرب ذلك في الكلام. نحن نسمع الكلام ونقول الكلام، ولكن لا يفكِّر أحدنا في كيفيته، وكيف يخرج؟ وكيف تتكون الحروف؟ وكيف يسمع الكلام؟ وكيف يصل؟ وكيف يحلِّله الدماغ؟ وكيف تنقله الأعصاب؟ وكيف يستجيب له الجسم؟ وكيف تتكون اللغات وتكتمل وتتنوع؟ أو كيف يأكل الإنسان؟ أو كيف يشرب؟ أو كيف ينام؟ وما الفرق بين النوم واليقظة؟ أو كيف يفكر العقل؟ وكيف يستذكر؛ لكان التأمل في هذه الكيفيات من أعظم ما يعزِّز الإيمان.

٢- ما يتعلق بالأمر الاختياري، فإن على الإنسان أن يضبطه بالمعيار الشرعي، ويصحِّحه ويلتزم فيه بالأدب والخلق والتهذيب، ويطوِّره شيئًا فشيئًا؛ لأن العبرة بالكيفيات، وليس فقط بالكميات، يعني: ليس العبرة كم لك من صديق؛ لأن كثرة الأصدقاء ليست بحد ذاتها أمرًا محمودًا، ولهذا قال ابن الرومي:

عدوُّك من صديقِك مستفادُ ... فلا تستكثرنَّ من الصحابِ

فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه ... يكونُ من الطعامِ أو الشرابِ[1]

بل العبرة بكيفية الصحبة، وحسن المعاشرة، وحسن الأدب، والتلطف، والصبر، والاستفادة منهم، ومثله سائر الأعمال والعبادات والطاعات والمصالح، فإن العبرة بكيفية إنجازها وأدائها، فليتأمل المؤمن كيف يصلِّي، وكيف يصوم، كيف يحج، كيف يعبد ربه، كيف يطبق تعاليم الإسلام بالأخلاق والعلاقات وغيرها.

---

(١) ينظر: «ديوان ابن الرومي» (١/ ١٠٨).

وهذا يبيِّن فضل معرفة الكيفيات المفصَّلة على الإجمال والإبهام.

فلو قيل لك: إن جيشًا غزا مكة وقتلوا، ربما لا يلفت نظرك، لكن إذا فصل ذلك كما في السياق؛ لوجدت العجب في ترسيخ الإيمان وتدعيمه، حتى إن الأساطير المركبة المتداولة في ثقافات الشعوب ذات تأثير عظيم بسبب تفصيلها وتحديد مساقاتها.

وهنا لاحظ أنه قال: ﴿فَعَلَ﴾، ولم يقل: (صنع)، أو: (خلق)، أو: (أرسل)؛ لأن الأمر الذي جرى على أصحاب الفيل فيه خَلْقٌ، مِن خَلْقِ الطير والحجارة، وفيه إرسال، وفيه جعل، فاختار الله سبحانه وتعالى كلمة: ﴿فَعَلَ﴾، حتى تشمل هذه الأشياء كلها.

وقال: ﴿رَبُّكَ﴾ ولم يقل: (الله)؛ لما فيه من إشارة إلى ارتباط حادثة الفيل بمبعث الرسول ﷺ، وأن هذه الحادثة وإن كانت قبل البعثة، بل وقبل ميلاده ﷺ، إلا أنها من إرهاصات بعثته ﷺ؛ ولذلك استعمل لفظ «الرب»، المتضمِّن لمعنى الرحمة والرعاية، وفيها الملك والتدبير، وفيها التصريف والتربية.

فـ﴿رَبُّكَ﴾ هو الذي ربَّاك بنعمه، وتعاهدك بفضله وعطائه، فكأن في ذلك إشارة إلى أن حادثة الفيل هي من لطف ربك، وحسن تدبيره وتصريفه ورعايته لك، فقدَّم بين يدي بعثتك بل بين يدي ميلادك هذه الحادثة العظيمة التي كان من آثارها حفظ الكعبة، وكون قبائل العرب في الجزيرة العربية يتجهون إلى الكعبة بالتعظيم، ويحبون الكعبة وأهلها، ويكون لقريش من المكانة ما يمهد ويهيئ لقبول رسالة النبي ﷺ وخروجه فيهم.

كذلك إضافة كلمة «رب» للنبي ﷺ، فيه معنى الاختصاص، فالذي أَهْلَكَ أهل الفيل هو ﴿رَبُّكَ﴾، وهو الذي سوف يهلك كل عدو يقصدك بسوء؛ لأنك أنت وكل مؤمن أعظم حرمة من الكعبة، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة وقال: **«ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد**

بيده، لحرمة المؤمن أعظمُ عند الله حرمةً منك»[1]. وقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الكعبة!

فهذا فيه ربط للنبي ﷺ بحادثة الفيل، فهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١-٢]، فهذه هي مكة التي وُلدت فيها، وبُعثت فيها، وسوف تكون منطلقك ومردك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص:٨٥].

قوله تعالى: ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ يرى جمهور المفسرين أن نسبتهم إلى الفيل هو مجرد تعريف، مثل قولك: «أصحاب الجمل»، وهم عائشة رضي الله عنها ومن معها، ومثل: «أصحاب الكهف»، و«أصحاب السجن»، و«أصحاب السَّبْت»، و«أصحاب الجنة»، أي: البستان، فقد يُنسب الناس إلى أدنى ملابسة تتعلق بهم.

أما العرب، فلم تكن تعرف الفيل أصلًا، بل كانوا يتخيلونه مجرد تخيل بأذهانهم، كما قال كعب بن زُهير:

وقد أقومُ مقامًا لو يقومُ به ... أرى وأسمع ما لا يسمع الفيلُ[2]

وكما قال لَبِيد:

ومقام ضيق فرَّجته ... ببيانٍ ولسان وجدلْ

لو يقومُ الفيلُ أو فياله ... زلَّ عن مثل مقامي وزحلْ[3]

والفيل أعظم من الجمل الذي تعرفه العرب، وله هذا الخرطوم الذي يلتف به على ما يريد، وكانوا في الحروب يعتبرونه محفة، ويركب عليه ستة أو سبعة من الجنود،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٠).

(٢) البيت من قصيدة اعتذاره للرسول ﷺ، وهو في «ديوانه» (ص ٤٩).

(٣) ينظر: «ديوان لبيد» (ص ٨٥).

وهو سلاح هائل يحطم ما أمامه.

فجيش أَبْرَهة جاؤوا إلى جزيرة العرب بشيء لم يكن معروفًا عند العرب يشبه أسلحة العصر الحاضر من الطائرات الضخمة والبارجات الهائلة والدبابات العظيمة التي لا عهد للعرب بها، فوقع لهم من الدهشة والخوف والرعب ما لا يخطر على بال، وكان أبرهة وجنده يظنون أنهم مانعتهم أفيالهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ ولهذا ناسب أن ينسبهم إليه، وفي هذا نوع من التحقير المبطن لهم؛ لأن هذا الفيل -وهو حيوان- بَرَكَ، وحُبِس عن مكة، فكان إذا وُجِّه إلى الكعبة بَرَكَ، وإذا وُجِّه إلى أي جهة أخرى ثار وأسرع في المسير، في حين يصرُّ هؤلاء على هدم بيت الله تعالى وأذية أهل بيته! فكان الفيل خيرًا منهم عملًا وأحسن مصيرًا.

* ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل:٢]:

وفي السياق دعوة إلى رؤية «فعل الله» بدلًا من الوقوف الطويل على «فعل العباد» فالسورة لم تستطرد في حكاية القصة ولا سرد المؤامرة، بل وجَّهت العناية إلى الفعل الإلهي تحذيرًا للمؤمنين من المبالغة في استحضار الكيد الفاجر، أو سيطرة الخوف المفرط على النفوس والغفلة عن الحكمة والتدبير الإلهي ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وفيه تأكيد وتحديد للكيفية، فبعد أن قال: ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾، انتقل السياق ليحدِّد لك هذا الكيف، وهذا بيان للإجمال، والله سبحانه وتعالى سمَّى عملهم «كيدًا»، والغالب أن الكيد هو التدبير الخفي اللطيف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨]، وما فعله أهل الفيل كان ظاهرًا مكشوفًا، فقد جاؤوا بالفيل مع جيش عرمرم، فهذا ليس خفيًّا، فلماذا سماه الله تعالى «كيدًا»؟ إن في هذا أكثر من احتمال:

١- إما لأن هؤلاء القوم وإن جاؤوا بحجة أنهم يثأرون لكنيستهم المهانة، أو

جاؤوا بحجة هدم الكعبة، إلا أن حقيقة ما جاؤوا له كان أعظم مما أعلنوه، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]، وكذلك يفعل الطغاة دومًا، فهم يتحدَّثون عن إسقاط حكومة أو إزالة نظام، لكن حقيقة مقاصدهم أعظم مما يبوحون به، وهكذا أصحاب الفيل، أعلنوا هدفًا محدَّدًا، وهو هدم الكعبة، أو الانتصار لكنيسة القُلّيس بصنعاء، لكن حقيقة ما يهدفون إليه كانت أبعد من ذلك، فكان دافعهم الحسد للعرب، ومحاولة صرف الناس عن ملة الحنيفية بكل وسيلة، وعلى ما هو مقرَّر؛ فإن هدم رمز من رموز الدين هو هدم للدين نفسه.

٢- أو لأن مثل هذه الحروب عادة ما تكون مصحوبة بعمل استخباراتي واسع قبلها ومعها وبعدها، ولولا هذا العمل الاستخباراتي ما تحقَّقت أهدافها، وهو عمل يقوم على استقراء الظروف، ومعرفة الطرق، والعدو والتخطيط له، والمكر والمباغتة، وغير ذلك من الأساليب والفنون الحربية، وهذا كله يدخل في باب الكيد؛ ولذلك ذكره الله تعالى عن فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧]؛ لأن جانب المؤامرة فيه ظاهر: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٦]، وكونهم حاذرين يقتضي منهم التحرز والاحتياط وعمل الاستخبارات والمكر والتجسس ورسم الخطط وتبييت الحيل... إلخ.

ولكن لم يغنهم حذرهم شيئًا، واستدرجهم الله إلى اليم ليغرقوا فيه، وهم ظانون أنهم مدركو موسى عليه السلام ومَن معه.

والتضليل هو: الضلال، فلم يصل هذا الكيد إلى أهدافه التي حدَّدوها، ولم يحقِّق القوم مقصودهم، فَضَلَّ هذا الكيدُ وذهب أدراجَ الرياح، وجعل الله كيدهم في تضليل.

* لقد انتهى كيد أصحاب الفيل وفشل سريعًا، وكان بمقدورهم أن يعودوا إلى بلادهم سالمين، ويعيدوا الكَرَّة بعد حين، لكن الله تعالى باغتهم بجنود من عنده،

فقال: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل:٣]:

وهذا من ذكر الكيفية التي فعلها بهم ربنا تبارك وتعالى، فهو لم يقل: (أرسل إليهم)، وإنما قال: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ ليدل على أن ما أرسل إليهم واقع بهم لا يخطئهم.

ونكَّر ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾، ولم يقل: (الطير الأبابيل)؛ لمقاصد منها:

١- أن هذه الطيور ليست مما تُعرف، فهي طيور منكرة؛ ولهذا قال العلماء: ليست بنجدية ولا تهامية ولا مما يعرفه العرب، وإنما هي طير من عند الله تعالى، مخلوقة لهذا الغرض بخاصة.

٢- أن في التنكير إشارة إلى غموض أمر هذه الطير، والغموض في المعارك مما يزيد الأعداء خوفًا، وقد يقول القائل: كيف يزيد الأعداء خوفًا وقد ماتوا وفنوا؟

نقول: كذلك مَن بعدهم ممن خُوطبوا بهذا الوعيد من قريش، ومن أمم الكفر في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، فيقال لهم: إن الله تعالى أرسل على قوم طيرًا أبابيل، وعنده من الجنود ما لا يعلمه إلا هو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١].

ولا غرابة أنها كانت غامضة حتى على مَن أرسلت إليهم، فهم لا يعلمون جهتها ولا طبيعتها، وكانت مفاجأة غير محسوبة عندهم.

٣- أنها جاءت نكرة لعظم أثرها، فإنك إذا رأيت كيف صنعت بهؤلاء القوم الأشداء رأيت شيئًا عظيمًا، والتنكير يكون للتعظيم، كما هو معلوم عند العرب.

٤- أن من معاني التنكير التصغير والتحقير، فهذه الطيور صغيرة حقيرة في نظر الإنسان، ولكنها على صغرها وهوانها عند مَن يراها، إلا أن الله تعالى أجرى بسببها هذا الأثر العظيم وهذا من الإعجاز.

ومعنى ﴿أَبَابِيلَ﴾: أي: جماعات، وهذه الكلمة معروفة عند العرب، كما ذكر أهل اللغة، وقال بعضهم: ليس لها واحد من لفظها، مثل: أساطير، وإن كان المتأخرون يقولون: أسطورة، ومعنى ﴿أَبَابِيلَ﴾: جماعات، هذا قاله الأخفش والفرَّاء وجماعة من أهل اللغة، وقيل: إن لها مفردًا، واختلفوا هل مفردها: إبيل، أو أُبول، أو إبال، أو إبالة؟

وكثير من المفسرين خاضوا في صفة هذه الطير بما يثير العجب والاستغراب، فإن ربنا تعالى لم يذكر شيئًا من ذلك، وإنما وصفها بأنها «طير» وحسب، وأنها أتت جماعات جماعات، يعني: فرقًا من الطيور، تأتي هذه من هنا، وهذه من هنا، وهذه من هنا، وهذا هو محل الاعتبار، أما الخوض في شيء من صفاتها مما لم يذكره القرآن، فهو أمر لا ينبغي أن نتشاغل به عن محل العبرة والعظة ومقصود السياق، كما أن فيه تتبعًا لما لم يأتنا فيه خبر ولا علم، وإنما هي مجرد ظنون واجتهادات.

* ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل:٤]:

و«ترمي» فعل مضارع، والمضارع يدل على أن الفعل يحدث الآن، وإنما جاء التعبير بالمضارع من أجل استحضار الحال، كأنك تتخيل هؤلاء القوم والطير ترميهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[فاطر:٩]، يعني: حالة إثارتها للسحاب؛ وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر هذه الحجارة التي يرمون بها، وقال: «لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل، جعل لا تقع منها حجر برجل منهم، إلا نفط مكانه». قال: «فذلك أول ما كان من الجُدَرِي»[(١)].

وهو مروي عن سعيد بن جبير وغيرهم، وذكره معظم المفسرين[(٢)]، ولم يكن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٦١).

(٢) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٦٢).

العرب يعرفون مرض الجدري قبل الحادثة.

وهنا أود أن أشير إلى أن عددًا من المفسرين المعاصرين، مثل الشيخ المراغي، والشيخ محمد عبده، وجماعة قالوا: إن هذه الطير مثل الذباب أو البعوض التي تنقل الأمراض والأوبئة، وأنها نقلت مرض الجدري إلى هؤلاء، وقالوا: إن هذا فيه عبرة[1].

وفي كل صنع ربنا تبارك وتعالى عبرة وأُسوة، حتى خلق البعوض أو الذباب وما هو أحقر منهما، فلا شك أن فيه عبرة لـمَن اعتبر، لكن الله تعالى ذكر أنها ترميهم بحجارة، وتأويل الحجارة بالجراثيم أو الأوبئة بعيد لا يساعده السياق، وهذه الحجارة من جنس الحجارة التي عُوقب بها قوم لوط، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، والسِّجيل المنضود هو الحجارة من الطين، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ...﴾ [الذاريات: ٣٣].

فتبيَّن من هذا أن ما أُرسل على أصحاب الفيل هو ما أُرسل على قوم لوط؛ ولذا فإن تأويل ذلك بالجراثيم أو الجدري بعيد، والأقرب أن الأمر كان آية ربانية خارقة للمألوف، وربنا تعالى على كل شيء قدير، والذي أنزل على قوم لوط هذه الحجارة قادر على أن ينزلها على هؤلاء، فهذا من حكمته وقدرته وانتقامه ممن عصوا أمره.

وبعض المفسرين المتقدِّمين يذكرون عن الحجارة من سجِّيل شيئًا آخر، فبعضهم يقول: إن «السِّجِّيل» هو «السِّجِّين» المذكور في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، أي: فهي من النار، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هي السماء الدنيا. وهذا لا يعرف في لغة العرب، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هو السِّجِل المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٤٣)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٩٧٦).

نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، أي: أن هذه الحجارة مما كُتب في القدر واللوح المحفوظ أن يعاقبوا بها[1].

وكل هذه الأقوال بعيدة، والقرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، فذكر الله تعالى عن قوم لوط أنهم عُوقبوا بحجارة من «سجِّيل»، و﴿ مِّن ﴾هنا بيانية، يعني: المادة التي تكونت منها هذه الحجارة هي السجِّيل، وهي الطين المتحجر، وليست الحجارة الصخرية.

* ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾[الفيل:٥]:

قيل: إن «العصف» هو الشيء الذي تعصف به الرياح، ولذلك قال بعضهم: العصف: ورق الحنطة، وقال بعضهم: التبن.

و«العصف» ورد في القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[الرحمن:١٢]، فالعصف هو الورق أو التبن، وقيل: العصف هو القشر الذي يكون على حبة البُرِّ، فيزال عنها[2].

ومادة «عصف» هي ما يعصف أو يحطم من الزرع، مثل التبن، أو الورق اليابس.

والله لم يجعلهم كعصف فقط، بل كعصف مأكول، وكيف يكون العصف

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٢/ ٤٤٩)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٦١)، و«تفسير ابن عطية» (٣/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٨٢)، (٢٠/ ١٩٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٦٣٦، ٧٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٣-١٨٥)، (٢٤/ ٦٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٩٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٤-٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٦)، (٢٠/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، (٨/ ٤٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٣).

مأكولًا؟

يحتمل أن يكون معنى مأكول: أي: أكله الدود، فالورق قد يصير ضعيفًا شديد الضعف واهيًا.

ويحتمل أن يكون المعنى كزرع أُكِل حبه وبقي العصف وهو القشر.

ويحتمل أن يكون المعنى أُكِلَ أكثرُه، وبقي بعضه، فإنه إذا أكلت البهائم التبن أو غيره، فإنها تأكل منه، ويبقى منه بقية مقطعة ممزقة منثورة ذات اليمين وذات الشمال، وهذا أحقر ما يكون، يعني: لم يجعلهم مثل التبن فقط، بل مثل التبن الذي أكلت منه الحيوانات، وفرقته فلم يعد له قيمة ولا معنى حتى إن البهائم استنكفت عن ذلك لحقارته.

وفي هذه القصة آية وعبرة أجراها الله تعالى حماية لبيته العتيق، فإن الله سبحانه وتعالى امتن بحمايته يوم كان الناس في الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ، وكان هذا إرهاصًا للبعثة، وحماية للنبي ﷺ، وإيذانًا بانتشار الرسالة، وقوتها وعظمتها.

ومع ذلك يذكر التاريخ أن الكعبة على مدى حكم الإسلام لها قد تضرَّرت أكثر من مرة، فالـحَجَّاج حاصر الكعبة في عهد عبد الملك بن مَرْوان، ورماها بالـمِنجنيق، فتهدَّم بعضها ومع ذلك لم يأت لجيشه ما جاء لأصحاب الفيل.

وهكذا النبي ﷺ أَخْبر أنه في آخر الزمان «يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشةِ»[1]. تصغير ساق!

وأصحاب الفيل هم من الحبشة، فربما يكون عندهم في بعض كتبهم أنهم هم الذين يُخَرِّبون الكعبة، وهذا قد يكون موجودًا في الكتب السابقة، فلعلهم تلقَّوا في كتبهم التي يتوارثونها أن الحبشة يُخَرِّبون الكعبة، فكل واحد منهم يستعجل أن يكون

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

له هذا الذي يعتبره شرفًا، ويريد أن يتم هذا على يده، والله تعالى أعلم، وهذا كثيرًا ما يقع، كما تجده في هذه الأمة في الروايات والآثار الواردة في ظهور الـمَهْدي الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت جورًا وظلمًا، فمنذ عهد بني أمية وكثير من الناس يدعون هذا، فقد يستعجل الواحد أن يكون صاحبها، فقد يكون مجيء أصحاب الفيل إلى مكة بدافع أنهم يجدون في كتبهم مثلما نجد نحن في كتبنا أن الذي يهدم الكعبة هو ذو السُّوَيْقَتَيْن، فاستعجلوا ذلك وعاقبهم الله تعالى، وإنما يكون هدمها في آخر الزمان، وقد قال النبي ﷺ: «**كأني به أسود أَفْحَجَ، يقلعها حجرًا حجرًا**»[1].

والسؤال: لماذا أنزل الله تعالى ما أنزل على أصحاب الفيل، ولم يعاقب الـحَجَّاج ومَن معه، ولم يعاقب ذا السُّوَيْقَتَيْن؟

والجواب - والله أعلم -: أن العقوبات كانت تأخذ الأمم قبل البعثة المحمدية، كما حكى الله عن أمم الأنبياء فهكذا قصة أصحاب الفيل، وأن قصة أصحاب الفيل وما نزل بهم كان من نوع الإرهاص بميلاد النبي ﷺ وبعثته، فهي حال خاصة تلفت أحياء العرب إلى هذا البيت وما سيكون حوله من بعثة محمد ﷺ.

وأما بعد ذلك فقد تحمَّلت الأمة مسؤولية الجهاد والدفاع والمدافعة عن البيت، ولا يلزم أن مَن قصده بسوء يُنتظر به ما نزل بأصحاب الفيل؛ فالحَجَّاج أصاب الكعبة بالمنجنيق، والقرامطة قصدوا الكعبة بالعدوان وانتزعوا أعظم أحجارها؛ الحجر الأسود، ولم يصح حصول أمر استثنائي أو عقوبة سماوية بهم؛ ليتحمل المسلمون مسؤوليتهم ويجري الله عقوبته على مَن ظلم بأيديهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

أما ما يتعلق بذي السُّوَيْقَتَيْن فإن الأمر مختلف؛ لأن الكعبة إنما تكون عظمتها

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بمَن يطوف بها ويصلِّي إليها، والله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، فلما لم يبق في الأرض مَن يحج، ولا مَن يعتمر، ولا مَن يصلِّي إلى البيت الحرام، فقد تعطلت منافعها، فيأذن الله تبارك وتعالى بهدمها آخر الزمان حينما لا يبقى في الأرض مسلم يقول: «الله الله»، كما أخبر النبي ﷺ[1]، وقال أيضًا: **«وليُسْرَى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية»**[2]. وذلك حينما يندرس الإسلام، وينتهي أمره قبيل قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٧٣، ٥٤٥) من حديث حذيفة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٧).


سورة قريش

سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:١-٤].

* تسمية السورة:

هذه السورة اسمان:

١ - «سورة قريش» وهو ما ورد في المصاحف كلها، وغالب كتب التفسير[١].

٢ - «سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾» وقد جاءت هذه التسمية في رواية عَمرو بن ميمون الأَوْدي، لما ذكر صلاة عمر رضي الله عنه المغرب، وقراءته بهاتين السورتين، وذكره الإمام البخاري في «صحيحه»[٢].

* عدد آياتها: أربع آيات عند الجمهور، وعدَّها أهل المدينة خمس آيات[٣].

* وهي مكية بإجماع أهل العلم، كما قال ابن عطية[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٩٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

ورُوي عن الضحاك والكلبي أنهما قالا: هي مدنية[1]، وهو قول ضعيف، فالسورة ذات علاقة وثيقة- على الأرجح- بسورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١].

وهي سورة مستقلة عن سورة الفيل، وجاءت في مصحف أُبي بن كعب بجوارها غير مفصول بينهما بالبسملة، ولعل أبيًّا كان يرى أن السورتين سورة واحدة، والله أعلم[2].

وهذا ليس نصًّا، فقد يكون الأمر فيها كالأمر في «سورة الأنفال» و«سورة براءة»، حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، ومع ذلك فهما سورتان، وبعض المفسرين يحكي الإجماع على أنهما سورتان لا سورة واحدة[3].

والسورة على قصرها حوت فوائد وحِكَمًا عظيمة، وما أكثر الذين يقرؤونها ولا يدركون حِكَمها وفوائدها، أو لا يفهمون معناها.

* ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١]:

«الإيلاف» مأخوذ من الإِلْف والأُلْفة والتأليف، وهو أن يلزم الإنسان الشيء، ويعكف عليه، ويعتاده، حتى يصبح مألوفًا معروفًا، فالمعنى: لإلف قريش، أي: لكي يألفوا ويعتادوا ويسهل عليهم أمر السفر.

وفي اللام في أول السورة ثلاثة احتمالات:

الأول: أن تكون متعلقة بما قبلها، في «سورة الفيل»، وعليه فالمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يمتن بإهلاك أصحاب الفيل، وجعلهم كعصف مأكول، وحماية هذا

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣٠/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٢) ينظر ما تقدم في سورة الفيل.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠).

البيت؛ وذلك من أجل «إيلاف قريش».

وذلك أن الله أهلك أصحاب الفيل؛ من أجل بقاء قريش ومصالحهم، وفي ذلك كثير من الحِكَم والأسرار التي منها: بعثة النبي ﷺ فيهم.

ومنها: بقاء أثرهم؛ فقريش هم سَدَنة البيت، وحماته، واستمرت مكانتهم في الإسلام، حتى قال النبي ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش**»[1]. يعني: أمر الخلافة والحكم والسلطان، وظلت قريش في عهد الخلفاء الراشدين، وبني أُمَيَّة، وبني العباس، محط أنظار المسلمين، وكانت فيهم السيادة والسلطان العام للأمة كلها.

كما أن لهذه القبيلة شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فهي القبيلة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم.

والقول بترابط هاتين السورتين، وأن اللام فيها مرتبطة بما قبلها، قول ابن إسحاق في «السيرة»، وجماعة من أهل اللغة، كالفرَّاء والزجَّاج وأبي عُبيدة، وقال الإمام القرطبي: «هو معنى قول مجاهد». وحسبك بمجاهد في التفسير؛ لأنه أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا القول رواية عن سَعِيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

قال الزمخشري وغيره[3]: وعلى هذا يكون هذا مثل التضمين في العروض في الشعر، وهو من عيوب الشعر عند المتقدِّمين، وهو أن يكون معنى بيت مرتبطًا بالبيت الذي قبله، أو الذي بعده، وليس كل عيب في الشعر يكون عيبًا في غيره، وكلام الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٣١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٤٧)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٥).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥٤٧)، و«الدر المصون» (١١/ ١١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٥).

تعالى منزَّه عن العيب، على أنه ليس في هذا تضمين؛ لأن ما في سورة قريش هو اعتماد على معنى مفهوم في أذهان السامعين؛ ولذلك استنكر ابن جرير وجماعة[1] أن تكون اللام متصلة بقصة الفيل، ولا يصح عندهم أن يكون المعنى: أهلكنا أصحاب الفيل من أجل إيلاف قريش.

وذكر البيت موجود في السورة نفسها: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾[قريش:٣]. فحفظ الله تعالى الكعبة لإيلاف قريش، والمعنى تام وغير مرتبط بسورة الفيل، كما أن معنى سورة الفيل تام.

و«قريش» اسم جد هذه القبيلة، وقد يكون اسمًا للقبيلة؛ لأنهم تجمعوا، وجدُّهم عند جمهور أهل النسب: فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة، وبالإجماع فإن قريشًا هم بنو النضر بن كِنانة، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«نحن بنو النَّضر بن كِنانة، لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا»**[2].

و«قريش» تصغير: قرش، وهو سمك ضخم مخيف، يأكل السمك، ويهاجم السفن، قيل: إن قريشًا سُمِّيت بذلك لضخامتها ومكانتها ومنزلتها؛ ولأن القبائل كلها تذوب فيها، كما قال النبي ﷺ في المدينة: **«أُمرت بقريةٍ تأكل القُرَى»**[3]. وليس المقصود حقيقة الأكل، وإنما المعنى: أنها تغلبها وتنتصر عليها، فسُمِّيت بهذا الاسم لهيمنتها وقوتها.

وقيل: من القِرْش وهو المال؛ لأنهم أهل تجارة.

وقيل: إن قريشًا مأخوذة من الاجتماع؛ لأنهم تفرقوا ثم اجتمعوا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٤٥)، وأحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث ابن قيس ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقد كانت مكة أرضًا جرداء، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فلما كان البيت بأرضهم؛ عظَّمهم العرب، ولما وقعت حادثة الفيل، ورد الله كيدهم، زاد قَدْر قريش، وارتفع شأنهم عند العرب، فكان الكل يتسابق إلى رضاهم وحمايتهم، وكانوا يسمونهم: جيران بيت الله، وأحيانًا يسمونهم: أهل الله.

ولو هدم البيت أو صار كغيره من البيوت بلا قدسية ولا مكانة؛ لزالت هذه المنزلة الرفيعة لقريش عند العرب، ولصاروا مثل قبائل العرب الأخرى؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش:٣]. مع أن البيت لم يرد له ذكر في السورة قبل هذا، حتى يشير إليه، ولكنه معلوم مفهوم، وربما كان ذلك لحضوره في الأذهان، بسبب قصة الفيل.

هذا هو الاحتمال الأول، وهو: أن يكون معنى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ أن الله سبحانه وتعالى حمى البيت، وأهلك مَن أراد به سوءًا، من أجل إيلاف قريش، وأن يألفوا رحلة الشتاء والصيف، وأن يتصرَّفوا في المعاش، وأن تكون لهم تلك المنزلة التي ستبقى في خدمة الدين والدعوة والرسالة.

وثَمَّ احتمال آخر، وهو أن يكون المعنى متعلِّقًا بآخر السورة في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش:٣]، أي: اعبدوا -يا قريش- رب هذا البيت، الذي أنعم عليكم برحلة الشتاء والصيف، وغيرها من النعم، التي كان بها عزكم ومجدكم.

وإنما خص تعالى هذه النعمة بالذكر، وهي رحلة الشتاء والصيف، لأنها سر تفوقهم، والبيت من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو من الأماكن المعظَّمة عند الله تعالى، فكأنه يعاتب قريشًا ويقول: كيف يتحول بيت الله إلى معبد للأصنام؟! وقد كان فيه ثلاثمائة وستون صنمًا تُعْبَد من دون الله عز وجل، فيكون في السورة تقديم وتأخير، يعني: اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع،

وآمنكم من خوف، وآلفكم برحلة الشتاء والصيف. وذكر هنا فضيلة الشرف بوراثة النبوة والبيت، وفضيلة المجد والسعي في الكسب والتجارة.

وفي السورة وجه ثالث، لا يكون له تعلق لا بآخر السورة، ولا بسورة الفيل، وإنما يكون ذلك على سبيل التعجب، فيكون في الآية محذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ومع ذلك فهم يلجُّون في شركهم ومعصيتهم، ولا يشكرون نعمة الله تعالى. وهذا المعنى أقرب من الذي قبله.

* ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾ [قريش:٢]:

ولاحظ أن «إيلاف» هنا مجرورة؛ وذلك لأنها عطف بيان على إيلاف الأولى، فإيلاف الثانية هي إيلاف الأولى، لكنه قال: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾. وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾. فالأسباب الأولى هي الأسباب الثانية، لكن استأنف بها آية أخرى فقال: ﴿ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

و«الرحلة» هي: الارتحال والمسير، ومنه نسمي الدابة: «راحلة»؛ لأن الإنسان يرتحلها؛ أي: يركبها إذا سافر، وقد كانت رحلة الشتاء إلى اليمن، وقد اختاروا اليمن في الشتاء؛ لأن الجو فيها أدفأ، ورحلة الصيف كانت إلى الشام؛ لأن الجو في الشام أبرد، امتنَّ الله تعالى عليهم بذلك، وهذا من إضافة الفعل إلى زمانه.

وإذا أضيف الفعل إلى زمانه، فهل يلزم أن يستغرق الزمان كله؟

هل كل الشتاء وهم في اليمن؟ وكل الصيف وهم في الشام؟! كلا، فالرحلة هذه قد تستغرق بعض الوقت، فعندما نقول: صلاة الظهر؛ فإنها لا تأخذ إلا بعض الوقت.

والشتاء والصيف اسمان لفصلين من فصول السنة الشمسية، والشتاء يقدر فيها

بحوالى (٨٩) يومًا، والصيف يقدر فيها بـ(٩٣) يومًا، والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر، والآية تصلح لهذا وهذا.

والآية فيها إشارة إلى معان كثيرة، منها:

١- أن الدعوة التي أذن الله أن تنطلق من جزيرة العرب ومن مكة، تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولهذا كانت الرحلة إلى اليمن وإلى الشام من إقامة العلاقة والتواصل والتعارف مع الناس، والاكتساب منهم؛ لأنه بالاتصال يقع التعارف، وتقع الاستفادة.

والدعوة تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولذلك مهَّد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بهذا الاتصال، الذي تمثل في رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

ولا يصح في الدعوة أن يعيش المسلمون في عزلة عن الناس، فهذا رسول الله ﷺ كان يراسل الملوك، فأرسل إلى كِسْرى وإلى الـمُقَوقس وإلى النَّجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، ثم كان يستقبل الوفود، فاستقبل نصارى نَجْران، واستقبل قبائل العرب من الجزيرة، وخاطبهم ودعاهم إلى الله، وهذا التواصل يحتاج إلى فهم الطرف الآخر، سواءً كان فردًا أو جماعة أو شعبًا أو قبيلة، فتفهم لغته وثقافته وتاريخه.

٢- أن المصالح الدنيوية التي بها قِوام حياة الناس -مثل الاقتصاد- تحتاج إلى الاتصال، فهي مصالح متشابكة متبادلة، وهذا يخفى -مع ظهوره- على كثير من الناس، الذين يرون أن مجرد استفادة العدو من الشيء الذي نستفيد نحن منه يحتم علينا تركه وحرمان أنفسنا منه.

وهذا من الغلط البيِّن؛ فالنبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]، وهذا

(١) كما في «مسند أحمد» (٢٧٢٤)، و«صحيح البخاري» (٢٥٠٩) من حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم.

اليهودي كان يستفيد من البيع، والنبي ﷺ استفاد من الشراء، ولكن النبي ﷺ راعى مصلحته، فمن الفقه أن ندرك هذه المصلحة المشتركة بين بني الإنسان، وأن على المرء أن يتحرَّى مصلحته ولو وافقت مصالح خصومه أو مخالفيه، ولا يعد هذا من باب التعاون على الإثم والعدوان أو الإعانة على الشر كما يظنه مَن لا فقه له.

فإذا كان للمسلمين عامة أو لطائفة منهم مصلحة في شيء، وهذه المصلحة قد يستفيد منها الكفار، فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من هذه المصلحة من أجل حرمان الآخرين، فمن الخطأ الكبير أن يكون تقديرنا للمصالح والمفاسد مبنيًّا على مراعاة حرمان الآخرين من هذه المصلحة، وإذا كانت هذه المفسدة سوف تضر الآخرين لكنها تضرك أنت أيضًا، فهل من الحكمة أن تفعلها؟ كلا، فالمصالح الدنيوية والدينية متشابكة، ولا يوجد في الدنيا مصالح محضة أو مفاسد محضة، وإنما المصلحة الغالبة في طيها بعض المفسدة، والمفسدة الغالبة معها بعض المصلحة، فالقضية لها حسابات لا يمكن إدراكها إلا بالنظر السديد والعقل الراجح، ولهذا يحسن الاعتناء بدراسة مقاصد الشريعة.

٣- أن الله تعالى يحفظ الفرد والجماعة والدولة والأمة في الأخلاق العامة التي يحتاج الناس إليها، يعني: إذا رأيت العدل يضرب بجِرَانِه في بلد أو دولة أو أمة، ورأيت المسامحة، والمحافظة على حقوق الناس، فاعلم أن هذه الصفات جديرة بأن تمنح أهلها التقدم والتمكين، ولو كانوا كفارًا.

وإذا رأيتَ الظلم والبغي والعدوان ومصادرة الحقوق؛ ينتشر في أمة أو دولة، أو بلد، أو مجتمع؛ فاعلم أنه جدير بأن يحل به عقاب الله تعالى ولو كان مسلمًا، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[1].

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٤٦).

والنبي ﷺ يقول: «تقوم الساعةُ والرومُ أكثرُ الناس»[1]. وكثرتهم تعني القوة، والشجاعة، والتسلط، والكثرة ليست محصورة في الكثرة العددية.

ولماذا هذه الكثرة فيهم؟

قال عمرو بن العاص ﷺ، كما في الحديث المتقدِّم: «إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلمُ الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرةً بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ وجميلةٌ: وأمنعهم من ظلم الملوك».

فهذه الأخلاق عامة متعلقة بحقوق الناس، وإقامة العدل وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

وإن الله سبحانه وتعالى ذكَّر قريشًا حفظَ مكانتهم؛ لما جُبِلوا عليه من مكارم الأخلاق، وقد ذكر عطاء عن ابن عباس ﷺ، أن قريشًا كانوا إذا أصابتهم مجاعة أو مَـخْمَصة أو مَسْغبة، أدخل الرجلُ أولاده في بيت أو خباء، فمكثوا فيه جائعين حتى يموتوا، وربما هذا عند شدة الـمَخْمَصة، وفيه شيء من الكرامة والأَنَفَة، فقال لهم هاشم بن عبد مناف: يا معشر قريش، إنكم أحدثتم حدثًا، حيث تتركون أنفسكم وأولادكم في بيت حتى تموتوا من الجوع، وبهذا تقلون أنتم، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله تعالى، والناس لكم في ذلك تَبَعٌ. ثم أجمع أمرهم على أن ينشئوا هاتين الرحلتين إلى اليمن وإلى الشام وما ربحوه في هذه الرحلات يقتسمونه بينهم، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم[2]، ولذلك قال مطرود الخزاعي، وهو يمدحهم:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّلُ رحلَه   هلَّا مررْتَ بآلِ عبدِ منـافِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨) من حديث المستورد بن شدَّاد ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٥).

الآخذونَ العهدَ من آفاقِهـا والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ

والخالطون غنيَّهم بفقيرِهم حتى يكونَ فقيرُهم كالكافي[1]

فكان الفقير مثل الغني سواءً بسواء فيما يكسبونه، فلما كانت عندهم هذه الخصلة في بذل المال والإنصاف، وعدم تفضيل الغني على الفقير؛ جعل الله تعالى لهم هذه المنزلة.

فمعنى الآية: تذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، وهي نعمة لم تكن لغيرهم ببركة لزومهم للبيت الحرام وحمايته، وعمارة المسجد الحرام، فكانت القبائل كلها تحترم قريشًا، وحتى القبائل التي لم تكن تعظم الأشهر الحرم، كقُضاعة، وخَثْعم، وطَيٍّ، فهؤلاء كانوا لا يعترفون بالأشهر الحرم، ومع هذا كانوا يعظِّمون قريشًا.

ومن هنا صارت مكة مركزًا تجاريًّا تُجلب إليه البضائع من كل مكان، وكانت الحبشة ترسل البضائع عبر البحر إلى جدة، وهكذا الشام واليمن، وقامت حول مكة الأسواق المعروفة، مثل عُكاظ ومَـجَنَّة وذي الـمَجَاز، وانتشرت الحركة الاقتصادية، وصار العرب يقدمون مكة من أجل الحصول على مكاسبهم وعلى أرزاقهم، وتبعًا لذلك تحسَّنت لغة قريش وتهذَّبت، وصار عندهم شيء من الإبداع في العلم والأدب والشعر، والعلاقات الاجتماعية، وكل هذا فيه تمهيد لانبثاق رسالة الإسلام وانطلاقها من هذا البلد الحرام.

ولهذا امتن الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت:٦٧]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٨)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص٤٦)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٦٠)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٢٥٢)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٤١)، و«معجم الشعراء» (ص٣٧٥).
وتنسب أيضًا لابن الزِّبعرَى، كما في «الحماسة البصرية» (١/ ٦٥).

ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص:٥٧].

وهذا الإيلاف الذي ذكره الله تعالى لقريش في بقائهم بمكة، هو نقيض ما حكاه الله تعالى عن اليهود، ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف:١٦٨].

* ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ [قريش:٣]:

والله سبحانه وتعالى لم يأمرهم أن يتركوا الرحلة إلى اليمن والشام ليفرغوا للعبادة، فلهم أن يألفوا هذه الرحلة ويستمروا عليها، ليعبدوا ربهم تبارك وتعالى، والعبادة لفظ عام لكل ما يحب الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن العبادة: أن يوظِّفوا ما رزقهم الله تعالى في مصلحة عباده، والعبادة هنا شكر لما أنعم الله به عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾، كما في قوله سبحانه: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ:١٣].

وكلمة ﴿ رَبَّ ﴾ تشعر بالرعاية والحفظ، وما قصة أصحاب الفيل عنا ببعيد، ومقتضى هذا الأمر أن يجتنبوا عبادة الأوثان، وذكَّرهم أن لهذا البيت الذي يعتزون به ربًّا يحميه، فهو المستحق وحده للعبادة وهنا قال: ﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ فأضاف ذاته العلية واسمه الشريف إلى البيت؛ إشارة إلى أن هذا بيت الله سبحانه وتعالى، وشرفه بهذا، وليس بشيء آخر، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ [البقرة:١٢٥]. نسب البيت إلى ذاته العلية فصار بيت الله عز وجل، والمقام هنا مقام امتنان بالنعم فيناسبه ذكر صفة الربوبية دون غيرها.

وقوله: ﴿ هَٰذَا ﴾: إشارة إلى البيت، والعادة أن الإشارة تكون لشيء حاضر، كما تقول: هذا الكتاب، وهذا القلم، فالإشارة كانت لأمر موجود عند السامعين، يشار إليه، كما أشار عمر رضي الله عنه في صلاته، حيث صلَّى عند البيت، فقرأ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ فجعل يومئ إلى البيت، ويقول: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن

جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1].

فهذه الإشارة فيها معنى عظيم، وهو أن الله سبحانه وتعالى يقرر أن هذا البيت باقٍ مرفوع شامخ أبيٌّ، يتعالى على كل محاولات الهدم والتخريب، ولذلك يُشار إليه؛ لأنه موجود، وهذا قبل أن تنقل شاشات التلفاز والقنوات الفضائية الصور الحية من البيت الحرام، فهو اليوم يُشاهد من كل مكان في الأرض.

وإنك تتعجب ألَّا تجد اليوم حول هذا البيت الحركة والنشاط العلمي والنشاط الإيماني الذي يتناسب مع مكانته، بينما أمم الأرض كلها اليوم تفتخر بمعالم ورسوم مختلفة، ويفتخرون بأبنية حديثة من المعابد والكنائس، والمسلمون في أمصار الإسلام قد يفخرون برمز من رموز العلم فيها، فالرمز العلمي والإيماني في مصر هو «الأزهر»، وفي تونس«الزيتونة»، وفي المغرب «القرويين»، وهذا البيت عريق، والله تعالى فضَّله يوم خلق السماوات والأرض، وجعل الأنبياء يحُجُّون إليه ويطوفون به، وجعل له هذه القدسية وهذا البقاء وهذا الخلود، وهذا يستوجب أن يكون حول البيت العمل الكثير، والحركة العلمية النشيطة، والتأثير الكبير بما يتناسب مع جلالة هذا البيت ومكانته ومنزلته.

* ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٤]:

قال: ﴿أَطْعَمَهُم ﴾، وثمة فرق بين «أطعمهم» و«أشبعهم»؛ فالإطعام نعمة كبيرة لا يستغني عنها أحد، بخلاف الشبع، فليس محمودًا بكل حال.

وحسبُك من غنًى شِبَعٌ وريٌّ

فالشبع قد يفضي إلى التخمة، وربما أضر ببدن الإنسان، والإنسان يُذَمُّ إذا كان منهمكًا في ألوان الملذات من المآكل والمشارب وغيرها؛ ولذلك عبَّر بالإطعام، لأنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٤٩١).

هو القدر الذي يحتاج إليه.

ويحتمل أن يكون معناها: أطعمهم من جوع ألـمَّ بهم بعض الوقت، ومن ذلك أنهم كانوا إذا جاعوا جلسوا في خباء حتى يموتوا.

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما استعصت عليه قريش قال: «**اللهمَّ أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1]. فجاعوا حتى أكلوا الجلود، وورق الشجر، وحتى كان الواحد منهم ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، حتى قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان:١٢]، فالله تعالى يذكِّرهم أنه هو الذي أطعمهم من جوع.

و﴿مِّن﴾ هنا على سبيل البدلية، يعني: أبدلهم من الجوع إطعامًا.

ويحتمل أن يكون المعنى: أطعمهم من جوعٍ كان يقتضيه المقام، باعتبار طبيعة مكة، فهي بلد غير ذي زرع، ولكن الله مَنَّ عليهم بأن جلب لهم الأرزاق من كل مكان فصار يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: يحتمل آمنهم من خوف ألـمَّ بهم كانوا عليه، وأقرب مثال مذكور قصة أصحاب الفيل، فأهل مكة خافوا منهم، وخرجوا إلى شَعَف الجبال.

ويحتمل أن يكون المعنى: آمنهم من خوفٍ كانوا خليقين به؛ لأنه لم يكن عندهم مَنَعَةٌ ولا سلاح؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، فالقبائل العربية كانت تتناحر فيما بينها، ويحارب بعضها بعضًا، وهذا البلد آمن، وهذه هي دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، فاستجاب الله دعاءه وجعل البلد آمنًا، قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[البقرة:١٢٦]، فرزقهم الله تعالى من الثمرات.

وهنا لفتات لطيفة في الآية الكريمة:

١- الإشارة إلى أهمية الأمن والطعام في حياة الفرد والجماعة، وهذه من الحاجات الفطرية الضرورية التي ركَّب الله تعالى الإنسان على الاحتياج إليها، فالإنسان إذا جاع لن يفكِّر بشكل صحيح، ولن يعبد ربه كما ينبغي، ولن يتعلم، ولن يعمل، فالجوع يجعل الإنسان منقطعًا عن الخير الديني والدنيوي، بل ربما جرَّأ الإنسانَ على أن يكذب ويسرق، كما قال النبي ﷺ: «**إن الرجل إذا غرم** -يعني: صار عليه دين- **حدَّث فكذب، ووعد فأخلف**»[1].

وقد جعل الجوع والخوف عقوبةً للأمم المذنبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢]. فالجوع والخوف قد يحيط بالإنسان مثل اللباس، ويحول بينه وبين مصالح الدنيا والآخرة.

والاستقرار الذي يفضي إلى الحصول على الحاجات الضرورية، هو أصل لنمو الدعوة، وتحقق المصالح للإسلام والمسلمين، وبالعكس من ذلك، فإن الحروب الأهلية مثلًا، والقلق وزوال الأمن واشتداد الجوع؛ من العوائق والعوارض التي تحول بين الناس وبين مصالح الدنيا والآخرة، ففي البلد الذي يشيع فيه الخوف أو الفقر لا تطمع أن يكون أهله على مستوى مقنع من العلم والعمل والأخلاق والتفكير، وكثير من بلاد الإسلام مبتلاة بأحد الأمرين، إما أن يكون فيها الجوع، فتجد مئات الملايين فقراء، مع أنها قد تكون بلادًا نفطية، كنيجيريا وغيرها؛ وفقرها

---

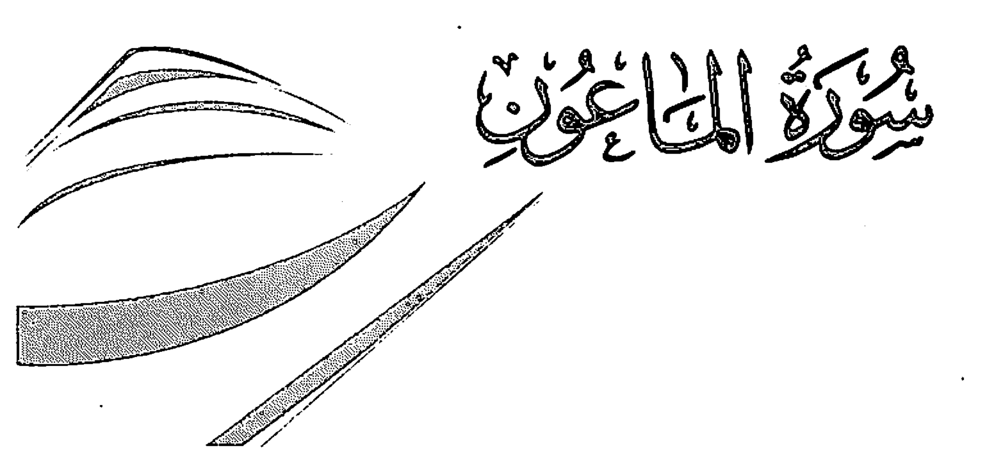
(١) أخرجه البخاري» (٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بسبب سوء التنظيم، وسوء توزيع المال والثروة، وإما أن تُصاب بالخوف، فتقع فيها الحروب الأهلية، ومن المحزن أن ثمانية وعشرين من بين ثلاثين نزاعًا عالميًا موجودة في البلاد الإسلامية، ولا نقول: إن هذا بسبب كيد أعدائنا فحسب؛ فنحن غير سالمين من التَّبِعَات، وليس كل ما ينزل بنا بسبب عدونا وحده، وعدونا سيصنع ولكن كما قال الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، فلو كنا على قدرٍ من الاستقامة لما استطاع الأعداء أن يوجدوا بيننا هذه الحروب والصراعات.

٢- أن الآية ليست خاصة بقريش، كما أنها ليست خاصة بها قبل النبوة، أو وقت النبوة، فها نحن اليوم بعد (١٤٠٠) سنة، نقرأ السورة ونجد فيها أن الله سينعم على البلد الحرام وما حوله بالأمن، وبالطعام، ثم تأتي الدعوة للعبادة، بأن توظَّف هذه النعم لطاعة رب هذا البيت، وطاعة نبيه ﷺ، ونشر دينه، والإحسان إلى عباده: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[القصص:١٧]. وكل مخاطب يرى البيت المشار إليه عيانًا أو عبر الشاشات المباشرة.

فعلى الأمة أن تحقِّق التواصل مع الأمم الأخرى وتألفهم، لا من أجل أن تذوب في الأمم الأخرى، ولكن من أجل أن تقدم لها الصورة الصحيحة للإسلام، وتبحث عن مصالحها الدينية والدنيوية في كل مكان.

○ ○ ○



سُورَةُ الماعُونِ

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:١-٧].

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء عديدة، والمشهور في غالب كتب التفسير والمصاحف:

١ - «سورة الماعون»[١]؛ وذلك لذكر الماعون في آخرها.

٢- «سورة: ﴿أَرَءَيْتَ﴾». ورد ذلك في «صحيح البخاري»، وبعض كتب التفسير[٢]، باعتبار أول لفظ فيها.

٣- «سورة الدِّين»[٣]؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

٤ - «سورة اليتيم»[٤]؛ لذكره فيها.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٣) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥١١)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٢٧٥)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٠١)، و«نيل المرام من تفسير آيات الأحكام» (ص ٤٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

٥- وبعضهم سمَّاها: «سورة التكذيب»[١]؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُ﴾.

وذكر الطاهر ابن عاشور عن البقاعي في كتابه: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» أنها تسمى:

* عدد آياتها: ست، باعتبار أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ آية واحدة، وبعضهم يفصلها فيجعلها آيتين، فتصبح سبعًا، كما هو في المصاحف اليوم[٢].

* وهي مكية على قول جمهور المفسرين. وقال ابن عطية: «مكية بلا خلاف علمته»[٣].

وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول قتادة[٤].

وقيل: نزل بمكة الآيات الثلاث الأول، والباقي نزل بالمدينة، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره بعض المصنِّفين في التفسير[٥].

(١) ينظر: «نظم الدرر» (٢٢/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«البيان في عدد آي القرآن» (ص٢٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

* وفي سبب النـزول: قال بعضهم: إنها نزلت في أبي سفيان، وكان كريمًا ينحر في كل أسبوع ناقة، ويوزِّعها على الناس، فجاءه يتيم يطلب منه لحمًا أو غيره فقرعه بعصا[1].

وقيل: نزلت في العاص بن وائل، أو في الوليد بن المغيرة، أو في أبي جهل، ولأبي جهل قصة ذكرها ابن هشام وغيره من أهل السير، وهي قصته مع الأَرَاشي حيث أخذ ماله ورفض أن يعطيه حقه، فقيل له: استشفع إلى أبي جهل بمحمد ﷺ، وهو لا يدري ما بينه وبينه، فأخذ الأمر على التصديق، فذهب إلى النبي ﷺ، فجاء النبي ﷺ إلى أبي جهل واستخرج للرجل حقه، فقالوا لأبي جهل في ذلك، فقال: والله، لقد رأيت شيئًا وهولًا بيني وبينه، فأصابه رعب وأعطى الرجل حقه!

وقيل: إن السورة عامة، وإنها لم تنزل في شأن أحد بعينه، وإنما نزلت فيمن كان هذا حاله[2].

* ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون:١]:

هذا استفهام على سبيل التعجُّب، فهو تعالى يريد إثارة العجب والدهشة من إنسان يتصف بصفات معينة، ويُسمَّى: الاستفهام التعجبي، أي: اعجب من هذا الإنسان! فهو حديث عن فئة من الناس تعيش بين أظهرنا، ونخالطها، ويراد منا أن نلتفت ونتفطن لبعض مواطن العجب والاستغراب في حياتها وشخوصها!

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (٤/ ١٧٦)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣-٢٣٥)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ١٩٦-١٩٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٣-١٩٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦)، و«مع المصطفى ﷺ» للمؤلِّف (ص ٢٨٥-٢٨٧).

وهذه الرؤية قد تكون رؤية بصرية؛ لأنهم أناس نشاهدهم ونراهم، وربما كانت علمية؛ وهي في الحالين تتعلق بأمر محسوس مشاهد.

وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأقرب أنه خطاب عام لكل مَن يصلح له الخطاب.

ويحتمل أن يكون المقصود بـ «الدين» هو الإسلام، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

ويحتمل أن يكون المقصود بـ «الدِّين»: الجزاء والحساب، وهذا كثير الورود في القرآن، كما في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، فالغالب أن كلمة «الدين» في القرآن يقصد بها الدينونة، ويقال: كما تَدِين تُدان. أي: كما تفعل تُجازى.

وفي هذا إشارة إلى أثر الوازع الإيماني في القلوب، وأن الإيمان بالدار الآخرة من أعظم الأركان؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى عن رسله وعن أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٦-٤٧]، فثَمَّ فرق جوهري بين إنسان يعيش في هذه الدنيا وهو مستيقن بالجزاء على الأعمال يوم القيامة، وآخر يرى ألَّا بعث ولا نشور ولا جزاء ولا حساب؛ ولذا فحساباته تنتهي عند آخر لحظة في الدنيا.

والإيمان بالبعث والنشور والحساب يحمل الإنسان على مراعاة حقوق الخلق، ولذا قرن هنا التكذيب بدعِّ اليتيم وترك الحض على طعام المسكين.

فأعظم ضمانة لحفظ حقوق الناس وعدم ظلمهم والإحسان إليهم هي الإيمان بالدار الآخرة؛ فالمسلم يتعب في جمع المال ثم يُخرج منه حقه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥]؛ لأنه يرجو الثواب في الآخرة، ولو لم يجد أثره وثمرته في الدنيا.

والتكذيب في القلب، والسورة تكشف عن العلامات الظاهرة في الأحوال والأخلاق والمعاملات التي تطبع أولئك المكذِّبين.

وقال بعض المفسرين: إن الفاء في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، واقعة في جواب شرط محذوف، وكأن التقدير: إن كنت تريد أن تعرفه، فهو: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الماعون: ٢-٣]، فتركيز السورة ليس على التكذيب بيوم الدين، مع أنه أعظم الفجور والكفر؛ بل على ذكر أخلاق اجتماعية فاسدة منحرفة، وتعليلها بأنها لا تصدر إلا من أقوام خلت قلوبهم من الإيمان.

وهل كان أولئك الطغاة المتجاهلون للحقوق الإنسانية مكذِّبين أم كانوا جاحدين؟

يحتمل أن المعنى يكذِّب بالدين بلسانه، ولا يقيم له وزنًا في حياته، كشأن غالب البشر اليوم الذين لم يحدِّدوا موقفهم بجلاء، ولكنهم يجرون على ألسنتهم كلمات التكذيب أو الشك أو اللامبالاة.

ويحتمل أن الكفار أنواع، والله تعالى وصف كل نوع منهم بصفته، وهذا الاحتمال أقوى، فمن الكفار مَن يكذِّب فعلًا، بمعنى أنه لا يؤمن بيوم الدين، ويكذِّب به ظاهرًا وباطنًا.

ومنهم مَن يقر بقلبه ويجحد بلسانه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

ومنهم مَن يقع عنده نوع شك وتردُّد.

ومنهم الغافل، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٧]، فيكون غافلًا عن قضية الدين أصلًا، بانشغاله بهموم وظيفته وتأمين مستقبله.

* ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون:٢]:

﴿يَدُعُّ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، حتى صار طبعًا يُعرف به هذا الفاعل.

والمعنى يدفعه دفعًا عنيفًا، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، يعني: يُدفعون إليها بقوة وشدة، والمعنى: يدفع اليتيم بالضرب ولا يرفق به ولا يراعي إحساسه ويتمه، أو يدفعه عن حقه إذا جاء يطالب به؛ لأنه يراه ضعيفًا لا أحد يحامي عنه، وهذه غاية الخساسة والأَثَرة.

* ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ٣]:

و﴿يَحُضُّ﴾ فعل مضارع يدل على التكرار كذلك، وهذه الصفة ترك وليست فعلًا.

و«الحضُّ» هو: الحث؛ لكنه بالضاد أقوى، فحرف الضاد أشد من الثاء وأقوى، واختيار الحرف في القرآن الكريم له دلالة وله معنى.

ويشبه سياق الآيتين هنا ما جاء في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر:١٧-١٨].

ومعنى ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ أي: لا يحضُّ بعضكم بعضًا، وهنا قال: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾، وفيها إبداع وإعجاز؛ لأنه لما قال: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾، فالكلام ليس عن شخص بعينه، وإنما عن فئة من الناس، فهذا لا يحض هذا، وهذا لا يحض هذا، فمن مجموع الأمرين يتولَّد أنهم لا يتحاضون على طعام المسكين، فهو لا يحض نفسه ولا يحض غيره.

وقد يكون السياق هنا يتعلق بإنسان غير واجد، ليس عنده ما يقدِّمه من مال أو طعام، ولكن قادر على أن يحض غيره على ما عجز هو عنه، كما قال المُتَنَبِّي:

لا خيلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ ... فليُسعِدُ النطقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ[1]

ويسوِّغ أن يلام الإنسان إذا لم يكن بالذي يطعم، ولا هو بالذي يحض على الإطعام، وهذا تقبيح لحال الذي لا يحض، فما بالك إن كان عنده مال، ولا يحض نفسه على إطعام المحتاج؟

والشريعة والحكمة تستحثُّ المكلَّف القادر أن يبذل ما يستطيع، إن كان ذا مال أخرج من ماله، وإلا كان في جهده وعطائه المعنوي وحثه للناس ومشاركتهم في الأعمال الطوعية الخيرية، ما يجعله باب خير وبر، فربما شارك بعقله وتخطيطه وابتكاره للبرامج والطرائق التي تضبط هذا العمل وتطوِّره.

فوصفهم الله سبحانه وتعالى أولًا بـ «التكذيب» وهو أمر اعتقادي، ثم وصفهم بـ «دَعِّ اليتيم» وهو أمر وجودي فعلي، وهو أنهم يضربون اليتيم ويدفعونه، ثم وصفهم بأمر تركي أو منعي، وهو أنهم «لا يحضُّون على طعام المسكين»، فهذه الصفة ليست موجودة فيهم، وكان يجب أن تكون فيهم.

والإنسان قد يندفع إلى الإحسان للخلق بسبب فطري جِبلِّي يعود إلى طبيعته وسجيته الكريمة، والمؤمن يُثاب على فعل الإحسان حتى لو لم تحضره نية؛ تحفيزًا للناس إلى المبادرة للخير وعدم التردد.

وقد يفعل المعروف احتسابًا يرجو به خير الله تعالى وبره في الدنيا والآخرة، فهو يعرف أن مَن أحسن إلى الناس أحسن اللهُ إليه، فيبادر ببر الوالدين، وصلة الرحم، وطلب ثواب الآخرة ظاهر.

وهل طلب خير الدنيا من سعة الرزق والنَّسأ في الأثر والصحة، مما يعكِّر على حسن النية؟ أو يُعَدُّ من إرادة الإنسان بعمله الدنيا؟

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (٣/ ٢٧٦).

كلا، فالنبي ﷺ قال: «مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه ويُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحمه»[1].

من باب حث الناس على أن يصلوا أرحامهم؛ لأنهم يرغبون في طول العمر، وفي سعة الرزق، وهذا ليس بمذموم في حد ذاته، وإنما هو من عاجل البشرى.

وكذلك الحياة الطيبة الموعودة لـمَن عمل الصالحات، والسعادة والسكينة وسائر ما ورد في الكتاب والسنة من عاجل الثواب.

وأفضل الناس حالًا مَن توفَّر عنده الدافع الفطري والشرعي، فهو كالأرض الطيبة التي نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بَهِيج؛ لأن الدافع الفطري يحمله على هذا، فصار من طبعه لا يحتاج فيه إلى تكلُّف، فجاءت الشريعة وزكَّتْ نفسَه وكمَّلتها.

وأسوأ الناس حالًا «المُفْلِس» من الدافعين، فلا فطرة سليمة تدفعه إلى الخير، ولا رغبة في الآخرة!

و«اليتيم» هو صغير السن الذي فقد أباه، وقد يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس[2]، ومن هنا جاء الوعيد على زجره وتعنيفه وقهره، وهو لأجل يتمه يتجرَّأ عليه كثير من الناس ويؤذونه ولا يبالون به؛ لأنه ليس له والد ولا محامٍ يدافع عنه.

أما ﴿ٱلْمِسْكِينِ﴾ فهو المحتاج الذي لا يجد ما يكفي نفقته ونفقة مَن يعول، ويدخل فيه الفقير، وقد يكون اليتيم مسكينًا وقد لا يكون كذلك، وكذلك المسكين قد يكون يتيمًا وقد يكون كبيرًا.

وهذه الآيات الثلاث فيها إشارة إلى مراعاة الجانب الاجتماعي في الإسلام، وهو من أعظم مقاصد الشريعة، ومن العلامات الفارقة بين المؤمنين والمكذبين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر» عند قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾.

إن من الخطأ الكبير الانهماك في جانب من الشريعة أو الدين، والغفلة عن جوانب أخرى، مثل هذا الجانب الذي تعتني به هذه السورة، وهو الجانب الاجتماعي الخيري، وما يسمى بـ «النفع العام»، وذلك عبر أفراد أو مؤسسات وجمعيات وأجهزة، فهذا الخير بسببه تُحفظ المجتمعات، وتُحفظ الشعوب، ويدرأ الله سبحانه وتعالى عنها الفتن والشر والبلاء بما تقدِّمه من النفع والخير والإحسان.

ومن العجب أن المسلمين الذين يردِّدون هذه الآيات في صلواتهم وحلقات درسهم ويلقِّنونها صبيانهم، من أبعد الناس عن تحقيق دلالتها، وليس بالأمر النادر أن نجد مجتمعات نفطية واسعة الثراء، ومدنًا ومباني شاهقات وسيارات فخمة غالية الأثمان، وبالقرب منها أحياء شعبية تدخلها فتجد فيها ألوانًا من الفقر وشَظَف العيش، وتبعًا لذلك تنتشر فيها الجرائم والمخدرات والتجارة بالفواحش وبيوت الدعارة والفساد، وكل ذلك بسبب الفقر الذي كاد أن يكون كُفْرًا، ويُروى عن علي ﷺ: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

والعجب أن هذه الآيات نزلت في مكة، وأغلب الناس يومئذ كانوا كفارًا، ولم يكن آمن بالرسول ﷺ إلا قليل، ولم يكونوا يجدون المال، وكأنما نزلت السورة لتهيئ نفوسهم للبذل وترسِّخ الربط بين الإيمان وبين نداوة اليد للفقير والمسكين.

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: **«بينما كلبٌ يُطيفُ برَكيَّة، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به»**[1].

وفي الحديث الآخر: **«بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل:**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: **«في كل كبد رطبة أجرٌ»**[1].

بعض الأخيار يقول: أُحسن لهذا الكافر من أجل أن يُسلم. وهذا حسن، وهو من تأليف القلوب، الذي هو أحد مخارج الزكاة.

والمؤلفة قلوبهم أربعة أنواع:

١- الكافر الذي يُرجى إسلامه.

٢- الكافر الذي يُرجى إسلام قبيله أو نظيره أو قريبه.

٣- المسلم الجديد الذي يُرجى بإعطائه الزكاة أن يحسن إسلامه.

٤- الكافر الذي يُرجى أن يدفع شره أو يكون سببًا في دفع شر غيره عن المسلمين.

ولا يدخل في عداد هؤلاء المحارب؛ لإظهاره العداوة للإسلام، ولكن الكرم والجود والبذل لا يحسن أن يكون محصورًا في هذا، بل ينبغي أن يكون طبعًا وجِبلَّة، تفيض حتى على مَن لا ترجو من وراء عطائه نفعًا عاجلًا؛ ولذا شُرع الإحسان إلى البهائم والطيور، وجاء النص النبوي عامًّا في حصول الأجر في كل كبد رَطْبة.

* ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧]:

ثَمَّ ترابط بين الآيات من وجوه:

١- لما ذكر في أول السورة تقصير أولئك في حق المخلوقين من الأيتام والمساكين، انتقل إلى تقصيرهم في حق الخالق، وهو أنهم لا يصلون، أو يصلون رياءً، ويمنعون الماعون.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- أن الله تعالى أراد توكيد المعنى، والربط بين الإيمان والإحسان، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمصلون وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، ثم ساق أوصاف المصلِّين، ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:١٩-٢٥].

فهؤلاء هم المصلُّون حقيقةً، فكأنه قال هنا: إن صلاة هؤلاء لم تنفعهم؛ لأنها صلاة رياء وسُمعة للناس لا لله.

٣- قد تكون الآيات الأخيرة نزلت بشأن أقوام معينين في المدينة على ما ذكرنا، وكأن الآيات الأولى تدل على أن عدم الإيمان بيوم الدين هو سبب إيذاء اليتامى والمساكين وغيرهم، فكأن قائلًا يقول: في المدينة أناس يصلون في المساجد، ولا يطعمون المساكين، ولا يحسنون إليهم، فجاء النص ليقول: «ويل لهم»؛ لأنهم ليسوا مصلِّين؛ فهم: ﴿يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، وكان يجب أن تكون صلاتهم لله، فحرَّفوها وبدَّلوها وجعلوها للناس، كما قال الله في شأن المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

٤- التناسب في الانتقال من المفرد إلى الجمع في خطاب السورة، حيث بدأ بالذي ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، وانتهى بالذين ﴿هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

والذي يظهر أن سر الانتقال إلى الجمع، أن المراد في بداية السورة جنس المكذِّبين، وليس فردًا بعينه، والإفراد في أول السورة مناسب؛ لأن الآية تتحدَّث عن شخص يفجر ويعتدي ويبخس الناس أشياءهم وهو منفرد، وليس أمام الناس؛ هو الذي يعبِّر عن حقيقة أخلاقه إذا خلا من مراعاة الآخرين.

ثم انتقل إلى طبيعته وأمثاله حين يكونون في الملأ والناس، فيتظاهرون بما ليس من شأنهم!

قال كثير من القراء: لا يقف القارئ عند قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ مع أنه رأس

آية، ومنهم مَن قال: إن وقف عندها أعادها وقرن معها ما بعدها[1].

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]:

السهو: الغفلة والنسيان، وقال هنا: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)، وبينهما فرق كبير؛ فالسهو في الصلاة، هو ما يقع فيها من شرود ذهني أو خطأ، ويجبره سجود السهو، أما السهو عن الصلاة، فهو تأخير الصلاة عن وقتها، أو تعمُّد ترك بعض الفرائض أو كلها من أجل شواغل الدنيا، أو لقلة الاهتمام أو لعدم الاعتياد.

وقال قتادة: «لا يبالي أصلَّى أم لم يصلِّ!»[2].

وقال الشيخ محمد عبده: «فأولئك الذين يصلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس، مما لا يكلِّفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضررًا يلحق بأبدانهم، أو نقصًا يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل لهم راحتهم، وأمنهم وطمأنينتهم؛ فهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذِّبين بالدين، ولا فرق بين مَن وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة... إلخ»[3].

وهذا الكلام فيه تحفظ، ففيه شدة وغلظة ومبالغة مفرطة، وقد وجدتُ له نظيرًا في كتبه، ففي أكثر من موضع يأتي في «تفسيره» بعبارات شديدة في حق العصاة والمخالفين، ومثل هذا الكلام موجود في كتابات بعض الإسلاميين، كالأستاذ سيد قطب، وبعض الناس يظنون أن هذا يدل على تكفيرهم للناس، وفي نظري أن هذه

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠)، و«هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (ص ٣٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٢).

(٣) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٥٠).

ليست أحكامًا بل مواعظ يقصد بها الزجر والتحذير والتأثير.

ويُعرف من سير هؤلاء المصلحين أنهم لم يكونوا يكفِّرون المسلمين، بل يمقتون ما هم عليه من التناقض بين الدين الذي ينتسبون إليه، وما يقتضي منهم من مكارم الأخلاق؛ وبين واقعهم الرديء.

* ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون:٦]:

قال بعض المفسرين، كالزمخشري: «إن الرياء لا يكون في صلاة الفريضة، وإنما يكون في النافلة»[1].

وهذا غير مسلَّم، وظاهر الآية يدل على أن رياءهم في صلاة الفريضة، ولعلهم منافقون لم يكونوا ينوون الصلاة أصلًا، أو كانوا في صلاة الجماعة، ولو ترك الأمر لهم لصلُّوْا فرادى، أو لما أطالوا الصلاة، أو لما حافظوا عليها، فالرياء يدخل في صلاة الفريضة وصلاة النافلة.

والضابط الذي يميِّز الرياء عن غيره، أن الإنسان إذا كان سيقوم بالعمل سواء وجد الناس أم لم يوجدوا، فلا يضر ما وراء ذلك؛ لأن النية استقلت بإحداث العمل، أما إذا كان لن يعمل العمل ما دام الناس غير موجودين، فهذا يدل أنه فعله رياءً.

وعلى المصلِّي أن يحذر من الوسوسة والمبالغة والتنطع، وأن يقطع نظره عن الناس لا تركًا من أجلهم، ولا فعلًا من أجلهم، وكما قال البعض: «لا تتركها حياءً، ولا تفعلها رياءً».

وبعض طلبة العلم يعانون في هذا الباب، ويفتقدون الاعتدال في مراعاة الناس، وهذا يحتاج إلى تربية عظيمة، وتعويد طالب العلم كيفية التعامل مع الناس، حتى لا

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٢٦٤)، (٦/ ٣٩٥)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٥)، و«تفسير ابن عطية» (١/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٣٢)، (٢٠/ ٢١٣).

يبالغ في الاهتمام بهم والعمل من أجلهم، ولا يبالغ في إقصائهم خشية الرياء، وكان بين ذلك قوامًا.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن راءى راءى الله به»[1].

فالرياء يكون بالعمل الذي يراه الناس، مثل: الرياء في الصلاة، والتسميع يكون بالقول مثل: قراءة القرآن أو الذكر أو الكلام الذي يسمعه الناس.

أو السُّمعة لقصد الشهرة، وقد يصلِّي الإنسان رياءً وسُمعة، من أجل أن يراه الناس، ولتكون سمعته عند الناس حسنة؛ وليكون كلام الناس فيه حسنًا.

* ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون:٧]:

قيل: الماعون هو الزكاة، كما ذكره جماعة من الصحابة والسلف والأئمة[2].

وقيل: المقصود به ظاهره وهو الماعون المنتفع به في البيوت، مثل القِدْر والفأس والدلو والإبرة والغربال، وكل ما يحتاجه الناس وتعارفوا على إعارته واستعارته[3].

ولهذا قال العلماء: من الفضل أن يستكثر الإنسان في منزله مما يحتاجه الجيران، ومثله: طالب العلم يأخذ معه الممحاة والمبراة وقلم الرصاص والحبر، وإن لم يكن يحتاج هذا كله، لكن لينتفع به الآخرون.

---

(١) أخرجه البخاري» (٦٤٩٩) من حديث جندب بن عبد الله ﷺ، ومسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٤)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢).

ومن الطريف أن بعض الشباب كتب لي رسالة يقول فيها: بعض الإخوة يكتبون مذكرة ويحجبونها عنا حتى لا نحصل عليها!

لا يا أخي، أحسن كما أحسن الله إليك، وهذا من منع الماعون، فلا تمنع مذكرة كتبتها، وأعرها مَن ينتفع بها، ولك بذلك أجر، فدعهم يصورونها ويتداولونها وينتفعون بها، واحذر أن تكون ممن يمنعون الماعون! والله سبحانه وتعالى قال عن المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، يعني: بالبخل.

وهؤلاء الناس الذين توعَّدهم الله سبحانه وتعالى جعلوا ما لله مقصودًا به الناس، ولهذا جاءهم الوعيد المذكور، والوعيد ينبغي أن يكون على مجمل الخصال، يعني: لـمَن وُجدت فيه هذه الخصال كلها، وفيه مع ذلك تنفير من أفراد هذه الخصال.

وسياق الآيات يبعث في المؤمن الرغبة في عمل الخير، والحرص على أَلَّا يقع في واحدة من هذه الصفات المرذولة التي حذَّر الله تعالى منها، وذكر أنها مَن صفات مَن يكذِّب بيوم الدين، والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ الكَوْثَرِ



سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾ [الكوثر: ١-٣].

* تسمية السورة:

١ - الأشهر تسميتها: «سورة الكوثر»[١].

٢- وتسمى أيضًا: «سورة النحر»[٢].

٣- وسماها البخاري وغيره: «سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾»[٣].

* وهي أقصر سورة في كتاب الله تعالى، وعدد آياتها: ثلاث آيات بلا خلاف[٤].

* وجمهور المفسرين على أنها مكية، وهذا ظاهر سياقها، وجوُّها قريب من جو «سورة العلق» في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٦)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧٣)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ينظر: «السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٥٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٢).

وهنا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣]. وفيها الوعيد والتهديد للكافرين المعاندين للرسول ﷺ، مما يدل على أنها مكية[1].

لكن يشكل على هذا حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ استيقظ وهو يضحك، فقال: «**أُنزِلت عليَّ آنفًا سورةٌ**، فقرأ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾. **ثم قال** ﷺ: «**أتدرون ما الكوثر؟!**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل...**»[2].

وهذا الحديث يدل على أن السورة مدنية- وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة[3]-؛ لأن الراوي أنس بن مالك رضي الله عنه من الأنصار، فإن قيل بتعدُّد النزول فلا إشكال، وإلا فيحتمل -والله أعلم- أن يكون قوله: «**أُنزلت عليَّ آنفًا**». رواه الراوي بالمعنى، والمقصود أنها أنزلت فيما مضى.

وقد يكون المقصود: أن الرسول ﷺ أُنزل عليه حينذاك تفسير الكوثر، وأنه نهر في الجنة وعده الله تعالى نبيه ﷺ، وبهذا يزول الإشكال، وتبقى السورة مكية، والحديث صحيح، وهو في بيان معنى الكوثر.

وفي السورة على قصرها إعجاز لا يخفى، وأسوق بعض المعاني والدلالات التي يتعجب منها الإنسان في هذه السورة، ويدرك كم تجني العادة والإلف على عقلية الإنسان، وكم تضيع عليه من المعاني التي ربما لو قرأها لأول مرة لوجد فيها معاني دقيقة.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٠).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٨)، والمصادر السابقة.

وموضوع هذه السورة قريب من موضوع سورة الضحى والانشراح والقدر، وهو تسلية النبي ﷺ.

وفي السورة التي قبلها وهي: «الماعون»، توعَّد الله الساهين عن الصلاة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧].

وفي هذه السورة- «سورة الكوثر»- أوصى نبيه ﷺ بنقيض ذلك، فأوصاه بالصلاة بقوله: ﴿ فَصَلِّ ﴾، وأوصاه بالإخلاص وعدم الرياء في قوله: ﴿لِرَبِّكَ ﴾، فالمعنى: صل لربك مريدًا بعملك وجهه تعالى.

وقوله في السورة السابقة: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يقابلها هنا قوله: ﴿وَانْحَرْ ﴾؛ لأن النحر يكون لله تعالى، مقصودًا فيه إطعام الفقراء والمساكين من المنحور من بهيمة الأنعام، ففي هذه السورة أمر بها يضاد المذموم في السورة التي قبلها.

* وأول هذه السورة الكريمة هو هذا الضمير العظيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١]:

وهذا جاء في سور أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر:١]، والبداءة بهذا الضمير لها دلالة عريقة عميقة.

ابتدئت السورة بلفظ التعظيم والتفخيم والتأكيد ﴿إِنَّا ﴾ ، و﴿إِنَّا ﴾ قد تكون للجمع أو للواحد المعظَّم، وهي خطاب مباشر من الله تعالى للرسول ﷺ، وفيه تعزير وتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن عظمة العطية يُنظر إليها من جهة مقام المعطِي العظيم، ولذا يقال: الهدية على قدر مُهْدِيها.

إن كون هذه العطية من الله تعالى مالك الملك لنبيه ﷺ هو تشريف لقدره ﷺ بهذه المنحة العظيمة.

ومن هنا حوت هذه الآية على قصرها ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ بيان عظمة الـمُعْطِي سبحانه وتعالى، وعظمة العطية أو الهبة، وعظم مقام الموهوب له، فبدأ بالضمير العائد إليه تعالى، ثم ثنَّى بضمير خطاب النبي ﷺ، ثم ثلَّث بالعطية وهي الكوثر، وسر هذه العظمة من عظمة مصدرها.

والعادة في القرآن أن ضمير «نا» يأتي في مقام المنة والمنحة، أو في مقام الأخذ والعذاب، أو في الموضع الذي يكون للملائكة فيه عمل أوكل إليهم كالحفظ والإنزال ونحوها.

وتأمل كيف قال: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾، ولم يقل: (آتيناك)، مع أنه جاء في بعض المواضع لفظ: (آتيناك)، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[الحجر:٨٧]، فما هو الفرق بين اللفظين؟

من الفروق: أن ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ تدل على الملكية والخصوصية، لكن ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ قد لا تكون في شيء خاص، فمثلًا: إنزال المثاني والقرآن ليس شيئًا خاصًّا بالرسول ﷺ، ولكن واجب عليه بيانها للناس، بخلاف الكوثر ففيه خصوصية.

واختيار لفظ: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ دليل على أن هذه العطية لا يُرجع فيها، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يعود في عطيته، بخلاف الإيتاء؛ فقد يرجع فيه لحكمة، أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦]. فقال: ﴿تُؤۡتِي﴾، ولم يقل: (تعطي)، ثم قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾، وتأمل لفظ: (تنزع)، فإنه يدل على الأخذ بشدة، وكأن المنزوع منه متمسك به، ولا يتركه ما استطاع، لكنه يُنْزع منه بالقوة؛ ولهذا جاء في سنة النبي ﷺ النهي عن الرجوع في العطية والهبة[1].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٢١)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٢).

وتأمل أن الفعل هنا جاء بصيغة الماضي «أعطى»؛ ليدل على أن العطية قد حصلت وتحقَّقت، ولهذا فرح بها النبي ﷺ وسُرَّ؛ فهي عطية منجزة.

ويُروى عن أحد السلف أنه قال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره»[1].

وستره بألَّا تذكره للناس، لكن إعلانه هنا من أحسن ما يكون؛ لأن السورة ذاتها نعمة جديدة، وإعلان العطية هو عز الدنيا والآخرة للنبي الكريم عليه الصلاة والتسليم.

إن إعلان العطية في سورة تُتلى إلى ما شاء الله تشريف للنبي ﷺ؛ لأن فيها رفعًا لقدره ومقامه عند الملائكة وعند عباد الله الصالحين.

وفيها رفع لمقامه ﷺ في مقابل أولئك الذين ينتقصونه أو يسبونه من المشركين.

فإذا كان الله تعالى أعطاه هذه العطية العظيمة، فماذا يضيره أن يحط من مقامه أو ينال من عرضه مَن لا وزن لهم؟!

وثَمَّة لفتة أخرى مهمة: وهي أن الله تعالى بدأ بالعطية، ثم أمره بالصلاة، فهل العطية فضل ابتدائي، أو هي جزاء على فعلٍ فعله الرسول ﷺ؟

الجواب: بل هي فضل ابتدائي، فمن نعمة الله أن أعطاه الكوثر، وقد اصطفاه لهذا الفضل، ثم أمره بالصلاة والنحر على سبيل الشكر.

يقول اللُّغويون والمفسرون: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ على وزن «فوعل»، مثل: كوكب، زورق، جوهر، دوسر، وهي أسماء جامدة، تدل على الكثرة في الشيء، فدوسر، أي: كثرة في القوة والضخامة.

---

(١) ينظر: «اصطناع المعروف» لابن أبي الدنيا (٢٢)، و«المجالسة» (٣/ ٧١) (٦٨٥)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٩٨)، و«شعب الإيمان» (١٠٤٢٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦٣).

و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو الخير الكثير، المفرط في الكثرة، بما لا مزيد عليه. وهذا أعم ما قاله المفسرون في تفسير ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾، ويدخل فيه كل ما قيل.

وقد قيل فيه أكثر من خمسة عشر قولًا، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه». فقيل لسعيد بن جُبير: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

ويظهر أن الذين عبَّروا بأن الكوثر نهر في الجنة قصدوا التفسير بالمثال.

ومن معاني الكوثر: كثرة أولاد النبي ﷺ، وهذا نقيض ما قاله المشركون: إنه أبتر، و«الأبتر» هو مَن لا ولد له، أو لا يعيش أولاده الذكور، وهذا من نذالتهم؛ لأنهم يلمزونه بما لا يد له فيه، وإنما هو شيء جرى به القدر، لا مجال للتعيير والشماتة بالموت، ولم يكن النبي ﷺ بما جُبل عليه من الـخُلُق العظيم يشمت بموت أعدائه أو موت أقاربهم، بل قال ﷺ في شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل: «لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ»[2]. وقال: «لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[3].

فإن قال قائل: قد مات أولاده ﷺ في حياته، فمن أين تندفع هذه الشماتة به ﷺ بأنه أبتر؟

الجواب: إن ذرية النبي ﷺ من السادة الأشراف الذين نسلوا من بناته، كثيرون في الحجاز واليمن وبلاد العرب والهند وسائر أصقاع الأرض، حفظوا أنسابهم وتناسلوا وتكاثروا، في حين لو أردت أن تبحث في ذرية الذين كانوا يعيِّرون النبي ﷺ بأنه أبتر، فلن تجد واحدًا ينتسب إليهم، ولا يمكن أن تجد واحدًا يقول: هذا من

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ذرية أبي لهب مثلًا؛ لأنهم قد اندرسوا واندثروا، وهم الذين كانوا يعيرونه بأنه أبتر ويفخرون بكثرة أبنائهم ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٣].

ومن معاني الكوثر: كثرة علماء أمة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالى حفظ هذه الأمة بالعلماء، فهم ورثة الأنبياء، وقد وعد نبيه ﷺ بأن يجعل في أمته من أهل العلم والحكمة مَن يحفظ الله تعالى بهم هذه الأمة ودينه.

ومن معاني الكوثر: كثرة أتباع النبي ﷺ، وما أكثرهم الآن، على رغم الصعاب التي تواجه الدعوة، ورغم حرب الاستئصال في غير ما مكان، حتى إنك لو رأيت أفواج الحجيج والعمار كالسَّيل المندفع في طرقات مكة وبين المشاعر، لأدركت جانبًا من هذه البشارة، ولو رآهم النبي ﷺ لسُرَّ، ولو رآهم المشركون لعلموا أن وعد الله حق!

ويشمل الكوثر: الخير المعنوي، مثل: أن الله تعالى أعطاه النبوة، وهي خير كثير، وآتاه الإسلام، والقرآن، ورفعة الذكر، كما قيل:

أغرُّ عليه للنبوةِ خاتَمٌ ... من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه ... إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ: أشهدُ

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ[1]

وبالمناسبة، فإن أكثر اسم ظهر في العالم كله هو اسم نبينا ﷺ، وهذا من رفعة الذكر له، ولا يكاد أحد اليوم في العالم إلا يعرفه، سواءً كان مؤمنًا به أو كافرًا.

ومن الكوثر: فضائل النبي ﷺ المحفوظة وما أطلعه الله عليه من العلم والحكمة.

---

(١) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (١/ ٣٠٦).

وقد كان هذا الخطاب له وهو في مكة مستضعف محارب، فهي معجزة باقية أبد الدهر، وهي بشارة وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة لأمته في عصره ومن بعده؛ لأن الله سبحانه وتعالى وعدهم بالخير الكثير في الدنيا والآخرة.

أما الخير الكثير في الدنيا، فكما ذكرنا، وأما خير الآخرة، فهو النهر الذي وعد الله تعالى نبيه ﷺ في الجنة، وقد جاء في الأحاديث ذكر آنيته ولونه وحوافه وغير ذلك من صفاته[1].

وقد علم سبحانه أنه سوف تمر بالأمة أزمات ومحن، ففي مكة كان الإسلام محاصرًا، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كانت الهجرة انفتاحًا وسعة، ومع ذلك قال النبي ﷺ لهم يومًا: **«أَحْصُوا لي كم يلفظ الإسلام». فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال** ﷺ: **«إنكم لا تدرون لعلكم أن تُبتلوا». قال** حذيفة رضي الله عنه: **فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلِّي إلا سرًّا**[2].

وفي غزوة الأحزاب زُلزلوا زلزالًا عظيمًا، وكانت عاقبته الفرج والعز، حتى قال النبي ﷺ: **«اليوم نغزوهم ولا يغزوننا»**[3]. نحن نسير إليهم، وهكذا كان.

ثم جاء موت النبي ﷺ وارتدت قبائل العرب، ثم آمنوا ورجعوا.

ثم جاءت حوادث الخلاف بين المسلمين.

ثم غُزي أهل المدينة واستبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية.

ثم جاءت أزمات ومحن، والإسلام يتجاوز العقبات التي تعترضه، والناس بحاجة إلى التطمين، وإذا فقدوا الطُّمأنينة وقعوا في يأس وإحباط وقنوط، واليائس لا يعمل شيئًا، وما لم يكن ثَمَّ أمل فلا عمل، كما قيل:

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٦٤-٤٩٦٦، ٦٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠٩، ٤١١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه.

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

على المؤمن أن يكون واثقًا من ربه ومن انتصار دينه، ولا يلزم من هذه الثقة أن تدرك بذاتك نصر الله لدينه؛ فهذا ليس بلازم، فقد ينصر الله دينه بغيرك أو بعد موتك، والذي عليك أن تكون متفائلًا بأن الله تعالى سوف يأتي بالفرج، وكما قيل:

اشتدِّي أزمة تنفرجي قد آذنَ ليلُك بالبَلَجِ

وكما قيل:

ولربَّ نازلـةٍ يـضـيـقُ بها الفتى ذَرْعًا وعند الله منهـا المخـرجُ

ضاقت فلما استحكمتْ حَلْقاتها فُرِجت وكنت أظنُّها لا تفرجُ

وكما قيل:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنه له كل يومٍ في خليقته أمرُ

وكما قيل:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكون وراءه فرجٌ قريبُ

وعلى المؤمن حين يواجه عسرة مادية أو مشكلة عائلية أو شخصية أو أزمة صحية، أن يملأ قلبه بالثقة بوعد الله، ويفوِّض الأمر إلى الله، فإن هذا يعطيه قوة ودفعة إلى الأمام ويعينه على الانعتاق وتجديد الانطلاق.

* ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢]:

الأمر بالصلاة تفريع على العطاء، أي: نحن أعطيناك فَصَلِّ، ففي هذا أن الله تعالى أمره بالشيء الذي كان المشركون ينهونه عنه، كما قال الله: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]، ولذلك قال في تلك السورة: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩].

والعادة أن النعم يأتي عقبها الأمر بالشكر، وهنا لم يقل: (فاشكر)؛ لأن الصلاة جامعة لكل معاني الشكر، ويقول العلماء: إن الشكر يكون بثلاثة أشياء:

بالقلب، وذلك بأن يشعر قلبك بالامتنان، وتذكر المنة التي طوق الله بها عنقك في خلقك ورزقك وسمعك وبصرك.

وباللسان، بأن تلهج بالشكر بلسانك، كما قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وبالجوارح، وذلك بالعمل وحسن توظيف النعم.

يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً: يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

والصلاة تتضمن ذلك كله، ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1].

فالصلاة شكر، بل هي رأس الشكر، وهكذا تأسَّى النبي ﷺ بإخوانه من المرسلين، كنوح الذي وصفه ربه بأنه كان عبدًا شكورًا، وداود الذي أمره ربه أن يعمل شكرًا.

ونلاحظ هنا أنه أتى باللام؛ لأن اللام هنا هي سر الإخلاص؛ لأن معناها: لا تصلِّ كما يصلِّي المشركون لآلهتهم، وإنما صلِّ لربك موحِّدًا له، ولا تكن مرائيًا، كأولئك الذين يراءون ويمنعون الماعون.

والصيغة هي صيغة قصر، يعني: أن تكون صلاتك مقصورة على ربك؛ بحيث لا تصلِّي إلا لربك.

ولم يقل: (فصلِّ لنا)، أو: (فصلِّ لله)، أو: (لي)، وإنما قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠).

والبلاغيون يسمون هذا التفاتًا، يعني تغيير صيغة الخطاب من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغائب.

وهي إشارة للاسم المناسب لموضوع الصلاة، وهو أن الصلاة عبودية، والعبودية اللائق فيها هو اسم «الرب» الذي يعبده الناس، فاختار لفظ «الرب» اللائق بمقام العبودية لله.

وفيه إيماء إلى رعاية الله تعالى وحفظه؛ لأنه «ربك» الذي رباك في الماضي، وتعاهدك، وأعطاك الكوثر.

والعادة في القرآن أن الصلاة لا تكاد تُذكر إلا مقرونة بالزكاة، وهنا تذكر الصلاة مقرونة بالنحر، فلماذا عدل عن «الزكاة» واختار «النحر»؟

لعل ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يملك مالًا تجب فيه الزكاة، وكان إذا حصل على شيء ينفقه في الحال، ولذا فإنك لا تقرأ في سيرة النبي ﷺ أنه أخرج زكاة؛ لأنه لم يكن عنده مال يحول عليه الحول فيزكيه.

وإنما كان يدخر لأهله قوت سنة[1]، ومثل هذا لا يزكَّى؛ لأنه قوت من تمر أو شعير أو بر، وأما النقد فكان يتصدَّق به فورًا، حتى إنه صلَّى العصر يومًا، ثم قام مسرعًا إلى بيته، فلما رجع سأله الناس، فقال: «**ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ كان عندنا**». وأمر النبي ﷺ بلالًا فقسمه[2].

وقد أَهْدَى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة، نحر منها ثلاثة وستين بيده، وأمر عليًّا رضي الله عنه فنحر ما بقي منها[3].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥١) من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٧٤، ٢٣٥٩، ١٤٥٤٩)، و«صحيح البخاري» (١٧١٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«جامع الترمذي» (٨١٥)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٧٦).

والنحر نوع خاص من الذبح، وهو للإبل، حيث تُنحر قائمة معقولة يدها اليسرى، تُطْعَنُ في لَبَّتِها[1] فتسقط، بخلاف الذبح؛ فإنه يكون للغنم والبقر.

والنحر قد يُطلق ويقصد به مطلق القُربان، ولذلك يُسمى يوم العيد: «يوم النحر»، مع أن من الناس مَن ينحر ومنهم مَن يذبح، وما يُذبح فيه من الغنم أكثر مما يُنحر من الإبل، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱنْحَـرْ﴾، يشمل الأمرين معًا.

ومن أهل العلم مَن احتج بهذه الآية على وجوب الأُضحية، وهو قول الحنفية؛ لأن الله تعال أمر بها نبيه ﷺ.

وقد ذهب كثير من الفقهاء والمفسرين -وهو مروي عن الإمام مالك- إلى أن المقصود بالصلاة أيضًا صلاة عيد الأضحى؛ ولذلك أعقبها بقوله: ﴿وَٱنْحَـرْ﴾، أي: فصل صلاة العيد ثم انحر، وهذا وجه جيد، وإن كان لا يلزم قصر الآية عليه، وعلى هذا فنقول: هذا من معاني الآية، فالآية دليل على مشروعية صلاة العيد، ومشروعية الأضاحي.

والراجح: أنها لا تدل على وجوب صلاة العيد، ولا وجوب الأضحية، والوجوب يفتقر إلى دليل آخر، وغاية ما فيها الأمر بمطلق الصلاة ومطلق النحر[2].

كما استدلوا بهذه الآية على أن النحر يكون بعد الصلاة، وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه ألَّا ينحروا إلا بعد صلاة العيد، ولما جاءه أبو بُردة بن نِيار رضي الله عنه وأخبره أنه ذبح قبل الصلاة، قال له: «شاتك شاة لحم». وأمره أن يذبح بدلها أخرى[3].

---

(١) اللبة: وسط الصدر والمنحر. ينظر: «لسان العرب» (ل ب ب) (١/ ٧٣٣)، و«تاج العروس» (ل ب ب) (٤/ ١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٩٣-٦٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٤-٦١٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤١٢-٤١٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٤٩٥-٤٩٧)، (٤/ ٣٧١-٣٧٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٩٦١).

وقد خاطب الله نبيه ﷺ بهذه الآية، مع أنه كان هو وأصحابه في مكة فقراء جياعًا خائفين، وفيه تأكيد على أنه سيعطيهم من الخير العميم ما تتغير به أحوالهم من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى.

وفيه تأكيد على عز الدين وأهله، فما أمره أن يصلِّي لربه وينحر، إلا وقد تعهد له ولأصحابه أنه سوف يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فيعبدونه، ويصلون وينحرون ولا يشركون به شيئًا.

* ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]:

و«الشانئ» هو: المبغض، كما قال الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨].

و«الأبتر» هو: المقطوع، يقال: بُتر العضو، أي: قطع، و«البتراء» هي الركعة الواحدة؛ لأنها مقطوعة عما بعدها، وهكذا «الأبتر» عند العرب يطلقون على مَن لا يأتيه أولاد ذكور، أو مَن يموت أولاده الذكور[1].

ومن هنا جاء في بعض الروايات[2] أن بعض المشركين في مكة -قيل: أبو جهل، وقيل: العاص بن وائل السهمي، وقيل: عُتبة بن رَبيعة، وقيل: أبو لهب- كانوا يعيِّرون النبي ﷺ بذلك، فرد سبحانه بأن مبغضك وقاليك وكارهك هو الأبتر، وليس أنت كما يدَّعي.

تولَّى الله عز وجل بنفسه الدفاع عن نبيه محمد ﷺ بما لم يكن النبي يعلمه ولا يملك أن يقوله، وإذا كان هؤلاء يسبُّون النبي ﷺ وينتقصونه؛ فماذا يضيره إذا كان ربه تبارك وتعالى هو الذي يسليه ويدافع عنه؟ وأبدل الله الحزن والألم الذي كانوا

(١) ينظر: «لسان العرب» (ب ت ر) (٤/ ٣٧)، و«تاج العروس» (ب ت ر) (١٠/ ٩٧).
(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٤٥، ٢٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٦٩).

يسعون في تسبيبه لرسول الله ﷺ بأن جعل هذا العطاء الجَزْلَ مسوقًا بمناسبة الكلام الذي قالوه، فجعل الله عاقبته خيرًا، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

وفي وصف العدو بـ «الشانئ» إشارة إلى أنه لم يتحقق من كيدهم إلا بغض قلوبهم له؛ لأن الله تعالى يدافع عنه، وقد قيض أبا طالب في أول البعثة يدافع عنه، وكان يقول:

والله لن يصِلوا إليك بجمْعِهم ... حتى أوسَّدَ في التراب دفينا[1]

ثم لما مات أبو طالب قيَّض الله سبحانه وتعالى له في المدينة الأنصار والمهاجرين، ثم حمى الله سبحانه وتعالى دينه، ونصره وأعلاه على الأديان الأخرى.

والمبغضون حالهم كما قال الإمام أبو محمد بن حزم في بعض قصائده:

قالوا: تحفَّظْ فإن الناس قد كثُرت ... أقوالُهم، وأقاويل الوَرَى مِحَنُ

فقلتُ: هل عيبُهم لي غير أنِّيَ لا ... أدين بالرأي؛ إذ في رأيهم فتنُ

وأنني مولعٌ بالحقِّ لستُ إلى ... سواهُ أنحو ولا في نصرِه أهنُ

دعهم يعضُّوا على صُمِّ الحَصَى كمدًا ... مَن ماتَ من غيظِه منهم له كفنُ[2]

أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ [آل عمران:١١٩]، وهنا قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، فليس له إلا مجرد البغض الذي يحمله في قلبه، ولذلك قالوا: «لله در الحسد؛ ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله».

(١) ينظر: «ديوان أبي طالب» (ص ٩١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، و«ثمرات الأوراق» (٢/ ٤)، و«سبيل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٢٧).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢١٢).

وفي الولايات المتحدة الأمريكية حملة ضارية على النبي ﷺ ونقد له:

فـ (جيري فالويل) له برنامج تلفزيوني، وستة ملايين أسرة تستقبل البرنامج وتتأثر به! وعنده جامعة أصولية، وله موقع على الإنترنت، يقول في قناة فوكس الأمريكية عن النبي ﷺ: إنه إرهابي! ورجل عنف! ودموي! وإن كانوا قد نقلوا عنه أنه اعتذر بعد ذلك.

وكذلك (بات روبرتسون) عنده برنامج تلفزيوني اسمه: «نادي السبعمائة»، يُذاع على تسعين دولة في العالم، وبأكثر من خمسين لغة! ولك أن تتخيل حجم الانتشار والامتداد!

تكلم عن النبي ﷺ ووصفه بأنه يدعو أصحابه إلى قتل الناس! وأنه متعصِّب! وأنه -حاشاه ﷺ- كان لصًّا وقاطع طريق!

و(فرانكلين أبراهام) عنده برنامج تلفزيوني، وموقع إلكتروني ضخم يبث بست لغات عالمية، وهو ممن تولَّوا كبر النيل من الرسول ﷺ ووصف الإسلام بأنه دين شرير، وهؤلاء من الأصوليين اليمينيين المتطرِّفين، وبعضهم شاركوا في حفل تدشين الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، وكانت فترة رئاسته تشكِّل العصر الذهبي لهم.

ومهما يقولون، فإن رجالًا من بني جلدتهم كانوا أكثر حيادية وأبعد عن التعصب، وهم كثير:

منهم: (مايكل هارت)، صاحب كتاب «المائة الأوائل» الذي وضع النبي ﷺ في الرتبة الأولى، وجعل عيسى عليه السلام في الرتبة الثالثة، وموسى عليه السلام في الرتبة السادسة عشرة.

وقال: إن النبي محمدًا (ﷺ) كان سياسيًّا محنكًا، وكان قائدًا عسكريًّا، وإنه ملأ

قلوب المسلمين بالعدل والإنصاف.

ونجد كثيرًا من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمؤرِّخين والمفكِّرين الذين درسوا الإسلام باعتدال وإنصاف، أشادوا بالنبي ﷺ بلغة غريبة.

حتى إن الشاعر الفرنسي (لا مارتين) يقول: أعظم حدث في حياتي هو أنني قرأتُ سيرة النبي محمد (ﷺ) ودرستها دراسة وافية، وأدركت ما في سيرته من عظمة وخلود.

ويقول: أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك محمدٌ (ﷺ)؟! وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟

لقد هزم الرسول (ﷺ) المعتقدات الباطلة التي تجعل واسطة بين الخالق وبين المخلوق.

وعالم اللاهوت السويسري الدكتور (هانت كونت) يقول: محمد (ﷺ) نبي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أن محمدًا (ﷺ) هو المرشد القائد إلى طريق النجاة.

وشاعر الألمان الشهير (جوته) يقول: بحثت في التاريخ عن مثل أعلى يمثل الإنسانية في أرقى صورها، فوجدته النبي العربي محمدًا (ﷺ).

ويقول في كلمة مؤثِّرة تأخذ باللب يخاطب بها أستاذه الروحي الشاعر الكبير حافظ الشيرازي: يا حافظ، إن أغانيك وقصائدك تبعث السكون في نفسي، إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطَّمة بهم جميعًا، أرجوك أن تأخذنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد (ﷺ).

ويقول (فارس الخوري): إن محمدًا (ﷺ) أعظم عظماء العالم، والدين الذي جاء به هو أكمل الأديان.

ويقول الأديب والروائي الروسي الشهير (تولستوي): أنا واحد من المبهورين

بالنبي محمد (ﷺ) الذي اختاره الله الواحد إله الكون ليكون آخر الأنبياء، ولتكون رسالته آخر الرسالات على وجه الأرض.

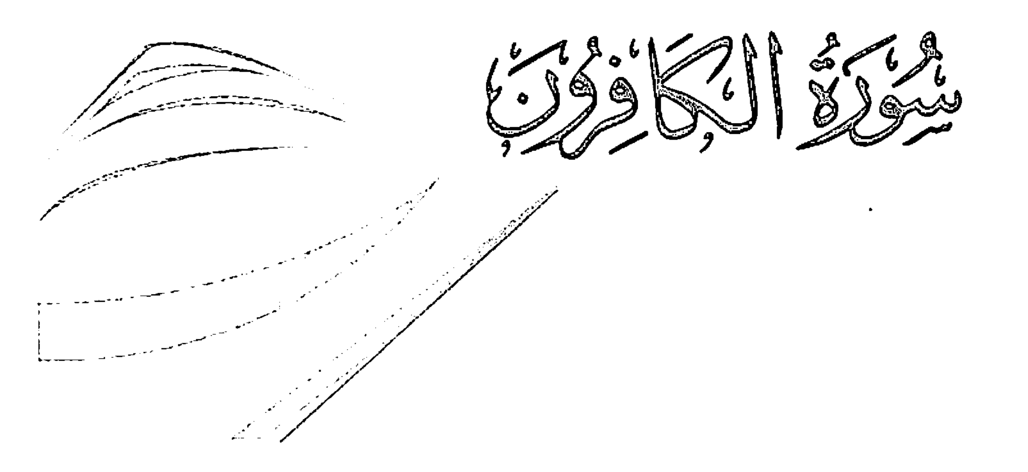
ومن العجيب أن (برناردشو) الأديب والفيلسوف المعروف يقول: قرأتُ حياة رسول الإسلام (ﷺ) جيدًا مرات، فلم أجد فيها إلا الـخُلق كما ينبغي أن يكون، وكم تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم!

ويقول أيضًا: لقد درست محمدًا (ﷺ) باعتباره رجلًا مدهشًا، فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدعى: «منقذ الإنسانية»، وأوروبا مبتعدة عن عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، وتمنيت أن تعترف أوروبا بقدرة هذه العقيدة الإسلامية على حل مشكلاتها، وبهذا الروح يجب أن تفهموا كلامي!

كان النبي ﷺ رجلًا متواضعًا، بعيدًا عن الادِّعاء والتكلف والتفاخر بالدنيا، فتولَّى ربه الدفاع عنه في وجه الشانئين المغرضين، ووعده فأجزل وأنجز، وأوصاه بدوام الذكر والشكر، وبيَّن مصير خصومه، فما كان التاريخ سوى ترجمة أمينة دقيقة لهذا الوعد وذاك الوعيد!

○ ○ ○

سُورَةُ الكَافِرُونَ



سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

* تسمية السورة:

١- المشهور تسميتها: «سورة الكافرون»، وبعضهم يسميها: «سورة الكافرين» باعتبار أنها مضاف إليه مجرور بالياء[1].

٢- وسماه البخاري في «صحيحه»: «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[2].

ولها أسماء أخرى، ذكرها بعض المفسِّرين والمصنِّفين في «أصول التفسير» كالسيوطي، منها: «المقشقشة»، و«البراءة»، و«سورة الدِّين»، و«سورة العبادة»، و«سورة المنابذة»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٨٥)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٣١٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٩)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٨)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) ينظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٧٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٢٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٨١)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٩٥)، (٣٠/ ٥٧٩).

وهذه ليست أسماء، بل أوصاف، ولذا تشترك مع غيرها، لـ «سورة الدِّين» التي هي من أسماء «سورة الماعون»، و«المقشقشة» التي تطلق على «سورة التوبة».

* عدد آياتها: ست آيات بلا خلاف[1].

* وهي مكية باتفاق العلماء، كما ذكره ابن عطية، وغيره، وفي المسألة خلاف يسير[2].

وجاء في فضلها أحاديث، منها: حديث جابر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[3].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[4].

وجاء عن ابن عمر ﷺ، أن رسول الله قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[5].

والأحاديث تدل على استحباب القراءة بها في راتبة الفجر وراتبة المغرب، وركعتي الطواف، وفي الوتر.

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» لابن الجوزي (ص ٣٢٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٨٦٩)، وله أصل في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٤٧٦٣)، وابن ماجه (١١٤٩)، والنسائي (٢/ ١٧٠).

وسبب نزول السورة هو أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، فجاءه ملأ من قريش وقالوا: يا محمد، علِّمنا الذي تدعو إليه، فهلم نعبد إلهك سنة، وتعبد إلهنا سنة، فإن كان الذي تعبده خيرًا، كنا قد أدركنا حظنا منه، وإن كان الذي نعبده خيرًا كنتَ قد أخذتَ بحظك منه. فرفض النبي ﷺ ذلك، ثم نزلت هذه السورة لترد على هذه المفاوضة(1).

* ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]:

افتتحت السورة بفعل أمر، وهو: ﴿قُلْ﴾، والقرآن كله من عند الله، وقد أُمر النبيُّ ﷺ أن يتلوه على الناس، لكن ثَمَّةَ سور افتتحت بهذه الكلمة، كسورة الجن، وهذه السورة، والإخلاص، والمعوِّذتين، فهذه خمس سور، وأما الآيات فكثيرة.

وما الحكمة من هذا الاستفتاح؟

الجواب:

١- للتأكيد على أن موضوع السورة ليس مما يخص النبي ﷺ، ولا يدخل تحت اختياره أو اجتهاده، بل هو من محكمات العقيدة التي لا يملك الرسول ﷺ ولا أحد من البشر إطلاقًا أن يجتهد فيها، وهو مسألة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ونبذ عبادة ما سواه.

وهنا نلحظ فرقًا بين هذه المسألة وبين مسائل أخرى وقع للنبي ﷺ فيها اجتهاد لمصلحة المسلمين، كقصة الأحزاب حين أحاطوا بالمدينة، ورأى النبي ﷺ أن العرب قد رمته عن قوس واحدة، فعَرَض ﷺ على الصحابة أن يصالح غَطَفان وغيرهم، أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا.

وهذه المسألة من مسائل السياسة الشرعية الاجتهادية، وليست مسألة عقيدة.

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٠٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٠).

وكذا لما خرج النبي ﷺ إلى مكة عام صلح الحُدَيْبية، وردوه، وحصلت المفاوضة بينه وبين كفار مكة قال ﷺ: «**أما والله لا يدعوني اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمة، ولا يدعوني فيها إلى صلة إلا أجبتهم إليها**»[1]. فلما جاؤوه وعرضوا عليه الصلح بشروطهم قبل بها ﷺ؛ لأنها من قَبِيل المسائل الاجتهادية الداخلة في السياسة الشرعية.

وكثير من الناس -بسبب قلة الفقه، أو شدة الغيرة- يخلطون بين هذه وتلك، في حين نجد في حياة النبي ﷺ العامة الفصل الواضح المبين.

فالمسائل المحكمة الأصولية القطعية لا مجال فيها للاجتهاد والتفاوض كما في موضوع هذه السورة.

أما المسائل المتعلقة بالسِّلْم والحرب والمواقف الاجتهادية، فيسوغ فيها الاجتهاد.

٢- لتجديد أمر الرسالة وتأكيد مصدرها، وأن النبي مؤتمن على القرآن يبلغه بحروفه؛ ولأنه لو قال لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فسيفهم أن هذا كلام إنشائي من لدن الرسول ﷺ، فهو الذي رفض العبادة، وقد عرضت عليه، فلما تلا ﴿قُلْ﴾ علموا أن الله تعالى هو الذي لقَّنه هذا الأمر، وأمره به، فتبين بهذا أن ﴿قُلْ﴾ هنا ضرورية.

٣- للتبليغ وعدم الكتمان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، فالنبي ﷺ مأمور بتبليغ القرآن، وقد بلغه ولم يكتم منه شيئًا.

والنبي ﷺ كان في مكة في حالة ضعف، والكفار من حوله بمكة هم أكابر في السن والمكانة، ودعوته لا زالت في مهدها، فأن ينزل القرآن ليجابهم بهذا الخطاب:

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٨٥٥)، و«مسند أحمد» (١٨٩٢٨)، و«صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٩٦).

(قُلْ) أي: يا محمد! لهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فهو شيء مزلزل، وقطع لا تردُّد فيه لأي مفاوضة من هذا القبيل.

٤- في ذلك تحقير الكافرين وتعظيم الرسول ﷺ؛ فإنه تعالى عظَّم النبي ﷺ بمخاطبته، ويكفيه فخرًا وشرفًا أن يخاطبه ربه جل وعز خطابًا مباشرًا، وهذا تشريف للنبي ﷺ، وفيه تحقير للمشركين والكافرين؛ لأن الله تعالى لم يخاطبهم، وإنما أمر نبيه أن يخاطبهم بمدلول الآية، كما وصفهم تبارك وتعالى بوصف لا مجاملة فيه ولا ملاينة فوصفهم بـ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهو وصف مقرِّع شديد.

٥- في هذا أن الله سبحانه وتعالى علِمَ في طبع النبي ﷺ ما جُبل عليه من الرحمة واللِّين، والله تعالى اختاره على علمه بهذه الصفات؛ لأن الله تعالى أراد أن يجمع به الشمل المتفرِّق لهذه الأمة، والشمل المتفرِّق يجتمع على الرحمة واللِّين، وليس على الغلظة والشدة.

فلقَّنه هنا البراءة الصريحة من الشرك والمشركين؛ للإشارة إلى أن حُسن خُلُقه ﷺ مكرمة نبيلة في حقه، وشرف عظيم، وسبب لنجاح الدعوة وقبولها لدى الخاص والعام، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم:٤]، لكن حسن الخلق لا يتنافى مع المفاصلة مع الكفار والبراءة من شركهم.

ولما كان موسى عليه الصلاة والسلام مجبولًا على الشدة والقوة في طبعه، كما في قصته مع الرجل الذي وَكَزَهُ فقضى عليه، كان أول ما أوصاه الله تعالى أن قال له: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٣-٤٤].

فربنا سبحانه وتعالى يعلم أن فرعون من أهل النار، ولكن الحجة لا تقوم إلا بالقول الليِّن؛ ولذا أمر به وأوجبه.

وكثير من الناس يخلط بين البراءة من الشرك وأهله، وبين حسن المعاملة والملاينة،

فالنبي ﷺ كان يعيش في مكة بين أظهر المشركين، ويحسن معاملتهم ويخالقهم بخلق حسن، ولما هاجر إلى المدينة كان فيها اليهود والمنافقون والمشركون، وكانت أخلاق النبي ﷺ مع هؤلاء أيضًا أخلاقًا حسنة يحسن معاملتهم ويعدل معهم.

وبعضهم يظن أن البراءة من الشرك تلزمه ألَّا يصافح المشرك، وليس لديه دليل قطعي على ذلك، بل العلماء مجمعون على أن الكافر ليس بنجس العين، وإنما نجاسة الكافر معنوية، لا ينجس المسلم بملامسته[1].

كما أن البراءة من الشرك وأهله لا تمنع التعامل معهم بيعًا وشراءً، ولا التبسم والمصافحة وحسن الأدب ومراعاة الأعراف العامة التي لا تنافي أحكام الإسلام وأصوله، فقد كان النبي ﷺ يتلطف معهم، ويغشى مجالسهم، ويأكل من طعامهم، ويبايعهم، ويتكلم معهم، ويباسطهم.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حَبْر إلى النبي فقال: يا محمد، أو: يا أبا القاسم، إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له»[2]. فلم يمنعه كونه يهوديًا أن يصدِّق بما قال، وأن يتبسم لكلامه.

وفي خيبر دعت اليهودية النبيَّ ﷺ والصحابة إلى الشاة، فجاؤوا وأكلوا عندها من طبخها، وكانت وضعت فيها السم[3].

وقد يجد المسلم في قلبه حبًّا لكافر، لا لكفره ومعاصيه، وإنما بمقتضى الطبيعة

---

(١) ينظر: «المبسوط» (١/ ٤٧)، و«بدائع الصنائع» (١/ ٦٤)، و«المحلى» (١/ ١٣٨)، و«كشاف القناع» (١/ ٥٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٩٤-٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

والفطرة، كحب الصديق لصديقه، وحب الابن لوالده أو الوالد لولده، وحب الزوج لزوجته، والله يقول: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فإذا تزوج كتابية فسوف يأكل معها، ويضاحكها ويداعبها، وهذا يستدعي مودة ومحبة في قلبه لها، لكنها ليست محبة لشركها وكفرها.

ومثل هذا حب الوالدين، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، والولد يحب والده فطرة؛ لأن الولد بعض من الوالد، وإبراهيم ﷺ كان واضحًا في محبته لأبيه وحرصه عليه، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:٤٧]، وقال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

والحب لا يحمل المؤمن على ما لا يحل من عبادة غير الله، أو ارتكاب ما حرم الله، أو المداهنة في الدين، أو إفشاء أسرار المسلمين.

فهناك فرق بين البراءة من الشرك والكفر والمعصية، والبراءة من أهلها أيضًا بهذا الاعتبار، وبين مخالقتهم بخلق حسن ومحبتهم المحبة الفطرية الطبيعية.

وأما الكفار المحاربون، فقد صرَّح القرآن بالنهي عن موالاتهم، وأن مَن تولاهم فأولئك هم الظالمون، ووصف متوليهم بأنه قد ضل عن سواء السبيل.

وقد ذكر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» أكثر من ثلاثة وأربعين وجهًا في سر افتتاح السورة بهذا المطلع ﴿قُلْ﴾[1].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ثلاثة حروف، هي حروف نداء: «يا»، وهو وحده كافٍ، والحرف الثاني: «أيُّ»، والحرف الثالث: «الهاء» والهاء قد يكون

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣-٣٢٩).

حرف نداء، وقد يكون حرف تنبيه، فهذه الحروف الثلاثة هي لحشد الانتباه، وأتت بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، من أجل استجماع الذهن والسمع؛ لتلقي القرار الصارم الذي لا تردُّد فيه.

وقد وصفهم الله في هذه الآية في مخاطبتهم بـ «الكافرين»، وفي موضع آخر وصفهم بـ «الجاهلين»، كما في سورة الزمر في قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤].

وقد ورد أن هذه الآية من سورة الزمر نزلت في السبب نفسه الذي نزلت له سورة الكافرون، فهناك وصفهم بالجاهلين، وهنا وَصَفهم بالكافرين.

وبين «الجهل» و«الكفر» تلازم، وربما يكون الجهل سببًا، والكفر نتيجة، فبسبب الجهل بالله وقعوا في الكفر، والكفر أشد من الجهل.

وهنا سمَّاهم: «كافرين»، وهو الاسم الذي ينطبق عليهم ويعبر عن حقيقتهم، فليست من أجل التعيير، وإنما من أجل الدعوة إلى ترك ما هم عليه، ومباعدة الحالة التي هم فيها؛ لأنهم لو لم يكونوا كافرين، لما أمر بمفاصلتهم في الدين والبراءة منهم، وهم يصرحون بذلك ويقولون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

والكافرون المقصودون هنا هم الذين يعبدون الأوثان من دون الله، كاللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، وليس المقصود كل الكافرين؛ لأن منهم مَن يعبد الله، أو يدَّعي ذلك، مثل أهل الكتاب، فأهل الكتاب يزعمون أنهم يعبدون الله، لكن عبادتهم على جهل وضلال، أو بملة منسوخة محرفة.

ويوجد من الكافرين مَن لا يعبد شيئًا أصلًا، أو لا يؤمن بوجود الله، وهؤلاء ليسوا عابدين لشيء البتة.

فالمقصود إذًا عبدة الأوثان، وقد قال العلماء وأهل أسباب النزول: إن هذه

السورة نزلت في الأسود بن المطَّلب، أو الوليد بن المغيرة، أو أُمَيَّة بن خلف، أو العاص بن وائل، وهؤلاء هم الأربعة الذين حاولوا مفاوضة النبي ﷺ، لـمَّا قالوا: تعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة، وكانوا يظنون أن أمر الدين كأمور الدنيا، فهم كانوا إذا اختلفوا في أمر دنيوي كانوا يتصالحون فيما بينهم، فيتنازل هذا عن بعض حقه، ويتنازل هذا عن بعض حقه، ثم يلتقون على حل وسط في منتصف الطريق.

والكفر لغة هو: الستر، ومنه تسمية الفلَّاح كافرًا؛ لأنه يستر الحب، وفي مصر يسمون القرى الزراعية: كَفْر.

ولذلك نقول: إنه وصفهم هنا بأنهم كافرون؛ لأنهم يسترون الحقيقة، ويجحدونها.

* ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ٢]:

أي: في الحال، أي: الآن، لا أعبد الشيء الذي تعبدونه، كما قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ ﴾ [يونس:١٠٤].

* ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ [الكافرون: ٣]:

أي: ما دمتم على الكفر، فلستم عابدين إلهي، حتى لو تظاهرتم بشيء من ذلك، في وقت أو سنة، كما جاء في عرضكم التفاوضي، فالحقيقة أنكم لم تعبدوا الله الذي أعبد؛ لأن العبادة يشترط لها الإخلاص، وهو أول شرط من شروطها، وهم ليسوا مخلصين ولا مؤمنين ولا عابدين.

فعبادة الأصنام شر وشرك، وعبادة الله سبحانه وتعالى يشترط لها لكي تكون عبادة لله أن يكون العابد مؤمنًا بالله وحده، ولو عبد على أنه سيجرب، فهنا لا يكون عابدًا لله، إذ ليست عبادة لله إلا إذا كان مبناها على الإيمان والتوحيد، والخلوص من الشرك.

وتأمَّل كيف عبَّر بالفعل: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ لينفي أنه يعبد آلهتهم حتى ولو لحظة واحدة.

لكن لما خاطبهم قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ولم يقل: (ولا أنتم تعبدون)؛ لأنه قد يقع منهم الفعل، ولكن لا يتحقق به عبادتهم لله؛ لغياب شرط الإيمان الخلوص من الشرك والبراءة من الآلهة المدعاة.

فالشرك يقع ولو للحظة واحدة، لكن بالنسبة للإيمان بالله سبحانه فإنه لا يتحقَّق بمجرد كون الواحد عَبَدَ، حتى يبقى على ذلك ويدوم.

وربما يستغرب بعض الناس تكرار الآيات في هذه السورة على قصرها، ولا يفهم معنى التكرار، وما فيه من الأسرار اللطيفة والمعاني الشريفة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تصريح بأنهم حتى لو ادَّعوا العبودية لله فإنهم لم يعبدوه، لكن قال بعض العلماء: إن في الآية سرًّا آخر، وهو أن المعنى: أنكم أنتم على وجه الخصوص، يا مَن عرضتم على النبي ﷺ فكرة «اعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة» أنتم أنفسكم محكوم عليكم عند الله تعالى أنكم لن تعبدوا الله، ولن تؤمنوا، وسوف تموتون على الشرك، وهكذا كان فإن هؤلاء الأربعة ماتوا مشركين، وكان هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

وعبَّر بها هنا بقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ والمقصود: لستم بعابدين الله الذي أعبده، فـ﴿مَآ﴾ هنا تكون للعالم وغير العالم، فإذا أمن اللبس فهي موصولة، وتصلح للعالم وغيره.

والتكرار مقصود لأهمية الموضوع؛ لأنه أصل الدين، ويستحق أن يكرر الكلام فيه؛ لأنه هو لب اللباب، وأصل الكتاب.

ويتكرر لتكرر العرض منهم، فهم يعرضون على النبي ﷺ مرة ومرتين وثلاثًا،

ولم ييئسوا من العرض، فيأتي التكرار في القرآن الكريم، وكأن المعنى: مهما كررتم العرض ونوعتم في أساليبه وطرائقه، فإن الجواب سيظل واحدًا لا يتبدل.

* وهنا نلاحظ أن الله تعالى عبَّر بالماضي، فقال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ [الكافرون: ٤-٥]. ولم يقل: (ولا أنا عابد ما تعبدون)، وفيها أسرار:

منها أن المعنى ما تعبدونه لم أعبده قط في حياتي، فقد كان يمقت الأصنام ويكرهها، حتى قبل البعثة، وكان لا يأكل ما ذُبح على الأنصاب، ولو كان النبي ﷺ يعبدها في الجاهلية لقالوا له: أنت كنت تعبدها. بل كانوا يعرفون مجانبته لها وهجرها.

ومنها الإشارة إلى عراقتهم في الكفر والشرك، فهذا الأمر مما توارثوه، فهو ليس شيئًا جديدًا طارئًا عليهم يسهل زواله، بل هو أمر قديم، فهم غارقون فيه هم وآباؤهم إلى الأذقان.

ويحتمل أن يكون التكرار لنفي المعبود ونفي العبادة ذاتها، أي: لا أعبد أصنامكم ولا أتعبد بعباداتكم التي تفعلون، وفيه دليل على تحريم مشابهة المشركين فيما يفعلونه على سبيل التعبُّد، وقد كان المشركون يطوفون بالبيت وبين الصفا والمروة.

والجواب: أن هذه العبادات في أصلها ليست عبادات شركية، بل عبادات توحيدية جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم، وبقيت من آثار الرسالة، فأخذتها قريش، ولذلك أُقرَّت في الإسلام وصارت من أركان الحج والعمرة ومناسكهما بعد إزالة ما أضافته الجاهلية إليها من الطقوس الفاسدة كالعُرْي في الطواف.

ولم يذكر الله سبحانه حججًا في هذه السورة كالعادة، فلم يحتج عليهم بالسماء ولا بالأرض ولا بالنبات ولا بخلق الإنسان؛ لأنه في سابق علمه أنهم كافرون.

ولعل السر في ذلك هو: أن مقام السورة ومقصدها واضح، وهو إعلان البراءة

من الشرك والمشركين، ومن أوثانهم، وإعلان مفاصلتهم في المنهج والعقيدة؛ ولذلك لم تكن السورة مشوبة بمعانٍ أخرى لمحاجتهم ومجادلتهم، بل هي مخصَّصة لإعلان البراءة؛ ولهذا سميت: «سورة الإخلاص»، و«سورة البراءة»، و«سورة المنابذة».

وكما تجلَّى فيها أنه ﷺ لن يعبد ما يعبدون، فكذلك تجلَّى أنهم لن يعبدوا ربه الواحد الذي يعبده، فإن قلنا: المقصود فئة خاصة، فلأنهم يموتون على الكفر، وإن قلنا: المقصود أعم، فإن المعنى: ما دمتم كافرين؛ لأنه وصفهم الآن أنهم كافرون.

* ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]:

وفي الياء قراءتان، بالإثبات، والحذف، وهذا أسلوب الحصر، فحين أقول: لك الكتاب، فمعناه: أنه يخصك وحدك.

وفرق بين قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ وبين أن يقول: (دينكم لكم)، فإذا قُدِّم المسند، ففيه إشارة إلى اختصاصهم بدينهم، وكأنه يقول: دينكم لكم وحدكم، ولا تعلق لي فيه بحال من الأحوال، وديني لي وحدي، ولا يتجاوزني ديني لكم ما دمتم على شرككم، فأنتم تختصون بدينكم، وأنا أختص بديني.

وهذا ليس إذنًا لهم بأن يكفروا، وإنما هي مفاصلة في المنهج، وبيان أن الإسلام لا يختلط بالكفر، وفيه بيان الاختلاف الأصلي بينه وبينهم، فهذا كما قال الله عز وجل على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف:٨٧]، وهكذا قال موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧]، أي: اتركهم لنا، وخلِّ بيننا وبينهم، وهؤلاء جماعتنا ندعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، فإن أسلموا فالحمد لله، وإن لم يسلموا فجرمهم على أنفسهم.

وقد قال النبي ﷺ لقريش لما حاربوه وآذوه: «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب،

ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون»[1].

والحكم المذكور هنا حكم مستغرق لكل زمان ومكان لا يتبدل ولا يعطل.

وتأمل كيف ابتدأت السورة بالخطاب الصريح المباشر المؤكد: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واختتمت بخطاب أقرب إلى اللطف وهو: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

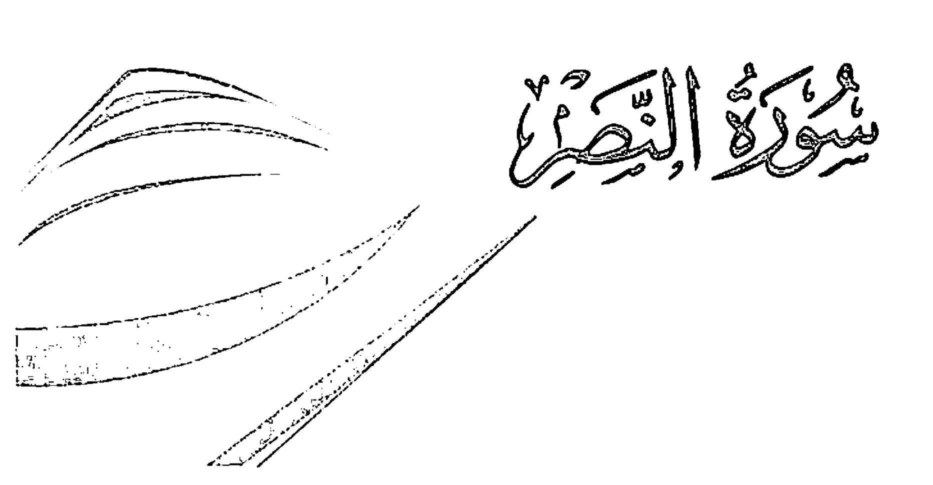
والخلاصة: أن الله تعالى قرَّر المفاصلة مع المشركين، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، والإسلام بالكفر، والهدى بالضلال، ولم يتعرض في السورة لموضوع المعاملة.

وتحتمل الآية معنًى آخر، وهو أن المقصود بالدين: الجزاء والحساب، فحسابي على نفسي، وحسابكم عليكم، ولن أؤخذ يوم القيامة بجريرتكم، ولن تؤخذوا بجريرتي، فعلى هذا تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥]، أي: ليس عليكم من خطايانا من شيء، ولا علينا من خطاياكم من شيء، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

سورة النصر



سورة النصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

* تسمية السورة:

للسورة تسميتان:

١ - «سورة النصر»، وهو المشهور[1].

٢ - «سورة الفتح»[2]، والأول أغلب، وتسميتها بـ«الفتح» يحدث لبسًا مع سورة أخرى، وهي سورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، ولذلك فالأولى أولى.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسميها: «سورة التوديع»[3]؛ لأنها إيذان بقرب أجل الرسول ﷺ، حيث أدَّى الرسالة وبلَّغ الأمانة وأكمل الله به الدين ودخل الناس في دينه أفواجًا.

وهكذا فهم ابن عباس رضي الله عنهما، كما في «صحيح البخاري» أن عمر رضي الله عنه كان يجمع أشياخ بدر، ويدخل بينهم ابن عباس، فكانوا يجدون في أنفسهم أن شابًّا في عمر

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٣٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

أبنائهم يجلس معهم، فسألهم عمر يومًا، وقال ابن عباس: لا أظن أنه سألهم إلا ليريهم مكانتي، فقال لهم: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ... ﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري. أو لم يقل بعضهم شيئًا. فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له. ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾. فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تعلمُ[1].

وليس في السورة إشارة إلى أجل النبي ﷺ، وإنما فيها البشارة بالفتح والنصر ودخول الناس في الدين، وأمر النبي ﷺ بالتسبيح والاستغفار، لكن الفقيه الفطن يدرك أن كمال الأمر له ما بعده، كما قيل:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُه ترقَّب زوالًا إذا قيل: تَمْ

فمن وراء ذلك إشعار باقتراب أجل الرسول ﷺ وتمام مهمته.

* وهي إحدى أقصر سور القرآن الكريم؛ لأنها ثلاث آيات، إلا أن فيها من المعاني ما يُعجز البلغاء.

* توقيت النزول:

وهي مدنية بالاتفاق، بل هي من أواخر سور القرآن الكريم نزولًا، وهي آخر سورة نزلت كاملة، كما قال كثير من المفسرين.

ولكن اختلف في وقت النزول، فبعضهم يقول: في السنة السابعة، وعلى هذا تكون قبل فتح مكة؛ لأنه كان في السنة الثامنة.

وقيل: كانت بعد الفتح، وهو الأظهر، وقبل وفاة النبي ﷺ بوقت يتراوح بين

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٩٤، ٤٩٧٠).

سنتين إلى بضعة أشهر[1].

* ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [الفتح: ١]:

بدئت السورة بظرف الزمان ﴿إِذَا﴾، وغالبًا ما تستخدم للمستقبل، وقد تستخدم للحاضر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [الشورى:٢٩]، أي: حين يشاء.

ومجيء النصر والفتح مشعر بالتوقيف، وأنه لا يأتي اعتباطًا أو دون ترتيب، بل بتوقيت وتوفيق وتوثيق من الله تعالى، وفي ذلك رعاية للأسباب؛ لأن هذا النصر جاء بعد عشرين سنة كان فيها من المجاهدة والمصابرة ما لا يحتمله إلا الأصفياء الأتقياء، فمن الصحابة ﷺ مَن قُتل، ومنهم مَن ضُرب، ومنهم مَن طُرد، ومنهم مَن أُوذي، ومنهم من لاقى آلامًا لا يحتملها إلا الصابرون المجاهدون.

والأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر:٢١]، فجاء النصر هنا على قَدَرٍ، كما قال الشاعر:

جاءَ الخلافةَ أو كانت له قَدَرًا   كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

والتعبير بـ (نصر الله) مشعر بأن النصر مِنَّةٌ من عنده سبحانه، وهذا يدعو للتواضع والانكسار، واستحضار فضل الله بما تحقق؛ ولذا لما دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا دخلها متواضعًا مطأطئًا رأسه[2]، وقد خرج بالأمس طريدًا من مكة

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٤٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩-٢٣٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٢٤)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٠٥)، و«المستدرك» (٣/ ٤٧)، (٤/ ٣١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٦٨-٦٩)، و«الكامل في التاريخ» (٢/ ١٢١)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٥٤٨)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٤٥-٥٤٨)، و«فتح الباري» (٨/ ١٨، ٤٩).

خائفًا يترقب، واليوم يدخل فاتحًا مظفرًا منصورًا.

وقد جرت عادة السلاطين والملوك أنهم إذا فتحوا وتمكَّنوا من عدوهم يظهرون القوة والعزة والتشفِّي والبطش، ولسان حال أحدهم يقول: خصومك وقد أظفرك الله بهم، فأعملْ فيهم السيف، ولا تبق منهم ولا تذر، واجعلهم عبرة لـمَن خلفهم.

لكن النبي ﷺ لِمَا جبله الله عليه من صدق العبودية، وعدم التعلق بالدنيا، دخل مكة مطأطئًا، متواضعًا لله.

وفي «الصحيح» أنه ﷺ لما دخل مكة صلَّى صلاة الضحى[1].

ولو شاء الله لنصر هذا الدين بالملائكة، أو لخرق لهم النواميس، ولكنه شاء أن يبتلي بعض العباد ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]. فالمسألة مسألة مجاهدة ومصابرة، ويوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسَر، حتى تكون العاقبة للتقوى.

إن نشوة الانتصار والظفر بالمطلوب وتحقق المقصود الذي كابدوا وبذلوا واجتهدوا وصابروا من أجله تنسيهم الآلام التي لقوها.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يتمثَّل بهذا البيت:

كأنك لم تنصبْ من الدهرِ ليلةً ... إذا أنت أدركتَ الذي كنتَ تطلبُ[2]

ونسبة النصر والفتح إليه تعالى نسبة تشريف.

ومن معاني ذلك: الدلالة على عظمة النصر، وديمومته، وهكذا لم يكن نصرًا محدودًا في معركة، أو تغلبًا على عدو، وإنما هو استقرار لأمر الدين، ولذلك سطع

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٠٣، ١١٧٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٢) ينظر: «المنمق في أخبار قريش» (ص ٣١١)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ١٠)، و«معجم الشعراء» (ص ٢٧١)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ١٥٦)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٤٢)، و«المحاضرات والمحاورات» (ص ٢١٠).

تاريخ الإسلام منذ ذلك الوقت؛ وقامت دولة الإسلام في المدينة أولًا ثم في جزيرة العرب، ولم تكن البشارة به باعتباره نصرًا مرحليًّا، أو محدودًا ببيئة جغرافية أو بزمن معلوم، بل بنصر خالد يخلد ذكر الإسلام وبقاءه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وفيه ثناء مبطن على النبي ﷺ والمؤمنين لأنهم استحقوا نصر الله، وأي ثناء أعظم من أن يقال: أصبحتم جديرين بنصر الله؛ ولذلك تُربط هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى في سورة الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

ثم بيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]، فربط الصفة بأمر مستقبل، ولم يقل: (لينصرن الله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة).

والسر هنا لطيف، وربما وجد مَن يستحقون النصر في ظاهر الحال، لكن الله يعلم أنهم لو انتصروا ما التزموا بتبعات النصر ولا قاموا بتكاليفه، فيحجب الله عنهم النصر رحمة بهم وبالخلق، وحفاظًا على الرسالة وقدسيتها.

وبين ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فرق، وكان أول مرحلة هي النصر، والنصر قد يحصل للإنسان ولا يكون معه فتح. مثلًا: لو أن عدوك هجم عليك ثم قاتلته وطردته عن بلادك، فإن هذا نصر، وليس معه فتح، وإنما سلمتَ من شرٍّ، فـ «النصر» تغلب في معركة، أما «الفتح» فيدل على أنهم خاضوا المعركة، وانتصروا واستطاعوا أن يفتحوا، ويحققوا مقصودهم الأعظم.

والنصر له صور كثيرة، منها أن يثبت الإنسان على دينه، ولو تغلَّب عليه عدوه.

ومنها إهلاك الله للأعداء حتى لو لم يفتح للمؤمنين.

ووعد الله نبيه ﷺ بالفتح، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ

عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٥٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح:١].

* ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر:٢]:

هذا هو الوعد الثالث، والمقصود بالناس هنا هم الذين في جزيرة العرب، وليس الناس كلهم، ولهذا قال: ﴿أَفْوَاجًا ﴾، أي: جماعات إثر جماعات، كما قال بعضهم: إن (ال) هنا للاستغراق العرفي، يعني: الناس المعروفين الذين في جزيرة العرب.

و«الأفواج»: جمع فوج، وهو الجماعة، وهنا لم يعد الناس يدخلون أفرادًا مستخفين مستترين كما كان عليه الأمر.

وذلك دليل على قوة شوكة الإسلام، وأن شيئًا ما تغير فعلًا، وهؤلاء الذين دخلوا الآن أفواجًا لا يعدون من السابقين إلى الإسلام، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والمؤمنين الأولين ﷺ؛ لأن الشيء الذي حملهم على أن يدخلوا أفواجًا هو إما الفتح وإما دينونة جزيرة العرب للإسلام، كما في حديث عمرو بن سَلَمة ﷺ: «كانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق»[1].

وبعضهم قد يكون منعه من الإسلام خوفه على نفسه، أو ماله، أو سلطانه، فلما رأوا أمر الإسلام قد عز واستوثق وتعاظم ذهبت هذه المخاوف، ودخلوا في الدين مطمئنين.

ومنهم مَن دخل لرغبة أو رهبة، خوفًا أو رجاءً، كما جاء عن صفوان بن أُمَيَّة أنه قال: «أعطاني رسولُ الله ﷺ يوم حُنين وإنه لأبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليَّ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٣٠٤)، ومسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦).

ومسألة تغيير الدين والانسلاخ من ملة لأخرى ليس بالأمر الهين، وبهذا تظهر منقبة السابقين للإسلام وفضلهم على غيرهم؛ حيث آثروا ما عند الله على متع الدنيا وشهواتها، وجاهدوا في ذلك أعظم المجاهدة وتغلَّبوا على مألوفهم وعاداتهم، وبادروا لقبول الدعوة والتضحية في سبيلها.

والذين دخلوا في دين الله أفواجًا كان أكثرهم على مدى عشرين سنة شجًى في حلوق المؤمنين، آذوهم، وقتلوا منهم ونهبوا الأموال، ومع هذا قبل الله منهم الإسلام، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، فالإسلام يَـجُبُّ ما قبله، والهجرة تَـجُبُّ ما قبلها، والتوبة تَـجُبُّ ما قبلها، والحج يَـجُبُّ ما قبله.

ذِكْرُ النصر والفتح، ثم ذِكْرُ دخول الناس في دين الله، يبيِّن أن الهدف هو دخول الناس في دين الله أفواجًا، وها هو قد تحقق.

إن فرح المؤمنين بدخول الناس في دين الله، هو دليل على تجردهم من حظوظ نفوسهم، وتغلبهم على أنانيتهم وقدرتهم على التسامح والصفح عن أولئك الذين ظلموهم وحاربوهم، ثم ها هم يفرحون بهم إخوانًا ينافسونهم في الطاعة والتقوى والجهاد.

إن المقصود الأعظم هو إزالة العقبات التي تحول دون دخول الناس في دين الله، والجهاد ليس غاية في نفسه ولم يشرع من أجل إزهاق الأرواح، والكفر بمجرده ليس موجبًا لإزهاق النفس.

ولذلك قدر الله سبحانه وتعالى أن يظل وجود الكفار في الدنيا إلى قيام الساعة، بل لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، «**ولا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[1]. وله تعالى الحكمة البالغة التي لا يحيط بها خلقه.

---

(١) أخرجه مسلم» (١٤٨) من حديث أنس ﷺ.

ومن حكمته أن خلق الناس مختلفين، كما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، وقدَّم الكافر؛ لأن الكفار هم الأكثر عددًا.

وليس المقصود إزهاق أرواحهم بالقتال، بل دعوتهم وهدايتهم.

ولذا كان الإسلام يمنع القتل ويحقن الدم، حتى ولو كان إسلامًا في الظاهر، كما في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبَّحنا الحُرَقات من جُهينة، فأدركتُ رجلًا، فقال: لا إله إلا الله. فطعنتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟**». قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال ﷺ: «**أفلا شققتَ عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا**». فما زال يكرِّرها علي حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ[1].

ولما بعث النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه إلى خيبر قال له: «**امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**». فسار علي رضي الله عنه شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**» هذه رواية مسلم[2].

وفي رواية «الصحيحين»: قال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «**انفُذْ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**»[3].

ودخول الناس في دين الله أفواجًا كان ثمرة صلح الحُدَيْبية؛ لأن الناس بدأ يتحدَّث بعضهم إلى بعض، وكذلك بعد فتح مكة استقر الأمر؛ لأن جزيرة العرب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢١٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

كلها دانت للنبي ﷺ وللمسلمين.

وإضافة الدين إلى الله هي في مقابل إضافة النصر إليه، فنصر الله جاء من أجل دين الله، ولم يقل: الدين؛ لأن العرب تطلق الدين على الطاعة والاتباع للملوك والدعوة لم تكن إلى اتباع أحدٍ من البشر ولا عبادة أحدٍ غير الله وحده.

* ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:٣]:

أمر الله نبيه ﷺ بالتسبيح، وقد صح من حديث عائشة ، أن النبي ﷺ بعد ما نزلت عليه هذه السورة، كان قلَّما ما يركع أو يسجد إلا قال: «**سبحانك اللهمَّ** ربنا **وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي**». يتأول القرآن[1]. أي: يحقِّق ما أمره ربه تبارك وتعالى.

والأمر بالتسبيح بحمد الله معناه: قل: «سبحان الله والحمد لله». أو يكون المعنى: سبِّح ربك وأنت متلبِّس بحمده، يعني: قائم بحمده. وهو أقرب.

وكأن النبي لما جاء النصر والفتح، وتحقَّق له ما وعده ربه؛ حمد ربه من تلقاء نفسه بمجرد رؤيته لهذه النعم، وإن كان قبلها يحمد ربه بقلبه ولسانه وجوارحه.

والفرق بين «الحمد» و«الشكر» هو: أن «الحمد» يكون بالثناء على المحمود بصفات الكمال والمجد والعظمة والكبرياء، والجلال والقوة والقدرة والعلم والرحمة، وأما «الشكر» فيكون بالثناء عليه بالمعروف الذي أسداه إلى العبد.

ولماذا رتبت هذه الأشياء الثلاثة، فبدأ بالتسبيح، ثم الحمد، ثم الاستغفار؟

الجواب: إن هذا الترتيب مناسب؛ لأن حقيقة التسبيح هو الثناء على الله بالمحامد، ونفي النقائص، وهذا أكمل وأعلى ما يكون.

ثم ثنَّى بالحمد، والحمد فيه معنى الشكر؛ ولذلك يجمع بينهما غالبًا، فهو حمد الله تعالى على ما أنعم به على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين من الخير والنصر.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

ثم ثلَّث بما يتعلق بحال العبد نفسه، وهو الاستغفار من الذنب والتقصير في العبادة والحمد والثناء، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩].

وهنا سؤال: ما معنى أمر النبي ﷺ بالاستغفار؟ وهل صدر منه ما يُوجِب الاستغفار حتى يؤمر بذلك؟!

من أهل العلم مَن قال: المقصود بهذا أمته ﷺ، أو أن يستغفر لأمته.

ومنهم مَن قال: أمره بالاستغفار من أجل أن تقتدي به أمته، فكأنه يقول: إذا كان الرسول ﷺ مأمورًا بالاستغفار فأنتم بذلك أولى!

ومنهم مَن قال: إن النبي ﷺ قد يقع منه ما ينبغي له الاستغفار منه من غير أن يكون معصية لله، لكن قد يقع منه اجتهاد على خلاف الأولى في بعض المسائل، أو يقع منه انشغال في بعض الأمور التي يكون الاستغفار منه لائقًا ومناسبًا ومحققًا لكمال نبوته ﷺ، كما في قصة الأعمى، وأسرى بدر، وزواج زينب، وتحريم شرب العسل على نفسه ونحوها.

وهي من جنس فعل المفضول، أو خلاف الأولى في الاجتهاد.

وأولى من ذلك أن يقال: إنه لا يستطيع أحدٌ أن يصل إلى أداء حق الله عليه، حتى ولا النبي ﷺ، وإنَّ كل ما يعمله كل أحد لله فهو قاصر عن أداء حق الله، ولذا تُتْبع الصلاة بالاستغفار[1]، ويُتبع الحج بالاستغفار: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ويُختم عمر النبي ﷺ ودعوته بالاستغفار: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣].

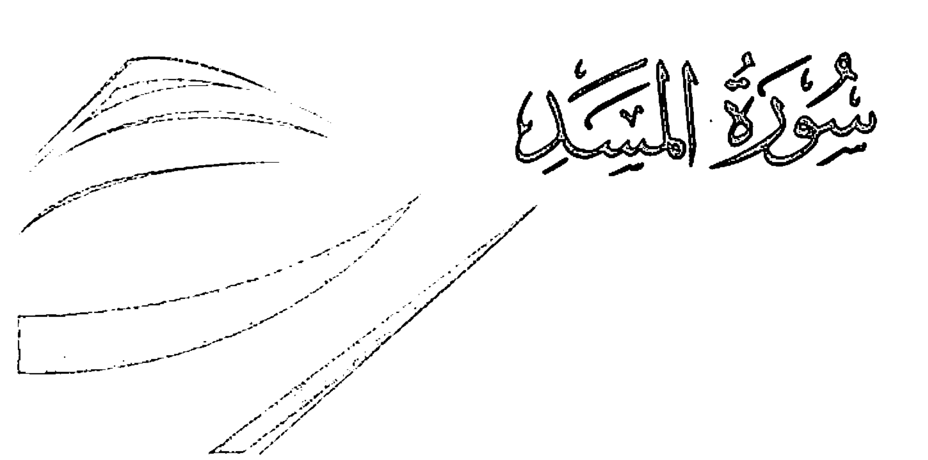
---

(١) كما في حديث ثوبانَ ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرفَ من صلاته استغفرَ ثلاثًا.. أخرجه مسلم (٥٩١).

فكل كثير يُؤدَّى لله فهو قليل في جنب حقه العظيم جل وعز، ولا يلزم أن يتوجَّه الاستغفار إلى ذنب أو خطأ بعينه، ولكن حال كل أحد مهما اجتهد قاصرة عن أداء ما يجب لله، فالنبي ﷺ ومَن دونه بحاجة إلى الاستغفار عن التقصير في أداء حق الباري عز وجل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لم يقل: (إنه كان غفارًا)، مع أنه أمر بالاستغفار؛ لأن هذا أنسب لختم السورة بقوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾، ومع ذلك هو أدل على أن المقصود ليس الاستغفار من ذنوب أو معاصٍ، وإنما هو من باب ختم العمل والحياة بالتذلل لله العظيم حين كان ﷺ في آخر أيام عمره المبارك.

○ ○ ○


سُورَةُ المَسَدِ

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

[المسد:١-٥].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة ﴿تَبَّتۡ﴾»، وهكذا هي في معظم المصاحف، وكتب التفسير، وبعضهم يزيد فيسميها: «سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾»[١].

٢ - «سورة المسد»، وهذا أيضًا موجود في بعض المصاحف وكتب التفسير[٢].

٣- «سورة أبي لهب»، وهذا ذكره جمع من المفسرين[٣].

* عدد آياتها: خمس آيات، بلا خلاف[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٥٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٧٩)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧١٤)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٣٥).

* وهي مكية باتفاق العلماء[1].

* سبب النزول:

جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ورهطَك منهم المخلَصين، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صَبَاحاه!». فقالوا: مَن هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب». فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟». قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

وهذا الحديث يرجِّح أن تكون السورة نزلت في السنة الرابعة من البعثة.

* ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]:

التباب هو: الخسران، والهلاك، والخيبة.

وهذه الجملة مقابلة لقول أبي لهب للنبي ﷺ: «تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا».

ويحتمل أن يكون هذا على سبيل الدعاء من الله عز وجل عليه، وهذا أولى، ومن المعروف في لغة العرب إذا تكلم الإنسان بكلام سوء أو فعل فِعل سوء قيل له ذلك.

فعبَّر بيديه؛ لأنه كان يرجم النبي ﷺ بهما، أو أنه كان يعتقد أن يده هي الغالبة،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠، ٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

وهي الطولى، فبيَّن سبحانه أن الأمر ليس كما يزعم، بل يده هي الفاجرة، وصفقته هي الخاسرة.

وقد يعبِّر باليد ويقصد المسمَّى كله، كما قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج:١٠]، وكما قال سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، أي: بما كسبوا، ولكن يعبِّر باليدين؛ لأن غالب ما يفعله الإنسان هو بيديه.

وأبو لهب هو: عبد العُزَّى بن عبد المطَّلب، ولم يذكر الله اسمه؛ لما فيه من النكارة والتعبيد لغير الله، و«العُزَّى» اسم صنم في الجاهلية يعبدونه كما بيَّنه تعالى في سورة النجم.

يقال: إن له ولدًا اسمه: لهب، وهذا الولد ليس له ذكر في التاريخ، وقد يكون مات متقدمًا.

وقيل: كان يسمى بهذا في الجاهلية لتوهج وجنتيه، وتورد وجهه، فقد كان أبيض أحمر وضيئًا جميلًا، فكانت كلمة أبي لهب كلمة مدح تثني على وضاءته وجماله.

وقيل: لُقِّب بذلك؛ لشدة غضبه وسرعة انفعاله[1].

وجاءت الكنية متوافقة مع الوعيد، فهو يكنى أبا لهب، والله تعالى توعده بأنه سوف يَصْلَى نارًا ذات لهب، وبهذا تحولت من مدح إلى ذم.

والعرب يطلقون الأب على الوالد، وعلى الملازم للشيء فيقولون: أبو هريرة وأبو العينين وأبو جعدة، وهو الذئب، وجعدة هي: السخلة، فليس هو أباها بالحنو عليها، لكن هو صاحبها الذي يتربص الغفلة منها، وهكذا يقال: «أبو مالك» للبحر، ويقال: «أبو مالك» للطائر الحزين، و«أبو أمامة» للفأر.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٣)، و«تفسير الواحدي» (٤/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٧).

وهو عم النبي ﷺ، وقد ورد أنه فرح بولادة النبي ﷺ، كما ذكر البخاري في حديث طويل من قول عروة بن الزُّبير: «فلما مات أبو لهب أُرِيَهُ بعض أهله بشرِّ خيبة، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدَكم غير أني سُقِيتُ في هذه بَعَتاقتي ثُويبةَ». وأشار إلى النَّقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وكانت ثُويبة هي التي بشَّرته بولادة النبي ﷺ، ففرح بميلاده وأعتقها لهذه البشرى[1].

وقد كان لأبي لهب ثلاثة أولاد، منهم عُتبة وعُتيبة، وقد تزوج عُتبة وعُتيبة -كما في بعض الروايات- بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، عقدا عليهما ولم يدخلا بهما، فلما جهر الرسول ﷺ بالدعوة وظاهرته قريش بالعداوة، كان أبو لهب يقول: دعوا الأمر لي؛ فإن لي عند محمد يدًا ومنَّة وأنا أكفل لكم أن ينتهي أمره، ويوقف هذه الدعوة.

ولم يستجب النبي ﷺ له؛ فعظم ذلك عليه واشتد عليه، حتى أصبح من أعظم الناس حربًا على النبي ﷺ.

ولذلك كان من فعله أن أمر ولديه بأن يطلقا بنتي الرسول ﷺ، وقال لهما: رأسي من رأسيكما ووجهي من وجهيكما حرام، إذا بقيت رقية وأم كلثوم في ذمتكما. فطلقا بنتي رسول الله ﷺ، كان هذا فعلًا رديئًا في منتهى الدناءة، والله سبحانه وتعالى أبدلهما خيرًا منهما وأبر، لكن كان هذا الأمر مع علاقة القرابة وعلاقة الأبوة أمرًا في غاية القبح.

وزيادة على ذلك لما رأى أبو لهب إلحاح النبي ﷺ في الجهر بالدعوة أصبح يعلن العداوة له وكانت العرب تنتظر إسلام هذا الحي من قريش، فيقولون: إذا أطاعه

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٨٧)، و«صحيح البخاري» (٥١٠١)، و«سنن البيهقي» (٧/ ١٦٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٠٧)، و«فتح الباري» (٩/ ١٤٠)، (١١/ ٤٣١).



قومه أو انتصر فهو نبي.

وقريش كانت تتربص أمر سادتها وزعمائها وأشياخها، وربما كان واسطة العقد في هؤلاء كلهم جميعًا أبو لهب، لاعتبارات عديدة، منها:

خاصية القرابة، فهو عم النبي ﷺ، ونحن نجد بالمقارنة أن أبا طالب كان عم النبي ﷺ مثل أبي لهب ولم يؤمن به، ولكنه كان حفيًّا به، وكان معروفًا بحمايته له، وكان يُجلسه إلى جنبه، ويدافع عنه أشد المدافعة، وله في الثناء على الرسول ﷺ قصيدة شهيرة، منها قوله:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ ... من خيرِ أديانِ البريةِ دينَا

لولا المشقةُ أو حذارُ مسبَّةٍ ... لوجدتني سمْحًا بذاكَ مبينا

وقوله:

فوالله! لولا أن أجيء بسُبَّةٍ ... تُجَرُّ على أشياخنا في المحافلِ

لكنَّا اتَّبعناه على كلِّ حالةٍ ... من الدهرِ حقًّا غير قولِ التهازلِ

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ ... ثِمالُ اليتامى عصمةً للأراملِ

يلوذُ بِهِ الهُلَّاكُ من آلِ هاشمٍ ... فهُمْ عندَه في خيرةٍ وفواضِلِ

في حين أن أبا لهب كان يلاحق النبي ﷺ في الأسواق، كعُكاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، وعند الكعبة، وعند البيت، والنبي ﷺ يقول للعرب: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله. تفلحوا**»[1]. يقول راوي القصة: رأيتُ وراءه رجلًا أحمر وضيئًا

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٥٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧٢٠)، و«مسند أحمد» (١٦٠٢٠، ١٦٠٢٧ - زوائد عبد الله)، و«سنن النسائي» (٥/ ٦١)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٥٩)، و«صحيح ابن حبان» (٦٥٦٢)، و«المستدرك» (١/ ١٥)، (٢/ ٦١١-٦١٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٠-٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٤٢)، و«الإصابة» (١٤/ ٤٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٩).

له غديرتين أحول -وهذه صفات أبي لهب- يمشي وراءه ويقول: لا تطيعوه، فإنه صابئ كذَّاب مجنون، وإنا لم نجد له طبًّا. يعني: لقد عرضناه على الرقاة وعلى الأطباء، ولكننا حتى الآن لم نجد له حلًّا ولا علاجًا، فكان الناس يقولون: مَن هذا؟ فيقال: عمه أبو لهب، فيقال: عمه أبصر به، ويتركون دعوة النبي ﷺ[1].

والكلمة التي قالها أبو لهب أول ما سمع الدعوة العلنية ظلت منهجًا له حتى مات على الكفر وحرب الدعوة بلا هوادة.

والله تعالى خاطب أنبياءه بألا يُكْرِهوا الناس على الإيمان، كما قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

هذا مع أن الدين حق من عند الله الذي خلق الخلق، ومن حقه أن يطيعوه فلا يعصوه، ومع ذلك بيَّن أن الدين لا يتحقق ولا يقبل إلا أن يكون بإيمان وعن قناعة.

فكيف بمَن يحاولون إكراه الناس على الباطل، والشرك، كما يفعل أبو لهب؟

وكيف بمَن يحاولون أن يمنعوا الدعوة من أن تنتشر، أو أن يتسامع الناس بها، وأن يمنعوا النبي ﷺ من حقه في القول والبلاغ؟! وكل ما كان يقوله ﷺ: **«أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**.

على أن عداوة أبي لهب لم تقتصر على سب النبي ﷺ وإيذائه بلسانه، بل كان يحرِّض على ذلك، ويؤجِّج العداوة ويسعى في قطع الرحم، وجند معه زوجته وولديه، وقد دعا النبي ﷺ على ولده عُتيبة؛ لأنه آذى النبي ﷺ فقال: **«اللهمَّ سَلِّط عليه كلبًا من كلابك»**. فخرج إلى الشام وافترسه الأسد.. في قصة معروفة، وقد ذكر

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٦٠٦٦).

هذا حسان بن ثابت في بعض شعره:

مَن يرجعُ العامَ إلى أهلِه   فما قتيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

أما عُتبة ومُعَتِّب فقد أسلما، وحسن إسلامهما، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين[1].

وفي الآية أن الإنسان لا تنفعه قرابته، ولا نسبه، وإنما ينفعه عمله الصالح، كما ذكر تعالى امرأة نوح وامرأة لوط وابن نوح وأبا لهب عبرة في هذا، فهو قرشي نَسِيب قريب، وهو من أهل النار، كما قيل:

لعمرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ سعيه   فلا تتركِ التقوى اتكالًا على النَّسبْ

لقد رفعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ   وقد وضعَ الشركُ النسيبَ أبا لهبْ

وفي التصريح باسمه معنى لطيف، فقد كان رأسًا في أذية النبي ﷺ، فلما نزلت السورة سقط السلاح الذي معه وتم تحييده، وصار إذا تكلم تهامس الناس وقالوا: هذا الذي نزل فيه ما نزل.

والذين يأتون من خارج مكة يسمعون أن الله أنزل فيه سورة تُتلى، فيصبح متَّهمًا، فإذا تكلم في حق النبي ﷺ؛ لا يلتفت إليه، وكأن عنده ثأرًا يريد أن يدركه.

ومع شدة قرابته كان النبي ﷺ يلقى منه الأذى، وكان يلزم الصمت ولا يتكلم؛ لما جبله عليه ربه من حُسن الخُلُق وسعة الحِلْم، ولما في قلبه من الرغبة في إسلام

(1) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٥٥)، (٨/ ١٧)، و«تاريخ الطبري» (١١/ ٥٢٩)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص ١٢٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٥)، و«سنن البيهقي» (٥/ ٢١١)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٤٣٠)، و«تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٣)، و«فتح الباري» (٤/ ٣٩)، و«الإصابة» (١١/ ٢٠٨)، والمصادر السابقة.

الناس ودخولهم في الدين، فكان يصبر عليهم، وهو لا يعرف مصيرهم ولا يدري ما يختم لهم به.

ولهذا كان الله هو الذي تولَّى الدفاع عن النبي ﷺ، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

والتسمية في القرآن لها جانبان:

الأول: الأصل أن الأمر بالخير والنهي عن الشر يكون على سبيل العموم، دون تسمية أو تحديد، وهذا ما كان عليه معظم ما نزل في القرآن الكريم، حتى إن أبا جهل نزلت فيه آيات كثيرة، ولكن لم يسمه الله سبحانه وتعالى فيها مع أنه فرعون هذه الأمة، وهكذا قال ﷺ: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**». ولم يسم؛ من باب الستر عليهم وإطفاء الشر وفتح باب التوبة والرجوع لمن أراد الله هدايته.

الثاني: بعض الحالات تحتاج إلى التصريح باسم إنسان ما، لمصلحة عامة؛ كما إذا كان رأسًا في الشر، وشديد النكاية والأذى للمؤمنين، وعظيم الصد عن سبيل الله، واضح المجاهرة والاستخفاف، مع ملاحظة أن الشخص المذكور هنا كافر، وينبغي أن يكون الكلام عن الكفار، فلو أن أحدًا تكلم عن رؤوس الكفر الذين يحملون راية الحرب على الإسلام لم يكن في ذلك من بأس، ونقول: هذا ينسجم مع الدرس الذي تلقنه سورة: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾، والمتكلم هو الله الذي علم أنه لن يؤمن هو ولا زوجه، ولكن كتب الله بعد ذلك الهداية لولديه عُتبة ومُعَتِّب أسلما بعد الفتح، وسُرَّ النبي ﷺ بإسلامهما سرورًا عظيمًا، واستقبلهما وهَشَّ لهما وبَشَّ، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين، ولما هرب الناس وانفضوا كانا من الذين ثبتوا، وعني النبي ﷺ بهما، وأعاد اللُّحمة الماضية، وتحولت العداوة العائلية القديمة إلى محبة ونصرة، وقد نهى النبي ﷺ عن إيذائهم حتى إنه لما قال رجل لدُرة بنت أبي لهب: أنت بنت عدو الله أبي

لهب. فجاءت إلى النبي ﷺ تشتكي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يُؤذَى مسلمٌ بكافر»[1]. أي: لا يعيَّر هؤلاء بأبيهم.

وكان من حكمة الناس أن يقولوا: «أَبْقِ للصلح موضعًا». ومصداق هذا في القرآن: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

والمرء ينتقل ويتغيَّر ويتطوَّر، ولا تكاد تراقب إنسانًا إلا وجدته في العشرين غيره في الأربعين غيره في الستين، خاصة إن كان صاحب ضمير حي واطلاع واسع وفكر نير، فمن البصيرة أَلَّا يحاصَر هؤلاء بالأحكام الحاسمة، وأَلَّا يعامَلوا وكأنهم أعداء الله ورسوله أو أولياء للكافرين.

وبعض الغيورين يتسرعون في محاصرة الخصوم بالتضييق أو التكفير، وربما صار الحكم أو التصنيف محاصرة لك لا لهم؛ لأنك لا تريد أن تنسخ هذا الحكم ولا أن تغيره، فلو بدا منهم تعديل أو تصحيح لم يقبل؛ لأنه لا يعدو أن يكون تمويهًا أو خداعًا في نظرك؛ لأنك لا تريد أن تخرج منه أو تغيره، ولو أخذ على أنه بداية التحول أو الخطوة الأولى لكان أخلق بروح الداعية الحريص.

﴿وَتَبَّ﴾ إن كان أول الآية دعاء عليه، فالمعنى أنه قد حصل وتحقق الذي دعا الله تعالى عليه وهو محقق، كما قال النابغة:

جزى ربَّه عني عديَّ بنَ حاتمٍ جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ

والدعاء من الله هو بمعنى الحكم، لكن فيه توبيخ وتقريع وتحقير له، والثاني خبر صريح بحال هذا الإنسان.

وفي الآية احتمال آخر أن أول الآية بيَّن أن التباب ليديه، وآخرها عمم التباب له كله.

---

(١) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (١١٢)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٣٢٤)، (٧٦٢٤)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

* ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد:٢]:

إما أن يكون المقصود بماله: ما ورثه عن آبائه وأجداده، وما كسب: ما كسبه بجهده وعرقه؛ لأنه كان يفتخر، ويقول: لو بُعِث الناس فسوف أفتدي نفسي بمالي وولدي، فرد الله تعالى عليه ذلك.

أو يكون المقصود بالكسب ما هو أوسع من المال؛ لأن الولد من الكسب، كما قال النبي ﷺ: **«إن أطيبَ ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»**[1]. ومن الكسب: الجاه والمجد والسُّمعة...

فأما المال، فقد صار للوارث، وأما الكسب فقد تبرؤوا منه ولم يكن يشرفهم أن يقولوا: نحن أولاد أبي لهب، وكانوا يتمنون أن يكون لهم اسم غير هذا الاسم، وأن يكون لأبيهم غير هذا المصير، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فلا ينفعه عمل ولا شفاعة ولا قرابة، حتى الذين أسلموا من أولاده لا ينفعه إيمانهم.

* ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣]:

وعبَّر بالسين؛ دلالة على القرب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨]. يعني: أن الوعد قريب، والدنيا قصيرة.

والصَّلْي هو الشَّي، أي: يُشوى بالنار؛ لأنه صاحب رسالة إلحاد وكفر، وصد عن الله وعن رسوله ﷺ، وفي أيام المواسم كان أكثرهم شرفًا وجاهًا وأطولهم نارًا، يَصْطَلِي حولها، وحوله الأكابر من زعماء قريش وزعماء العرب الذين يحضرون هذه المناسبات، وهو يخشى أن يتسرب إليهم شيء من دعوة النبي ﷺ، فيرميه بالكذب والجنون وغيرهما، فتوعَّده الله تعالى بنار الآخرة، ووصفها بـ: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ تناسبًا

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٦٨٥)، وأحمد (٢٤١٤٨)، وأبو داود (٣٥٢٨، ٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٧/ ٢٤٠)، وابن ماجه (٢١٣٧)، وابن حبان (٤٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٤٦).

مع كنيته التي كان يفتخر بها.

* ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]:

قد يكون هذا الرفع على الاستئناف.

وكنيتها: أم جَمِيل، واسمها: أَرْوَى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية، فهي امرأة شريفة في ذؤابة قريش نسبًا ورفعة ومكانة، وكانت من سيدات نساء قريش، ولكن علاقتها مع أبي لهب وانسجامها معه وتقبلها لما هو عليه جعلها أيضًا شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وسبب وصف امرأة أبي لهب بحَمَّالة الحطب على قول بعض المفسرين: إنها كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه في طريق النبي ﷺ حتى يعقر إذا مرَّ بالطريق، وهذا محتمل.

لكن روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه الله -وحسبك به في التفسير- أنه فسَّر هذه الآية تفسيرًا آخر فقال: كانت تمشي بالنميمة[1].

وعلى هذا فمعنى كونها حمالة الحطب: أنها كانت تمشي بالنميمة، وبالكلام الذي يوقد نيران العداوة والبغضاء بين الناس كما تُوقد النيران بالحطب.

وهكذا روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال: كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض.

وعن الحسن وعكرمة مثل ذلك[2].

والعرب تقول: فلان يحطب على فلان، أي يجمع أخطاءه وأغلاطه، وما يقال

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٠-٧٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٧).

فيه، وما ينسب إليه، ويزيد من كيسه، وكأن هذا أنسب مع حال المرأة؛ لأنها كانت شريفة، ومثلها لا تباشر المهنة بنفسها.

ولا يبعد أن تقوم بذلك لما تجده في نفسها، أو أن تكون فوَّضت بعض خدمها أن يقوموا بحمل الحطب وإلقائه في وجه النبي ﷺ، ونسب إليها على سبيل المجاز.

* ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥]:

بين «الـجِيد» و«العنق» فرق، فإن العرب لا يذكرون الجِيد غالبًا إلا إذا كان جميلًا طويلًا، فإذا أرادوا الثناء على المرأة قالوا: جِيدها كأنه إبريق فضة.

والغالب أنهم إذا ذكروا الجِيد ذكروا موضع القِلادة، كما قال امرؤ القيس:

وجيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليسَ بفاحشٍ ... إذا هـي نصَّـتـه ولا بمعـطَّلِ

وذكر موضع القلادة فقال:

ترائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[1]

ولذا بيَّن قلادتها هنا وأنها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فكأن هذه قلادتها في النار؛ والله تعالى أعلم؛ لأنه لم يكن يعرف أنه كان يوضع في عنقها في الدنيا حبل من مَسَد، والـمَسَد هو: اللِّيف الشديد الخشن، والعرب كانت تفتل الحبال فتلًا قويًّا من ليف أو من غيره.

ابتدأ الله تعالى السورة بذكر أبي لهب، وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، واختتمها بذكر امرأته، وأن في جيدها حبلًا من مسد، وفي هذا بيان بأن المعركة مع الباطل

---

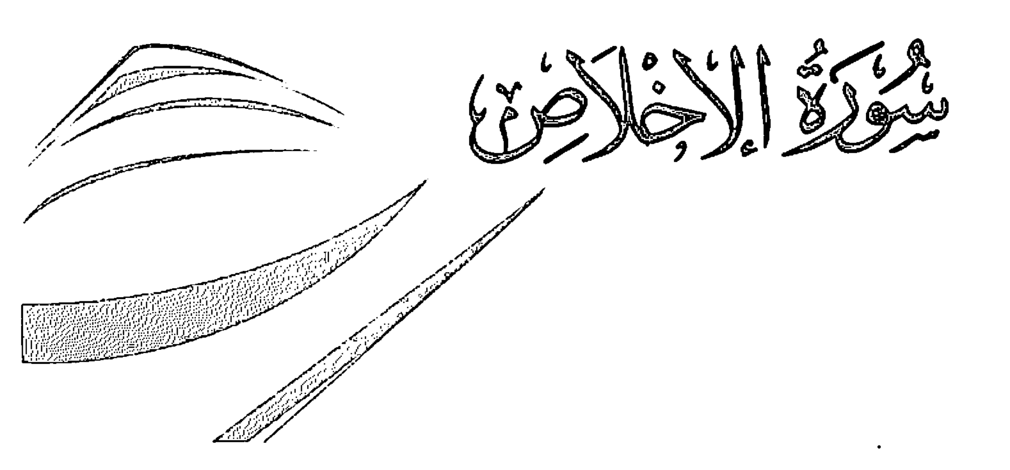
(١) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٤٠-٤٣).

والرئم: الظبي الأبيض، والنص: الرفع، والترائب: موضوع القلادة من الصدر، والسجنجل: المرآة بالرمية، وقيل: سبيكة الفضة. ينظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٨٨)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٨).

ليست معركة ذكورية أو أنثوية، فأعداء الإسلام هم من الرجال ومن النساء، والمؤمنون والدعاة والصالحون هم أيضًا من الرجال ومن النساء، والله يقول: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران:١٩٥]،والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ الإِخْلَاصِ



سورة الإخلاص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

* سورة الإخلاص: أعظم سور القرآن الكريم، وحين يَدْلِفُ المرء إلى تفسير هذه السورة العظيمة يحس بالهيبة، ويشعر أنه ينبغي عليه أن يتهيأ نفسيًّا بقدر من الصفاء واليقين للدخول إلى هذا الحرم القدسي الذي فيه مباحث تتعلق بذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته.

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء قد تكون دليلًا على عظمة المسمَّى، فقد ذكر الفخر الرازي لها عشرين اسمًا، وغالبها أوصاف.

١ - «سورة الإخلاص»، وسمِّيت به في معظم المصاحف وكتب التفسير[١]، ولعله أشهر أسمائها، وسمِّيت به لما تضمنته من التوحيد والثناء على الله.

ولأجل هذا سُمِّيت «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»: «سورة الإخلاص» أيضًا[٢]؛ إذ بين السورتين ارتباط عقدي، كما أنهما تُقرآن معًا في راتبة المغرب، وركعتي

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٠٨)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب فضائل القرآن (٧/ ٢٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«صحيح ابن حبان» (٣/ ٧٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٤٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الكافرون».

الطواف، وغيرها، و«سورة الكافرون» فيها البراءة من الشرك، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إثبات التوحيد، والمعلوم أن الإنسان بحاجة إلى التخلية قبل التحلية، أي: التخلية من الشرك قبل التحلية بحقائق الإيمان.

ولهذا يقول العلماء: إن للإخلاص ركنين هما: النفي، والإثبات، ويقول بعضهم: الحق ركنان: بنَّاء، وهدَّام، فركن الهدم: سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ التي هدمت الأوثان المعبودة من دون الله عز وجل، وركن البناء: سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾التي جاءت لبناء التوحيد لله الواحد القهار.

وبهذا يتبين ارتباط سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وسبب تسمية كل واحدة منهما: «سورة الإخلاص».

٢- «سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[١]، فقد جاء في أكثر من حديث عن النبي ﷺ أن «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾تعدل ثلث القرآن». وهو مروي عن جمع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم[٢].

٣- «سورة الله الواحد الصمد»، وهذا الاسم جاء في «صحيح البخاري»، وفي «السنن» أيضًا[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) مروي عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي مسعود، وأبي الدرداء، وغيرهم ﷺ.
ينظر: «مسند أحمد» (٩٥٣٥، ١١٣٠٦، ١٧١٠٩، ٢١٧٠٥)، و«صحيح البخاري» (٥٠١٥، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤)، و«صحيح مسلم» (٨١١، ٨١٢)، وغيرهم.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٥)، و«جامع الترمذي» (٢٨٩٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

٤- «سورة الصمد»، كما ذكره غير واحد من أهل الحديث والتفسير[١]؛ وذلك لأن هذا الاسم الشريف لم يذكر في القرآن في غير هذا الموضع.

* عدد آياتها: أربع آيات، وقيل: خمس آيات باعتبار قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية، وقوله:﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ آية[٢].

* توقيت النزول:

هي مكية عند جمهور العلماء، وهو الأقرب[٣]؛ لملاحظة قصر آياتها، كما هو الشأن في السور المكية غالبًا، وخلوصها في تقرير العقيدة، ومن المعلوم أن الآيات والسور المكية كانت تُعنى ببيان العقيدة، وغرسها في النفوس دون ربطها بالأحكام، أما السور المدنية فهي تشتمل على أحكام الحلال والحرام وأمور التشريع.

ولما ذُكر في سبب النزول، فقد جاء عند الترمذي وغيره، أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسُب لنا ربك. أي: ما نسبته؟! وما هو؟! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤].

وقد ورد أن أهل الكتاب جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه هذا السؤال، فأجابهم

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦٠)، و«سنن أبي داود»، كتاب الوتر (٢/ ٧٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٣٤٨)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٢٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) من حديث أبي بن كعب ﵁.

النبي ﷺ بالجواب نفسه، وهو هذه السورة[1].

ولا يمنع أن يكون الرسول ﷺ تلاها على اليهود الذين جاوروه بالمدينة حين سألوه عن الله عز وجل، وكانوا يسألون على سبيل التعنُّت.

وهكذا نصارى نجران جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه فأجابهم بنحو ذلك[2].

ولا ينافي هذا أن تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، وقد يكون بعض الرواة ظن أن وقت تلاوتها عليهم كان وقت نزولها.

* فضلها:

وأما فضل هذه السورة، فقد ذكر الدارقطني وغيره أنه لم يرد في فضل سورة من القرآن ما ورد في فضلها، سواء من حيث كثرة الروايات، أو من حيث صحتها[3].

ويكفي في فضلها: قول النبي ﷺ: «**إنها تعدل ثلث القرآن**». وجاء من طرق كثيرة -كما تقدم- وصنَّف فيه الإمام ابن تيمية: «جواب أهل العلم والإيمان بتفسير ما أخبر به رسول الرحمن بأن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن».

وأما معنى كونها تعدل ثلث القرآن: فقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك من جهة أن القرآن الكريم، إما أن يكون أحكامًا، أو يكون أخبارًا عن الماضي أو عن الغيب، أو يكون توحيدًا وعقائد، وهذه السورة تخلَّصت وتمحضت للكلام عن التوحيد والإيمان والعقائد، فصارت تعدل ثلث القرآن من حيث النظر إلى موضوع

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٥٣)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ١٥٦).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦).

السورة وتعلقها بقضية التوحيد.

وذهب آخرون في معنى ذلك إلى أن القرآن إما خبر أو إنشاء، فالإنشاء هو الأوامر والنواهي، والأخبار إما أخبار عن الله، وإما أخبار عن الخلق، وهذه السورة خبر عن الله عز وجل، فصارت ثلث القرآن بهذا الاعتبار.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى القول بأنها ثلث القرآن في الأجر، من غير أن يقصدوا المعنى، فمَن قرأ هذه السورة فله أجر مَن قرأ ثلث القرآن، مع أنها لا تعدل ثلث القرآن في الأحكام، ولو أن إنسانًا قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات في الصلاة، فلن تجزئه عن قراءة الفاتحة؛ إذ ليس المقصود أنها تعدله من كل وجه.

وذكر ابن عبد البر أن السكوت في هذه المسألة وما كان مثلها أفضل من الكلام فيها وأسلم[1].

ولعل مراده الإشارة إلى أن قول النبي ﷺ: «**تعدل ثلث القرآن**». أراد به الإشادة بفضلها، وعظمة معانيها، ودقائق أسرارها، وأن العبد لو أكثر من قراءتها وتدبرها لنفعه الله تعالى بها نفعًا عظيمًا، وهذا كافٍ دون الحاجة إلى الخوض في سر كونها تعدل ثلث القرآن.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]:

استفتحت السورة بـ ﴿قُلْ﴾، وقد خُوطب النبي ﷺ بهذا اللفظ في ثلاثمائة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، هذا أحدها.

ويتبين بالاستقراء أن عددًا غير قليل من هذه المواضع كان النبي ﷺ يتلقى فيها أسئلة الناس ثم يجيب الله تعالى عنها، ويُوجِّه الخطاب للنبي ﷺ فيقول: (قل هم..).

---

(١) ينظر: «نزهة الأبصار في مناقب الأنصار» (ص ٢٩٩-٣٠١)، و«الاستذكار» (٢/ ٥١١-٥١٢)، و«التمهيد» (١٩/ ٢٢٨-٢٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩-٦٢١).

وقد تكون هذه الإجابات لأسئلة المسلمين، كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقد تكون لأسئلة غير المسلمين طُرحت على سبيل الاستشكال، أو التعنُّت، أو الإحراج للنبي ﷺ، أو السخرية.

فمن ذلك: سؤال الوثنيين النبيَّ ﷺ أن ينسب لهم ربه؛ لأنهم كانوا يعرفون الأصنام التي يرونها بأعينهم عند الكعبة، وعند الصفا والمروة، وفي الطائف، وكانت مصنوعة من حجارة أو خشب على شكل إنسان، وأصبح المعنى العظيم للألوهية مرتبطًا عندهم بالأوثان التي تعوَّدوا على رؤيتها، فلما عرفوا اسم الله العظيم، كان فيه شيء من الدهشة عندهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليمامة، فلهذا جاء بعض المشركين إلى النبي ﷺ قائلين له: انسب إلهك: أحجر هو؟ أحديد هو؟ كما تقدم.

سألوا هذا على وفق ما كانوا يعتقدون، وما كان في عقولهم السخيفة في الجاهلية من تصور الآلهة بطريقة ساذجة مادية.

ومن ذلك: سؤال اليهود والنصارى النبيَّ ﷺ عن الله، وهي أسئلة خُبث، فكان سؤالهم على سبيل التحدِّي والإحراج، وأحيانًا كان على سبيل التظاهر بالعلم؛ لأن عندهم علم من الكتاب، فهم يفتخرون به.

ومن أسئلتهم: سؤالهم النبي ﷺ عن الولد، كيف ينزع إلى أبيه أو أمه، وسؤاله عن أول طعام يأكله أهل الجنة[1].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أن العقيدة تُتَلقَّى من عند الله، وأما البشر فإنهم

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٢٩، ٤٤٨٠).

لا يستطيعون أن يحيطوا به تعالى علمًا، ولا أن يعرفوا العقيدة لو لم يعلِّمهم ويعرِّفهم بها، والله سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وليست العقائد مما يُدرك بالعقل المجرد.

ولو نظرت إلى كلام أكبر الفلاسفة من أمثال سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإلى كلام أهل العلم في كل مجالات الحياة، لوجدت الكلام الذي يقولونه عن الله كلامًا مضطربًا ضعيفًا، لا يزرع هيبة في القلوب، ولا يجيب على أسئلة العقول، ولا يزيل شبهة، ومع ذلك فهو مقصور على الباحثين والمتخصِّصين، ولا يصل إلى العامة وسائر المكلَّفين.

فالنبوة هي التي تعرِّف الناس بربهم حق المعرفة بواسطة الوحي المنـزَّل من حكيم حميد.

ونحن نؤمن بأن الفطرة السليمة مثل الورقة البيضاء التي تقبل الكتابة عليها، وتستجيب لها، وتفرح بالهداية إذا وصلت إليها، وتنسجم معها.

ونؤمن بأن العقل السليم يتقبل المعاني الصحيحة، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «إن الأنبياء هم أكمل الناس كشفًا، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يُعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول».

ومعنى هذا أنه لا يوجد في الشريعة شيء يناقض العقل، ولكن يوجد في الشريعة أشياء تتحيَّر فيها العقول؛ لأنها أكبر من العقول[1]، كما قال القائل:

---

(١) ينظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤/ ٣٠٩، ٤٠٠)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١١٥-١١٦)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٦١)، (٨/ ٥٣٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٢١٤)، (٥/ ٢٩٦-٢٩٧)، (٧/ ٣٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٢)، (١١/ ٢٤٣-٢٤٤)، (١٧/ ٤٤٤).

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ نِ غدا الفِكْرُ كليلا
أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ ـبِ وبلبلتَ العقولا
كلما أَقْدَمَ فكري فيك شبرًا فرَّ ميلا
ناكصًا يخبط في عَمْـ ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا[1]

والإجابات الصحيحة عن الله تعالى وعن عالم الغيب لا يمكن الحصول عليها بواسطة العقل، ولا بواسطة الفطرة السليمة فقط، ولا بواسطة النظر البشري، بل عن طريق الوحي الذي تتقبله الفطرة ويصدِّقه العقل.

فإن قيل: إن الفطرة قد تهدي الإنسان إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ إذ إن من جملة الأدلة على وجود الله تعالى أدلة الفطرة!

فهذا صحيح، لكن لو أن إنسانًا اهتدى بفطرته إلى معرفة وجود الله تعالى، فإنه لن يهتدي إلى معرفة التفاصيل عن أسماء الله تعالى، وعن صفاته، وعما يجب له من ألوان العبادات.

وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى تشبُّع النبي ﷺ بهذه المعاني، واستغراقه فيها، فهي وإن كانت وحيًا من عند الله تبارك وتعالى بالقطع واليقين، إلا أنه نزل بها جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ فتشرَّبها، وتشبَّع بها، وآمن بها، واستغرق النبي ﷺ في هذه المعاني، فخالطت بشاشته.

فإذا قال النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنما يقولها كما أُمر، وظاهره وباطنه ﷺ متواطئان منسجمان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦] يعني: أن هناك تواطؤًا بين الظاهر والباطن، فالنبي ﷺ كان يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بلسانه وقلبه وعقله وتُذْعِن لذلك جوانحه وجوارحه.

---

(١) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (١٣/ ٥١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص ١٠-١٣).

كما أن المجيء بلفظة ﴿قُلْ﴾ إنما هو لأنها تتعلق بأعظم وأشرف علم ينبغي أن يتلقاه الناس، وهو العلم بالله تبارك وتعالى.

فإن قيل: في القرآن الكريم كثير من الآيات التي فيها تلقين العقيدة من غير أن يكون فيها ﴿قُلْ﴾؟!

فالجواب: أن لهذه السورة خصائص:

١- أنها كلها من أولها إلى آخرها في أمر التعريف بالله عز وجل، وهذا ليس لغيرها من السور.

٢- أن فيها معاني خاصة ليست في غيرها، كاسم الله «الصَّمَد»، وهو من الأسماء العظيمة والدعاء به له سر، كما أن كل اسم من أسماء الله الحسنى عظيم وله سر، وهو مأمور به، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

﴿هُوَ﴾ ضمير غائب من حيث اللفظ، والله تعالى حيٌّ لا يموت، حاضر لا يغيب، وهو ضمير الشأن، للإشادة بالخبر، والاهتمام به، ولفت نظر المستمع، فكأنه تعالى يقول: هذا الذي تسألون عنه، وتنكرونه، وتعبدون غيره، وتتطلعون إلى معرفته ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقد يكون في هذا إشارة إلى سؤالهم، فكأنه يقول: لما سألوا: مَن ربك؟ قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ هو: الاسم العلم الذي تُنسب إليه الأسماء الأخرى، كما في قوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الحشر:٢٢]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤].

وقيل هو: الاسم الأعظم، أو في ضمن الاسم الأعظم، وقد جاء في غير ما حديث أن رجلًا قال: «اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد». فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»[1].

وفي حديث آخر: أن رجلًا دعا، وقال: «اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ». فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى**»[2]. وما تقدم أصح منه.

فأجمع لفظ مشتمل على اسم الله الأعظم قد يكون: «الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام»[3].

﴿ٱللَّهُ﴾ هو: الاسم الذي لا يُسمَّى به غيره سبحانه، وكذلك «الرحمن»، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

وأما بقية الأسماء فقد يُسمَّى ببعضها غير الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ولكن إطلاقها على المخلوقين باعتبار، وعلى الخالق باعتبار آخر، فتُطلق على المخلوق بما يناسبه من

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٧٤)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بُريدة بن الحُصيب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٥٠، ١٣٠٨١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٤٣-٤٨).

ضعف، وعلى الله عز وجل بما يناسبه من الكمال والجلال والعظمة.

وقوله: ﴿أَحَـدٌ﴾ أي: واحد، وهذا من حيث أصل المعنى اللغوي، إلا أن كلمة ﴿أَحَـدٌ﴾ أبلغ من كلمة: «واحد»، وأدل على المقصود، وأكثر تمكنًا، ودلالة على نفي الشريك، وقد دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات مرة، فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد وهو يقول: اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم. فقال ﷺ: «**قد غفر له، قد غفر له، ثلاثًا**»(١). والحديث لا بأس بإسناده.

وأما «الفرد» فهي كلمة شائعة على ألسنة الناس، ولم يثبت في حديث صحيح أنه من أسماء الله تعالى(٢).

فـ«الأحد» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسم عظيم؛ ولذلك كان شعار المسلمين في معركة بدر: «أحد أحد»، وكان بلال بن رباح ﷺ حين عذَّبه المشركون بمكة في الرمضاء يصرخ ويقول: «أحد أحد، والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم من هذه الكلمة لقلتها»(٣). فهذا الاسم العظيم الدال على وحدانية الله تعالى وأحديته وارد في هذا الموضع، وهو من أسماء الله تعالى الحسنى.

وهذا تأسيس للعبودية في هذه السورة؛ ففيها بيان أن الله عز وجل «واحد أحد»،

---

(١) أخرجه أحمد» (١٨٩٧٤)، وأبو داود (٩٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (١/ ٢٦٧) من حديث مِحْجَن بن الأدرع ﷺ.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٤٤).

(٣) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٣٤)، و«طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣-٢١٤)، و«مسند أحمد» (٣٨٣٢)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٩١)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠٨٣)، و«المستدرك» (٣/ ٢٨٤)، و«تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٣٩-٤٤٤)، و«تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» لابن بلبان (ص ٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٨)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٥).

ولا معبود بحق معه، فكل ما يدعيه الناس من الآلهة والمعبودات فهو مرفوض، وهي مجرد أسماء، كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف:٤٠]، وقال الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، فالمعنى الأول في الأحدية: أن الله تعالى أحد في ذاته، ليس معه إله آخر؛ فلا خالق، ولا رازق، ولا مالك، ولا رب، ولا مدبر في الكون، إلا هو جل وعلا.

والله تعالى أحد في أسمائه وصفاته، فإن الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فله من الأسماء والصفات ما لا يُوصف بها غيره، وما جاز منها إطلاقه على بعض خلقه، فلله تعالى فيها من المعاني ما لا يحيط بكنهه أحد، ولا يدركه عقل، ولا يصل إليه ظن ولا وهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

ورؤية المؤمنين لربهم جل وعلا يوم القيامة كائنة كما أخبر الله عز وجل، أما ذاته عز وجل وعظمته ومجده وكبرياؤه وجلاله وجماله وكماله، فهو مما لا يحيط به خلقه، وهذا مَن أحديته في أسمائه وصفاته، فله من الأسماء والصفات والعظمة والكبرياء والمجد ما لا يُحاط به ولا يُدرك.

ومن أحديته عز وجل استئثاره بأسماء لا يعلمها أحد ولم يطَّلع عليها مخلوق، ولهذا كان من جملة دعاء النبي ﷺ: «**... أسألك بكل اسم هو لك؛ سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك...**» الحديث[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧، ٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعينَ اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة»[1]. فلا يعني أن الأسماء محصورة في هذا العدد، وإنما المراد: أن من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسمًا موجودة في القرآن والسنة، مَن أحصاها وفهمها وعمل بها دخل الجنة[2].

وأحديته تعالى تفرض أن كل ما يكون من تصورات وخيالات تعرض للسامع أو القارئ عن الله تعالى، فإنما هي من إلقاءات الشياطين، أو من خيالات النفس، ولا اعتبار لها ولا قيمة، ولا يضر الإنسان أن تقع هذه الصورة والأخيلة على صفة من النقص؛ لأن «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك»، ومما يُنسب إلى علي رضي الله عنه في هذا المعنى قوله:

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ والبحثُ عن سرِّ ذاتِ السرِّ إشراكُ[3]

أي: أنه يكفي الإنسان أن يدري ويدرك أنه عاجز عن الإحاطة بربه تبارك وتعالى.

ويكفي في هذا أن يتخيل الإنسان حجمه ومكانته بالنسبة إلى الأرض، والأرض بالنسبة إلى الكون، والبحار وأعماقها، وليتدبر قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩]؛ فإذا تدبر ذلك أدرك أنه مخلوق صغير لا يكاد يذكر، وأن عقله الذي يفكر به لو وضع في كأس لوسعه، فكيف يُريد أن يحيط بعلم الله تعالى؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٣٥-٤٢).

(٣) ينظر: «ديوان علي بن أبي طالب» (ص ١٤٢) منسوبًا إليه.
ونُسب أول هذا البيت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما في «روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار» (ص ٣٨٦)، و«الأشباه والنظائر» (٢/ ٢٠٣)، وقد ضعَّف ابن تيمية نسبته إليه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٦).

فالعقل يدل على الله سبحانه وتعالى، ويرشد إليه، ويفهم معنى وحيه، ولكن لا يحيط به تعالى.

وكما أنه تعالى واحد في ذاته وأسمائه وصفاته، فمن لوازم أحديته وجوب توحيده في إلاهيته، فلا يُعبد إلا الله عز وجل، وجميع صور العبادة القلبية والحسية البدنية الظاهرة والباطنة لا يجوز أن تصرف إلا لله تعالى، وهذا مخُّ ما جاء به الأنبياء والمرسلون، كما قال تعالى حكاية عنهم أنهم خاطبوا أقوامهم: ﴿لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وهذا هو المعنى النهائي لقول: «لا إله إلا الله».

وبعض الناس يظن أنه لا خلاف في توحيد الربوبية مع المشركين، والصواب: أنهم وإن أقروا في بعض الحالات نظريًّا بأن الله الخالق، إلا أنهم سرعان ما يجحدون وينكرون، وإقرارهم كان عَرِيًّا عن تحقيق مقتضى هذا التوحيد، وإلا فهو باب عظيم من أبواب التدبر والتأمل والخشوع والإخبات، وهو مدخل وأساس لما بعده.

فتوحيد الربوبية ليس معناه إقرار الإنسان بلسانه أن الله تعالى هو الرب الخالق فحسب، بل معناه: شعورك أن الخلق من عند الله، وأنك واحد من مخلوقاته، وأن الرزق من عند الله، فهو الذي يرزقك، وأن بيده تدبيرك وحاضرك ومستقبلك وكل شؤونك.

* ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]:

كُرر الاسم الظاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إعادته بالضمير ﴿هُوَ﴾ وكأن هذا على سبيل التلقين، كما يُلقن الطالب الذي يتعلم، فيذكر له أصل المسألة ثم يفرع عليها، فيقال -مثلًا-: الصلاة هي أقوال وأعمال، الصلاة أحد أركان الإسلام، الصلاة فيصل بين الإيمان والكفر والشرك، والصلاة صلة بين العبد وربه.

كما أن في تكرار الاسم الظاهر تأكيدًا لأهمية الخبر الآخر، المتعلق بالصمدية.

فجاءت الآية الأولى بالخبر عن الله تعالى أنه ﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد لا شريك له.

وجاءت الآية الثانية بخبر جديد يُراد له أن يكون بنفس قوة الخبر الأول، وهو أنه تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

وفي ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أقوال كثيرة، تعود إلى معنًى واحد، وهو: أن المقصود بـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها وتتوجه إليه[1].

وهذا قول جماعة من السلف والخلف، وهو قول أكثر أهل اللغة، بل قيل: إنه قول أهل اللغة كلهم، فقد قال أبو بكر بن الأنباري وغيره: «قال أهل اللغة أجمعون، لا اختلاف بينهم في ذلك: الصمد عند العرب: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم»[2].

وهذا الذي رجحه الخطَّابي وغيره، فـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو: السيد العظيم الذي يتوجه إليه الناس بمطالبهم وحاجاتهم وسؤالهم، أي: سؤال المسألة والدعاء والتضرع والشكوى[3].

وكلما تأملت هذا الاسم العظيم وجدت القلب يتزلزل منه ومن وقعه وثقله، حيث يدخل في معناه: أن الله تعالى غني غنًى مطلقًا عن الناس، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، وقال سبحانه:

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (١/ ٨٣-٨٤)، و«عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (ص ١١٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٢٤١-٢٤٥).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويصح ويمرض، ويرفع ويخفض، غني عن خلقه، ولا يحتاج إلى شيء؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، أي: هل من العقل والرشد والحكمة أن أتخذ وليًّا غير الله تعالى، والله سبحانه وتعالى هو فاطر السماوات والأرض، الخالق المالك الرب، الذي يطعم الناس ولا يُطعم؟!

وكونه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن حاجة الأكل والشرب داخل في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأنه ليس بحاجة إلى ذلك.

وذكر الطبري في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «السيدُ الذي قد كمُل في سُؤْدَدِه، والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه، والعظيمُ الذي قد عظُم في عظمته، والحليمُ الذي قد كمُل في حلمه، والغنيُّ الذي قد كمُل في غناه، والجبَّارُ الذي قد كمُل في جبروته، والعالـمُ الذي قد كمُل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسُّؤْدَد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له»[1].

ومَن فسَّر ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، فهذا من باب تفسير الاسم ببعض معانيه، وهو منقول عن الصحابة والتابعين وبعض أهل اللغة، إلا أنه داخل في المعنى الأول[2].

* كما أن صمديته تعالى وغناه المطلق يتضمن أنه عز وجل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٢).

يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣]، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الوالد، ويحتاج إلى الولد، ويحتاج إلى النظير والشبيه، وهذا أمر جبل الله تعالى عليه الناس، أما هو سبحانه فهو غني مطلقًا، ولذلك تضمن اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نفي الوالد والولد والشريك.

كيفية مجيء وصف الله عز وجل في القرآن والسنة:

والملاحظ في هاتين الآيتين أن الله عز وجل وصف نفسه بطريق السلب أي: نفي صفات النقص، والأصل في تقرير الاعتقاد في القرآن والسنة أن يأتي غالبًا بالإثبات المفصَّل المطوَّل لصفات الكمال، والنفي المجمل، فيفصِّل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى كقوله تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

أما النفي فيُؤتى به على سبيل الإجمال لا التفصيل؛ لأن الأشياء المذمومة السلبية التي يُراد نفيها كثيرة لا يأتي عليها الحصر، كما أنه ليس من مقام التعظيم والأدب مع الربوبية أن يُوصف الله تعالى بسلب النقائص عنه مجردة؛ إذ نفي النقائص على التفصيل لا رفعة فيه لـمَن نُفيت عنه؛ ولذا كانت طريقة القرآن هي الإثبات المفصل المستفيض المطول، والنفي المجمل الذي جاء لمناسبة.

ومن أمثلة النفي المفصل: ما جاء هنا في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣].

ومناسبة النفي -والله أعلم- هو لكون بعض الناس قد قال بهذا القول، فاحتاج الأمر إلى نفيه، كقول اليهود: إن الله تعالى خلق الخلق فتعب فاستراح يوم السبت، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

ولما ادعى فريق من الناس أن لله تعالى ولدًا، كقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وكزعم العرب أن الملائكة بنات الله، قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردًّا على هؤلاء جميعًا.

والفرق بين قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وبين قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١] هو: أن قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أنه لم يلد.

الثاني: أنه لم يتخذ ولدًا ولو لم يكن على سبيل الولادة، ولكن على سبيل نسبته إليه سبحانه وتعالى، فنفى الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الأمرين معًا.

وقدَّم الله تعالى نفي الولد على الوالد، مع أن الذي يجيء أولًا هو الأب؛ لأن الولد هو المدعى لله تعالى، وليس هناك أحد ادعى أن لله تعالى والدًا، فكان المناسب أن يبدأ بنفي ما يدعيه الجاهلون من اليهود والنصارى ومشركي العرب ومَن على شاكلتهم، فقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ .

فإن قيل: إذا لم يثبت عن أحد ادعاء الوالد لله عز وجل، فما السر في نفيه هنا، وكيف ينفي ما ليس له وجودٌ أصلًا؟

فيجاب عن ذلك بأجوبة:

١- يحتمل أن يكون ذلك جوابًا لقريش حين قالوا للنبي ﷺ: أُنسب لنا ربك! لأنهم ربما سألوا هذا على سبيل التعنت، فقال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

٢- أنه من باب المقابلة؛ لأن النسب له عمودان: الولد والوالد، فلما نفى الولد ناسب نفي العمود الآخر وهو الوالد.

٣- الإشارة إلى أنه عز وجل ليس قبله شيء، فقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾

يتضمن معنى: أن الله تعالى أول ليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وكما قال النبي ﷺ: **«أنت الأول فليس قبلك شيء»**[1].

٤- أنه في مقام الحجة، فلما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ونفى ما كانوا يدعون قال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾. وفي هذا إقامة للحجة عليهم، ونفي وجود الولد، وكأن المعنى: أن الذي يكون له ولد يكون له والد، فلما نفى الله تعالى الولد نفى الوالد، وبيّن ما في دعواهم الباطلة من الخطأ العظيم، والجهل الفاضح.

* ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]:

وهذا ختام لهذه السورة العظيمة، وإشادة بمعناها العظيم.

وخاتمة ما يقال في هذه السورة العظيمة إن رحاها تدور حول ثلاثة معانٍ:

١- أن الله تعالى أحد في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته.

٢- أنه الغني السيد الكريم المتفضّل المُعطي لعباده.

٣- أن الله تعالى ليس له كفؤ في هذا؛ لا شريك ولا مثيل، ولا نِدَّ ولا نظير.

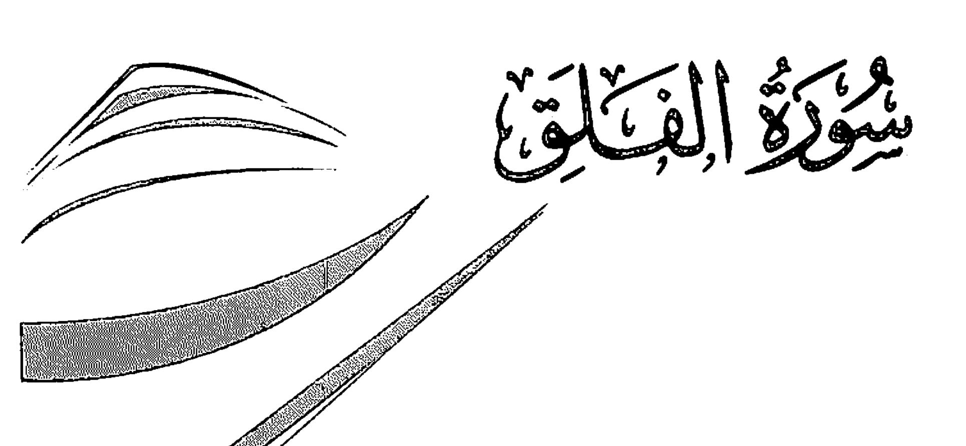
فتضمنت السورة أصل التوحيد وفصله وبدايته ونهايته، وبهذا يتبين أن هذه السورة مع «سورة الكافرون» تتضمنان لباب التوحيد والإيمان بالله تعالى، والبراءة من الشرك.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

سورة الفلق



سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

[الفلق: ١-٥].

* تسمية السورة:

لها أسماء عديدة، من أشهرها:

١- «سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾». وبهذا سماها النبي ﷺ في عدد من الأحاديث:

منها: حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «ألم تَرَ آياتٍ أُنزلت الليلةَ، لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

وعنه رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال له: «لن تقرأ شيئًا أبلغَ عند الله من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[2].

ولذلك سمَّاها كثير من المحدِّثين والأئمة في كتبهم: «سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾»[3].

٢- «سورة الفلق»، وهكذا هي في المصاحف، وكتب التفسير[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٤١، ١٧٤٥٥)، والنسائي (٢/ ١٥٨)، وابن حبان (٧٩٥). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير، (٦/ ١٨١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

وتسمَّى مع سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ بـ: «المعوِّذتين». ورد ذلك في بعض طرق حديث عقبة ﷺ المتقدِّم، وعلى لسان بعض الصحابة ﷺ[1]؛ لأن المسلم يتعوَّذ بهما.

* عدد آياتها: خمس آيات، بلا خلاف[2].

* توقيت النزول وسببه:

الجمهور على أنها نزلت في مكة، وهو الأصح عن ابن عباس ﷺ، كما رواه كُريب وغيره، وهو قول الحسن وعطاء.

وقال قتادة وجماعة، وهو رواية عن ابن عباس ﷺ: إنها نزلت بالمدينة[3].

* وأما سبب نزول السورة، فقيل: إنها نزلت جوابًا لسؤال قريش للنبي ﷺ[4].

وقيل: إنها نزلت بسبب سحر لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي لرسول الله ﷺ، كما جاء عن عائشة ﷺ، أن لَبِيد بن الأَعْصم سحر النبي ﷺ في مُشْط ومُشَاطة - والـمُشَاطة هي: الشعر المجتمع، فوضعها في جُفِّ طَلْعةِ ذكرٍ، أي: في الغلاف الذي يكون فيه طلع النخل - ثم وضعها في بئر بالمدينة يقال له: بئر ذَرْوَانَ، أو: ذي أَرْوان، وتأثر النبي ﷺ بهذا السحر تأثرًا ظاهرًا في أشياء معينة كان يلاحظها أزواجه وأهل بيته القريبون منه،

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٥٤٣، ١٠٩٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٩)، و«مسند أحمد» (١٧٢٩٩، ١٧٣٢٢)، و«صحيح البخاري» (٤٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٨١٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٩٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٨)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

دون أن يؤثر ذلك في أمر آخر وراء هذا، ولم يلاحظ الناس عليه ﷺ من هذا شيئًا، ثم نزل جبريل عليه السلام ونزل معه ملكان، فوقف أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما به؟ قال: مطبوب. ثم قرأ عليه هذه السورة، فشُفِي النبي ﷺ، ثم بعث عليًّا وأمره أن يردم هذا البئر والقليب الذي وجد فيه السِّحر، فقالت عائشة رضي الله عنها: أفلا أحرقته؟ يعني: إخراج السحر وإحراقه، فقال: **«لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهتُ أن أُثيرَ على الناس شرًّا»**(١).

وهذا يحتمل أن يكون سببًا لنزول السورة، وعليه تكون السورة مدنية، ويحتمل أَلَّا يكون هو سبب نزولها، وإنما تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، كما هو في المصاحف وغيرها، وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا، فنزل المَلَكَ بقراءتها على النبي ﷺ لبيان أنها رقية(٢).

* ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]:

الاستفتاح بـ ﴿قُلْ﴾ سأل عنه أُبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه النبيَّ ﷺ - كما في «صحيح البخاري»- فقال النبيُّ ﷺ: **«قيل لي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقلتُ»**(٣). فبيَّن ﷺ أنه أُمِرَ بأن يقول: ﴿قُلْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ خطاب من الله للنبي ﷺ، وهو أيضًا خطاب من الله عز وجل لخلقه أن يقولوا هذا، فبلَّغه النبيُّ ﷺ كما أُنزل عليه؛ لأنه وحي لا يتصرف فيه؛ ولأنها تعويذة من الله تعالى للنبي ﷺ وللمسلمين عامة، فإثبات لفظ ﴿قُلْ﴾ واجب لابد منه من أجل صحة المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٧٦).

والعَوْذ هو: الاعتصام والالتجاء إلى الله عز وجل، وقد أُمر النبيُّ ﷺ بالاستعاذة به تعالى في مواضع عديدة في القرآن بحسب المقام، كقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل:٩٨]، وكقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨].

فإن قيل: ما سر التفريق في الاستعاذة بين ذكر لفظ الجلالة «الله» عند استفتاح القرآن الكريم وذكر «الرب» في غيرها من المواضع؟

فالجواب: أن الله هو الرب سبحانه، لكن اختيار لفظ الجلالة «الله» له أسرار ومعانٍ فيما يتعلق بافتتاح القرآن الكريم، منها:

١- أن اسم «الله» هو الاسم العظيم، وهو الاسم العلم، وهو اسم الجلالة، فالبداءة به فيما يتعلق بقراءة كلام الله تعالى هو المناسب.

٢- أن الاستعاذة به أخصر وأقصر من قول: «أعوذ برب الفلق»، أو «أعوذ برب الناس»، أو «أعوذ بربي»، أو ما أشبه ذلك، وأسهل تناولًا وتداولًا في اللسان، فإن لفظ «الله» من أخف الألفاظ على اللسان مع عظمة معناه، وكل حروفه سهلة تنساق على اللسان؛ ولذا يقرأها الصبي الصغير، ويقرأها العجمي، ولا يقع فيها شيء كاللُّثْغة في راء «الرب»، ونحو ذلك، فلحاجة الصغير والكبير إليها عند القراءة كان لفظ الجلالة مما يستعاذ به عند قراءة القرآن الكريم.

٣- قراءة القرآن عبادة لله عز وجل، والعبادة يتناسب معها لفظ الجلالة «الله»، أي: المألوه المعبود.

وأما الاستعاذة من ضرر المخلوقات وشرها، فالمناسبة فيها أن تكون باسم «الرب» الذي هو رب المخلوقات وخالقها، إذ معنى «الرب»: الخالق المالك المدبِّر المتصرِّف، فذكر لفظ الربوبية هنا أولى من ذكر لفظ الإلهية، فالإلهية تذكر في مقام

العبادة، أما الربوبية فتذكر في مقام الاستعاذة من الخلق ومن شرهم.

والفلق هو: الصباح أو الإصباح، وبهذا قال كثير من المفسرين، ويشهد لهذا قول الله عز وجل: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام:٩٦]. وقول عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**كان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح**»[1]. فعلى هذا يكون المقصود أن يستعيذ برب الصبح إذا انفلق وانفتح.

وهذا معنى جيد، والأجود منه أن يقال: إن المقصود بـ«الفلق»: كل شيء مما يمكن أن ينفلق وينشق وينفتح فيظهر ما بداخله، فيدخل فيه الصباح وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام:٩٥]، وهكذا الرحم إذا انفتق عن المولود، والعدم إذا انفتق عن الموجود، فالاستعاذة على هذا المعنى أوسع من مجرد الاستعاذة برب الإصباح أو رب النهار؛ إذ هي استعاذة برب المخلوقات كلها؛ كما ذكر بعض أهل اللغة، كالزَّجَّاج وغيره أن الخلق يكاد أن يكون كله عبارة عن فلق[2].

وعبَّر بـ﴿ٱلْفَلَقِ ﴾ دون لفظ (الخلق) للتنويع بين الألفاظ وتجنب تكرارها، حيث ذكر (الخلق) في الآية التي بعدها.

وكذلك في ﴿ٱلْفَلَقِ ﴾ حركة وانتقال، كخروج الأجنة من الأرحام، وخروج النبات من الأرض، وخروج الشمس من أفقها، وفي هذا من البشارة والإيذان بالفتح والفرج من عند الله عز وجل.

إذًا: هذا المعنى -والله أعلم- مقصود، وهو معنًى عظيم؛ لأن الفَلْق الذي يتحقق في كل مخلوق جديد يطرق ناموس هذا الكون بإذن ربه تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣٧٩).

فمَن نزل به خوف أو ضيق أو همٌّ أو كرب، فليتذكر «رب الفَلَق» الذي يفلق الإصباح، ويفلق الحب والنوى، والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والذي كل يوم هو في شأن فيخلق ويرزق ويحيي ويميت.

فكلمة «الفلق» توحي بهذا المعنى العظيم الذي يحيي تفاؤلًا في القلب.

و«رب الفلق» يشفي المريض من مرضه بعدما أيس من العلاج.

و«رب الفلق» يأتي بالغنى واليسار والخير والسعة بعدما ضاقت على الإنسان أسباب الدنيا وأسباب العيش.

وهكذا على المؤمن أن يظل مستحضرًا هذا المعنى العظيم؛ لأنه من جملة ما كان يستعيذ به النبي ﷺ.

وهذه السورة هي استعاذة بالله وبكلماته، وكلمات الله نوعان:

١- كلمات قدرية.

٢- كلمات شرعية.

والكلمات القدرية هي الكلمات التي بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويرفع ويخفض.

والكلمات الشرعية هي الأمر والنهي، أي: ما ينزل على الرسل والأنبياء من الكتب والأوامر والنواهي والبلاغ.

والكلمات الشرعية كلها صدق وحق وعدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام:١١٥]، فليس فيها إلا الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فهي خير محض.

وأما الكلمة القدرية، فهي خير في ذاتها، والشر معها يتعلق بالمخلوقات لا بها.

* ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:٢]:

﴿مَا﴾ موصولة، أي: من شر الذي خلق.

والعموم في الآية ليس مقصودًا، وإنما الاستعاذة هنا من شر المخلوقات التي فيها شر؛ لأن من المخلوقات ما لا شر فيه، كالملائكة والرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكالجنة، فلا يستعيذ الإنسان منها، ولذلك لما تزوج النبيُّ ﷺ الـجَوْنية ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها النبيُّ ﷺ: «**قد عُذْتِ بمَعَاذٍ**»[1].

كما جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ كلِّ دابة أنت آخذ بناصيتها**»[2].

وكان ﷺ يقول عن الرِّيح: «**اللهمَّ إني أسألك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلت به**»[3].

فيدخل في الآية الاستعاذة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وما اختلف به الليل والنهار، وشر الحيوانات، والهوام، والسباع، والجن، والإنس، والمخلوقات الضارة مما يُعلم وما لا يُعلم، بل يدخل فيها الاستعاذة من شر المستعيذ نفسه، فإن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشركه**»[4]. وعلَّمنا أن نقول: «**نعوذ بك من شرور أنفسنا**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الطيالسي (٩، ٢٧٠٥)، وأحمد (٦٣)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٥) أخرجه الطيالسي (٣٣٦)، وأحمد (٣٧٢٠)، وأبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (٣/ ١٠٤)، والحاكم (٣/ ٨٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وبين الآيتين الأولى والثانية تناسب في العموم، فهي استعاذة عامة من شر عام.

ونسبة الشر إلى الخلق في قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾. إشارة إلى أن الشر ليس في فعل ربنا تبارك وتعالى، وقد كان ﷺ يقول: «**والشر ليس إليك**»[1]. فالشر ليس إلى الله عز وجل، ولو أن الشر إليه لكان له أسماء غير حسنى، والله تعالى ليس له إلا الأسماء الحسنى؛ ففعله ذاته ليس فيه شر، وإنما الشر في مخلوقاته.

* ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق:٣]:

و«الغاسق» هو: الليل عند جماهير المفسرين وأهل اللغة[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ ﴾ [الإسراء:٧٨].

وقيل: المقصود بغسق الليل: منتصف الليل.

ولهذا قال الفقهاء: إن وقت العشاء الآخرة يمتد إلى نصف الليل، واستدلوا بهذه الآية[3].

فغسق الليل: نصفه؛ حيث يشتد ظلامه ويسوَد ويصبح أشد وأظلم مما كان، وهذا وقت المكر والكيد.

وفي تكرير لفظ «الشر» إشارة إلى أن الغاسق الذي هو الليل ليس شرًّا محضًا، وإنما فيه الخير وفيه الشر، وهو وقت يمكن أن يكون سببًا للقربى والزلفى إلى الله

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«تفسير التستري» (ص ٢١٠)، و«غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٢/ ١٩٤)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٧١٥)، و«لسان العرب» (غ س ق) (١/ ٨٠١)، و«تاج العروس» (غ س ق) (٢٦/ ٢٥١).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٥٩)، و«المجموع» (٣/ ٣٩)، و«الشرح الممتع» (٢/ ١١٥)، و«تفسير آيات الأحكام» للسايس (ص ٤٨٧)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ٧٢).

تعالى، ويمكن أن يكون سببًا في الإضرار بالعباد وبالنفس، فيستفاد من شره وينتفع بخيره.

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ يقرب أن يكون معناه: إذا دخل ظلامه وتسلل وغطى كل شيء.

وجاء في بعض الروايات: أن «الغاسق إذا وقب» هو القمر، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي، ثم أشار إلى القمر فقال: يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[1]. وسند الحديث ليس به بأس إن شاء الله تعالى.

والجمع بينهما: أن القمر علامة الليل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مبصرة﴾ [الإسراء:١٢].

فحديث عائشة رضي الله عنها لا يعارض القول بأن الغاسق إذا وقب هو الليل، فالقمر من آياته، وهو جزء من المدلول العام لهذه الآية.

وهدوء الليل وسكينته ولباسه وسكنه هو في وقت الظلام، فإذا جاء الظلام وذهب النور نشطت شياطين الإنس والجن وأهل السوء، وأهل الريب والشر والفساد.

فهو لفئات من الأشرار فرصة للمكر والحيلة والغدر والشر، وأكثر ما تقع جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل والمؤامرات والغدر والفواحش وغيرها في الليل، وأكثر ما يقع السكر والعُهر وتجمع أرباب الفسوق والغفلة والشهوات هو في الليل، فلذلك استعاذ من شره.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٥٨٩)، وأحمد (٢٤٣٢٣، ٢٥٨٠٢)، والترمذي (٣٣٦٦)، والحاكم (٢/ ٥٤٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٧٢).

ومع ذلك فإن الليل هو محل العبادة، وأنس الذاكرين بربهم، ومحل السكن والبحث والعلم والسمر المباح، ولهذا رُوي في الحديث: «**لا سَمَر إلا لمُصلٍّ أو مسافرٍ**»[1]. فالمسافر في الليل يقطع طريقه بهدوء، كما قال ﷺ: «**عليكم بالدُّلْجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل**»[2].

وقيام المصلِّي فيه مما أثنى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١-٢].

ويلاحظ هنا التناسب الشديد بين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وبين **الآيتين اللتين بعده، فمعناه العام -الذي هو الفتح والشق-** يناسب الاستعاذة من شر ما خلق، أي: من شر كل شيء، ومعناه الخاص -الذي هو الإصباح- يناسب الاستعاذة من شر الليل الغاسق إذا وقب، فكأنه قال: أعوذ برب النهار والنور من الظلام والليل.

وفي الآيات إشارة إلى التفاؤل بغلبة الخير على الشر، فقد نُسب الفلق إلى الله عز وجل، في حين نُسب الشر إلى الخلق، والغالب هو الخالق سبحانه وتعالى.

* ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤]:

النفث هو: النفخ مع شيء من الريق. والنفاثات في العقد فيها أقوال:

١ - قد يراد بها النفوس الشريرة التي تنفث وتتعاطى حرفة السحر، فتقوم بعقد

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٩١٧، ٤٢٤٤)، ومحمد بن المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٠٩)، و«قيام الليل» (١/ ١١٥ - مختصره للمقريزي)، والبيهقي (١/ ٤٥٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٩١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٥) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه أبو داود (٢٥٧١)، وأبو يعلى (١٥٩)، وابن خزيمة (٢٥٥٥)، والحاكم (١/ ٤٤٥)، (٢/ ١١٤) من حديث أنس ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨١).

بعض الحبال والنفث عليها بتعاويذ شيطانية ورقًى شركية بقصد الإضرار بشخص معين، أو التأثير عليه.

ونسب الله تعالى الشر إلى النفاثات لا إلى النفث؛ لأن النفث نفسه لا يضر، وإنما التي تضر هي النفوس التي تقوم بهذا النفث، وبهذا الكيد والمكر، ولذلك سميت بالنفاثات في العقد، وإن كانت تمارس أعمالًا أخرى في إلحاق الضرر بالشخص.

٢- أنها الجماعات، سواء كانوا رجالًا أم نساءً، ففي بعض البلدان تعقد مؤتمرات جماعية للسَّحَرة، وفي اجتماعهم من الضرر والشر ما ليس في عمل الفرد الواحد، فيكون ذلك أبلغ في الشر وإلحاق الأذى.

وأما القائلون بتخصيص النفاثات في العقد بالنساء دون الرجال فيحتاجون إلى بيان وجه تخصيص النساء دون الرجال في موضوع السحر؛ مع أنه قد يقع من هؤلاء وهؤلاء.

وقال بعضهم: إن المقصود به بنات لَبِيد بن الأَعْصم؛ لأنهن قُمن بسحر النبي ﷺ.

وقال بعضهم: إن السحر عند النساء أكثر منه عند الرجال، وهذا ليس ببعيد؛ لأن كثيرًا من النساء يلجأن للسحر حتى تؤثِّر على زوجها وتعطِفُه إليها، أو تصرفه عن امرأة أخرى، أو تكيد بالسحر لغيرها، أو تستميل قلب من عشقته إليها، ثم تتعاطاه بعد ذلك.

٣- وذكر أبو مسلم الأصفهاني أن النفاثات في العقد: النساء اللاتي يؤثرن في عزائم الرجال، واعتبر أن العُقد هي العزيمة، أي: عزيمة الرجل على أمر، فقد تؤثر عليه المرأة، فتحدث له التراجع عما أراد بسبب تأثيرها وكيدها ونفثها وحلو حديثها، وهذا القول وإن كان ظاهره لا بأس به إلا أنه لا يساعده السياق والرواية.

٤- وقيل المشّاءات بالنميمة، وهو قول الشيخ محمد عبده ومن تابعه وأخذ عنه، ولم أجده منسوبًا إلى أحد من أئمة السلف وعلمائهم، إلا أن يشبه قول أبي مسلم الأصبهاني.

والمختار: أن المقصود بالنفاثات في العقد: السَّواحر من النساء، أو السَّحَرة من الرجال والنساء على سبيل العموم، أو النفوس الشريرة التي تتعاطى السحر وتؤذي به عباد الله تعالى.

و(ال) في ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ جنسية وهذا من باب التنويع في السياق؛ فقد نكَّر ما قبلها فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ثم أدخل (ال) على النفاثات، ثم عاد إلى النكير فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥] وإلا فالكل نكرة.

ويحتمل أن التعريف في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ **لبيان أن فعل النفاثات لا يكون إلا شرًّا**، فيستعاذ منهن استعاذة مطلقة، بخلاف شر الغاسق إذا وقب؛ إذ فيه الخير والشر، والحاسد إذا حسد قد يضر حسده المحسود وقد لا يضره.

* ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]:

«الحسد»: ما يقع في قلب الإنسان بسبب النعمة التي أنعم الله تعالى بها على أحد من الخلق.

وإنما أمر تعالى بالاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد؛ لأنه ما من نفس إلا وفيها شيء من الحسد، كما قال بعض السلف رحمهم الله تعالى: «ما خلا جسدٌ من حسد، ولكن اللَّئيم يبديه، والكريم يخفيه»[1].

فالحسد باعتباره شعورًا يقع في القلب ليس بغريب، بل يقل أو يندر أن يسلم

---

(١) ينظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص ٢١)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«المقاصد الحسنة» (٩٥٥)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٢١٩).

منه أحد، كما ذكر ابن رجب الحنبلي وغيره[1]، خاصة بين الأقران والمشتركين في عمل أو فن واحد.

فالحاسد إذا حسد يستعاذ منه، أما الحاسد إذا كتم واستعاذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولم يؤذ أحدًا، فلا يدخل في هذا؛ لأن هذا من طبع بني آدم.

وحسد الحاسد تقع منه العين، و«**العين حق**»، كما قال النبي ﷺ: «**ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ**»[2]. وورد: «**إن العين تُدْخِلُ الرجلَ القبرَ، وتدخل الجملَ القِدْرَ**»[3].

وقال ﷺ في رقية المريض: «**باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفس أو عين حاسد، الله يشفيك**»[4]. فإذا رأى الإنسان شيئًا فاستحسنه، ووقع في قلبه نوع من الحسد وتمنِّي زوال هذا الأمر عن هذا الإنسان، فإنه قد يضره.

والشريعة جاءت ببيان حصول هذا الأمر، وأما كيفية حصوله فهذا إلى الله سبحانه، ولا داعي لأن نقحم هذا الكلام في تفسير كلام الله عز وجل.

والحسد قد يقع من الأخيار، فقد سُئل الحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: «لا أبا لك! أنسيت إخوة يوسف؟!»[5]. أي: أنهم حسدوه وكادوا له، وعملوا ما عملوا وهم أنبياء وأبناء أنبياء.

---

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٢٤٩).

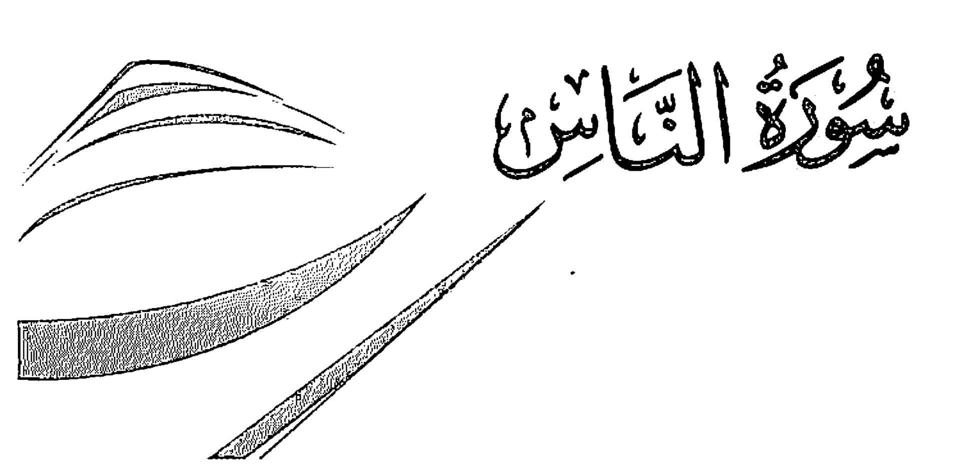
(٤) أخرجه مسلم» (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ١٢)، و«نثر الدر في المحاضرات» (٥/ ١٢٨)، و«التمهيد» (٦/ ١٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٦).

والحسد كثيرًا ما يؤثِّر في علاقة الناس بعضهم ببعض، وغالبًا ما يكون بين الأقران المتقاربين، بل قد يقع بين المخلصين المنطلقين في طريق واحد من الخير.

فالواجب أن يستعيذ الإنسان منه وأن يجاهد نفسه في ذلك، وألَّا يستجيب لمثل هذه النوازع، ومن اجتهد وحاول وجاهد نفسه، فإنه يستطيع أن يتخلص من مثل هذه المعاني، وعليه أن يدعو لـمَن يشعر أنه حسده، وأن يكثر من الدعاء له في سجوده، وأن يثني عليه خيرًا بلسانه في المجالس، وأن يعينه بما يستطيع حتى يقضي على هذه المعاني، ويرغم أنف الشيطان والنفس الأمارة بالسوء. والله أعلم.

○ ○ ○


سُورَةُ النَّاسِ

سورة الناس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس:١-٦].

* تسمية السورة:

هذه السورة أسماء عديدة:

١- أشهرها: «سورة الناس»[1].

٢- وسماها النبي ﷺ: «سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[2].

٣- وبعضهم يسمِّيها: «سورة المُعوِّذة»[3].

وهي مع سورة الفلق تسميان بـ«المعوِّذتين»، كما تقدم في «سورة الفلق».

* عدد آياتها: ست آيات، وقيل: سبع آيات[4].

* توقيت النزول:

الخلاف فيها كالخلاف في سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، والجمهور على أنها

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٦٢)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٩٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للنحاس (٥/ ٣٨١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١).

(٢) ورد ذلك في حديث عقبة بن عامر ﷺ، ينظر ما تقدم في «سورة الفلق».

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص٢٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٢).

مكية، وهو القول الراجح عن ابن عباس ﷺ.

وقيل: مدنية؛ وهذا باعتبار أنها نزلت بسبب قصة لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي وسحره للنبي ﷺ[1].

وفي هذه السورة جوانب يحسن التنبه إليها مع سورة الفلق، ففي «سورة الفَلَق» علَّمنا الله سبحانه وتعالى أن نستعيذ بـ «رب الفَلَق»، ولم يذكر إلا هذا الاسم له سبحانه وتعالى، ثم ذكر الاستعاذة من أربعة شرور، ومرجعها إلى ثلاثة؛ لأن الأمر الأول منها عام: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:٢] ثم فصَّل ثلاثة أشياء: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق:٣-٥].

أما في هذه السورة فنلاحظ العكس؛ حيث إنه أمر بالاستعاذة بثلاثة أسماء من أسمائه عز وجل، فقال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١-٣]، ثم ذكر المستعاذ منه وهو شيء واحد فقال: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ [الناس:٤].

* ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾[الناس:١-٣]:

قوله: ﴿قُلۡ ﴾ شأنها شأن مثيلاتها في مواضع عديدة.

وبين «الرب» و«الإله» فرق، فـ«الرب» هو: الخالق المالك المتصرف، أما «الإله» فهو المعبود.

أما سر ذكر «الملك» مع «الرب»، مع أن «الرب» يتضمن معنى «الملك»، فلعل

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٥٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١)، والمصادر السابقة.

ذلك لمعانٍ منها:

١ - أن الناس من عادتهم إذا أصابتهم نازلة أن يلجؤوا إلى أكابرهم وملوكهم، فيطلبون منهم الحماية، وأقصى ما يتمناه الإنسان في الدنيا إذا خاف من شيء أن يكون في حماية «الملك»؛ لتكون كل قوى الملك في خدمته وحفظه ووقايته.

فكان للتنصيص على اسم «الملك» معنًى مباشرًا في حس القارئ الذي يستشعر أن ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ يحميه، وإذا حماه «الملك» فلا يضره أن يكون البشر والعبيد والجنود والرعية معه أو ضده، كما يقال:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها نمْ فالمخاوفُ كلُّهن أمانُ

٢- أن الضرر غالبًا ما يلحق الناس من الأكابر، من الملوك ومَن حولهم من الأعوان والحاشية.

وكانت العرب تخاف من ملوك الجن ويستعيذون بهم إذا نزلوا واديًا من شر سفهائهم، وكذلك السحرة؛ فإنهم كثيرًا ما يعوِّلون على ملوك الجن الذين يطيعونهم، ويأتمرون بأمرهم، وينصاعون لأقوالهم.

واليوم صار للملوك معنى أوسع لا يختص بذوي السلطة السياسية، بل يتعداها إلى النفوذ العالمي، كالنفوذ الإعلامي أو الاجتماعي.. وأباطرة الإعلام يبثون للناس عبر تقنياتهم كمًّا هائلًا من التأثيرات المثيرة للغرائز والمهيِّجة للعواطف، مما يشكِّل مادة استهلاكية تمنحهم متعة عابرة، وتسرق من جيوبهم دخلهم المحدود.

ومثلهم أباطرة الموضة الذين يتحكَّمون في أذواق الناس، ويتدخلون في أخص خصوصياتهم، ويفرضون عليهم ما يلبسون، حتى يصبح هذا قانونًا عامًّا يصعب على الفرد مخالفته أو الخروج عنه، وهم يملكون المال والدعاية والمصانع والإعلان، ويشتغلون على تحريك وساوس الناس بالشهوات المغرية أو بالشبهات المشكِّكة.

ولهذا جاء التأكيد على معنى «الملك» لله سبحانه وتعالى، وأن الأمر بيده، وأن السلطان له، وهذا معنًى مناسب لأن يستعيذ الإنسان من شر أولئك الملوك الذين يسطون سلطتهم على كثيرين، وكأنهم وكلاء عن الشيطان.

وقد ذكر السياق «الناس» ثلاث مرات، ولم يقل: (أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم)، وهذا ما يسمى بإقامة الظاهر مقام المضمر.

وفي الآيات التكرار الحلو العذب على اللسان، فإن الإنسان يقرأ السورة ويستشعر جمال المعنى، ويجد الكلمة في سياقها ملائمة لا ينوب غيرها عنها، والتكرار فن في لغة العرب وأسلوب القرآن، ومنه تكرار مالكِ بنِ الرَّيْبِ لبعض الألفاظ في قصيدته المشهورة التي قالها في مرض الموت، وفيها:

فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عَـرْضَه ... وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا ... مـزارٌ ولـكـنَّ الغضا ليس دانـيـا

كرّر كلمة «الغضا» في هذين البيتين خمس مرات، وذلك من حرارة الشوق واللهفة والذكريات الحلوة لأيام الغضا وبإيقاع يُطرِبُ القارئ والسامع.

وهكذا فتكرار كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا هو احتفاءٌ بالناس الذين يذكرهم ربهم في آخر سورة في المصحف وفي نهاية كل آية من هذه السورة.

ويعرِّف نفسه سبحانه وتعالى بأنه: ربهم وملكهم وإلههم، وهو رب كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء.

إن الناس وحدهم هم المتعبدون بالأمر والنهي، بخلاف الملائكة والطيور والأشجار والجمادات وغيرها؛ فإنها مسخَّرة بأمر ربها.

والناس من شأنهم أن يطيعوا فيُشكروا ويجزوا بالجنة، أو يعصوا ويكفروا فيجزوا بالنار، فهي تبعة ومسؤولية يقابلها حساب وجزاء.

والإشادة بالناس معنى يتكرر في القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠]، وفي كثير من المواضع يأتي الخطاب المكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وأيُّ رفعة للبشر أعظم من أن يخاطبهم ربهم خطابًا مباشرًا في نص قدسي يُتلى إلى يوم الدين!

* ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٤-٥]:

لم يستعذ من «الوسواس»، بل من «شرِّه»؛ لأن «الوسواس» يعرض للإنسان فيدفعه ولا يضره، كما في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به؟ فقال ﷺ: «**وقد وجدتموه؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»(١).

فلم يضرهم، ولم يكن شرًّا بالنسبة لهم؛ لأنه محض الإيمان، وهو كيد الشيطان الذي عجز عن التأثير عليهم به، فرد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال ﷺ: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن مجرد حصول الوسواس في القلب ينبغي ألَّا يُقلق الإنسان، وإنما يستعيذ بالله تعالى من شره، وكثير من الناس ليست مشكلتهم المرض ذاته، فقد يكونون في عافية منه، بل مشكلتهم الخوف من المرض، ولذلك كان من أفضل ما يُوصَى به المبتلون بالوسواس هو الإهمال.

والشيطان مثل الكلب إذا التفتَّ إليه فإنه يلحقك ويتحرَّش بك، وإذا أهملته

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٨٢٧)، وأحمد (٢٠٩٧، ٣١٦١)، وأبو داود (٥١١٢)، وابن حبان (١٤٧).

وتركته نبح مرة أو مرتين وتركك.

والوسواس مأخوذ من الوسوسة، كالزلزال والزلزلة، وهو الصوت الخفي، كما قال امرؤ القيس:

تسمعُ للحَلْي وسَوْاسًا إذا انصرفتْ كما استعان بريح عِشرِقٍ زَجِلُ

«الوسواس» هنا صوت الـحَلْي الخفيف إذا احتك بعضه ببعض، فهو ليس شيئًا ظاهرًا، ولكنه مؤثر في قلب الإنسان، فتسميته بـ «الوسواس» إشارة إلى ضعفه وأن تأثيره السيئ ناتج عن الاستجابة والإصغاء.

و﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: صيغة مبالغة، بمعنى أنه يخنس، يعني: يرجع، يقال: خنسَ، إذا اختفى، كما قال عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦]، قيل: هي النجوم التي تطلع وتغيب، فقوله: الخناس، يعني: أنه كلما ذُكر الله تعالى خنس وهرب.

فهو إذًا ضعيف في ذاته، سريع الانـدحار كلما قاومه الإنسان واستعاذ بالله منه.

ولذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء:٧٦]، ونستطيع أن نقرنه مع قوله هنا: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وهذا معنًى لطيف.

ومن ضعفه أنه يوسوس في «الصدور»، ولم يقل: في القلوب، والقلوب في الصدور، ولكن لو كان الوسواس في القلوب لكانت المشكلة أكبر؛ لأن معنى ذلك أن القلب أصبح سكنًا للشيطان، وإنما الواقع أن الشيطان يوسوس في الصدور، ولا يلزم أن تصل وسوسته إلى القلب ولا أن تستقر فيه.

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عز وجل آدم وحواء قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه:١٢٠]، في حين أنه قال هنا: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾وسوس إليه لأنه كان في الجنة، وكأنه أرسل إليه الوسواس إرسالًا؛ ولذلك جاءت كلمة: (إلى)

التي تدل على أنه كان بعيدًا عنه، وإنما يبعث إليه الوسواس بعثًا، أما هنا فقال: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ للدلالة على أن الشيطان يلازم ابن آدم، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[1]. يعني: في العروق، فناسب أن يعبِّر في الآية بلفظ: ﴿فِي﴾.

فبدأت السورة بذكر ما يدل على ضعف الشيطان من كون أمره مجرد وسوسة، وأنها كثيرًا ما تندفع، فلا يكون منها شر على المؤمن، وأنها إن أحدثت أثرًا، فسرْعان ما تخنس وتختفي، وأن ميدانها الصدر وليس القلب.

وثنَّت بما يدعو إلى الحذر منه وأن أمره قد يتطور ويعظم بالاستجابة من كونه شرًّا محتملًا، ومتكررًا، وقريبًا فهو في الصدور.

* ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]:

قد يُظن أن في الآية إشكالًا مع ما قبلها؛ حيث قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فبيَّن الله سبحانه وتعالى لنا أن الشيطان ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فهل الناس يكونون من الجِنَّة والناس، أو أن هناك معنًى آخر في الآية؟

الجواب: يحتمل أن الناس مأخوذ من النوس، وهي الحركة، وعلى هذا فإن الجن يسمون «ناسًا»، ويكون المعنى: يوسوس في صدور الناس من الجن والإنس[2].

هذا معنًى ضعيف، وفيه تكرار وتداخل.

وأجود منه أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ ليس متعلقًا بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٤، ٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي ﵂.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٧-٣٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٣-٢٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٥).

﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، بل بقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ﴾ أي: بالموسوِس نفسه، فقد يكون الوسواس من شياطين الجن، وهم إبليس وجنوده، أو من شياطين الإنس، وهذا أمر معروف، كما قال الله عز وجل في الآية الأخرى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، فالشيطان الجني يوسوس للإنسان، والشيطان الإنسي وهو قرين السوء يوسوس للإنسان، فعلى هذا فقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ راجع إلى ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ﴾ وليس إلى «الناس»، فكأنه قال: استعذ بالله من الوسواس الخناس، سواءً كان وسواسًا إنسيًّا أو جنيًّا، ممن يوسوس في صدور الناس[1].

وذكر بعضهم معنًى آخر غريبًا، وهو حسن، وإن لم يكن مشهورًا عند المفسرين، وهو: أن ﴿النَّاسِ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي من النسيان، فحذفت الياء، والمعنى أن الشيطان يوسوس في صدور الناسي الذي ينسى؛ لأنه إنما يتسلط على مَن ينسى ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.

وهذا ما يسميه البلاغيون بالجِناس التام بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي ينسى[2].

وهنا تكون الاستعاذة للجن والإنس؛ لأن النسيان يكون منهما معًا، والشيطان يوسوس في صدور كل مَن ينسى، من الجن والإنس.

وعلى هذا الوجه، فليس في السورة تقديم وتأخير، بل آخر آية فيها هي بيان وتفسير لما قبلها، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) ينظر: «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي (١/ ٧٤-٨٥)، و«الطراز لأسرار البلاغة» (٢/ ١٨٥).

فهرس المحتويات

ο ο ο